د. أمير بن محمد المدري

موسوعة غزوات النبي المصطفى

دروس وعبر

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله مُعزّ من أطاعه واتقاه، ومذلّ من خالف أمره وعصاه، قاهر الجبابرة وكاسر الأكاسرة، لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه، ينصر من نصره ويغضب لغضبه ويرضى لرضاه، أحمده سبحانه وأشكره حمدًا وشكرًا يملآن أرضه وسماه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه ومصطفاه، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين ولكل من نصره ووالاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١]

وبعد :

حين ينظر المرء نظرةً لواقعنا ، ويقارنه بماضينا يتحسر ، يتحسر يوم يَجِد البَوْن شاسعًا و الفرق عظيمًا ، يتحسر يوم يرى تلك الأمة و قد كانت قائدة و إذا بها قد أصبحت تابعة.

الأمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعود إلى المنهج النبوي والسيرة النبوية

لأخـذ الـدروس والعـبر النـيرات المباركـات، وتـتعلم منهـا الآداب الرفيعـة، والأخـلاق الحميـدة، والعقائـد السـليمة، والعبـادة الصـحيحة، وسـمو الأخـلاق، وطهارة القلب، وحب الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهادة في سبيله؛ ولهـذا قـال عـلي بن الحسن: «كنا نُعلَّم مغازي النبي ﷺ كما نُعلَّم السـورة مـن القـرآن» وقـال الزهـري: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا»(١).

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: «كـان أبي يعلمنـا مغـازي رسول الله ﷺ يعدها علينا ويقول هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»(٢).

اقـرءوا التَّـارِيخَ إِذْ فيـه العِـبَرْ *** ضَـلَّ قَـوْمٌ لَـيْسَ يَـدْرُونَ الخَـبَرْ

وها نحن نحط وإياك أخي القارئ في بداية هذه الموسـوعة المباركـة بـإذن الله :(**غزوات النبي المصطفى دروس وعبر**).

وفيها حاولت الغوص في بطون كتب السيرة النبوية القديمـة والمعـاصرة لاستلهام الدروس والعبر مـن غزواتـه ﷺ بـلا إطالـة ولا إسـهاب في ذكـر الروايات والآثار والأحاديث لتكون سهلة الفائدة للقارئ الكريم.

وأسال الله الكريم الوهاب العزيز التواب أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

(١) البداية والنهاية: لابن كثير(٢٥٦/٣، ٢٥٧) ط/ دار المعرفة، (٢٤٢/٣) ط١٩٧٨/٢م مكتبة المعارف – لبنان ، مكتبة النصر– الرياض.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢٤٢/٢).

أول محطة نقفها وإياكم في هذه الموسوعة مع غزوة بدر الكبرى ، وسوف نلقي الضوء على بعض الدروس والعبر حول هذه الغزوة ليأخذ المسلمون منها الزادَ في مقارعة الأعداء ومنازلة الخصوم، في هذا الوقت العصيب الذي تداعى فيه الأكلة لغزو بلادنا، وتدنيس أرضنا، ونهب خيراتنا، على نهر من الدماء، وتلال من الضحايا والأشلاء، متجاوزين بذلك كل المواثيق والأعراف الدولية، بل متجردين من كل معاني الإنسانية.

المسلم عندما يطالع أنباء موقعة بدر، ويستعرض مقدماتها ونتائجها؛ يشعر أن لها منزلة خاصة، ويدرك أن التاريخ أودع في فصولها سرًّا تكتنفه الهيبة، وجعل من أدوار القتال فيها موعظةً خالدةً لا تفتأ تتجدد ذكراها ما بقي في الدنيا قتال بين الحق والباطل، وصراع بين الظلام والنور.

۞ **غزوة بدر الكبرى**: إنها الموقعة الفاصلة في عبادة الله على هذه الأرض هل ستبقى أم ستفنى؟! ويشعر قائد المعركة بهذه الحقيقة الحاسمة فيلجأ إلى الله مستنجزًا وعده، مستقبل القبلة، وماداً يده يهتف :«اللهُمَّ آتني ما وعدتني، اللهُمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تَهلِكَ هذه العصابة من أهل الإسلام فلن

تُعبَد في الأرض»، وما يزال يهتف بربِّه مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، وحتى نزل الوحي مطمئنًا؛ ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر:٤٥]

۞ **غزوة بدر الكبرى**: موقعة تكون الخصومة فيها في الله، ويكون القتال فيها بدايةً لسلسلة من المعارك، يحتدم النزاع فيها بين الحق والباطل، هذه السلسلة من المعارك التي خاضها المسلمون – من بعد- في فارس والروم لا تحسب الصلة بينها وبين بدر مقطوعة؛ إنها صلة النسب بين الأصل ونتائجه؛ فكان أول سيف شُهِرَ في بدر إيذانًا بابتداء النضال المسلح بين الحق والباطل، كلما انتهت معركة قامت أختها.

۞ **غزوة بدر الكبرى**: هي أعظم غزوات الإسلام فضلاً وشرفًا للأسباب التالية:

أولاً: لأنها أول غزوة كان لها أثرها في إظهار قوة الإسلام، فكانت بدءَ الطريق ونقطة الانطلاق في انتشار الإسلام.

وثانيًا: لأنها رسمت الخط الفاصل بين الحق والباطل، فكانت الفرقان النفسي والمادي والمفاصلة التامة بين الإسلام والكفر، وفيها تجسدت هذه المعاني، فعاشها الصحابة واقعًا ماديًا وحقيقة نفسية، وفيها تهاوت قيم الجاهلية، فالتقى الابن مقاتلاً لأبيه وأخيه والأخ مواجهة لأخيه.

وثالثًا: لأن المحرك لها هو الإيمان بالله وحده، لا العصبية ولا القبيلة ولا الأحقاد والضغائن ولا الثأر، وفيها تجلت صور رائعة من الإيمان بالله وصفاء

العقيدة وحب هذا الدين.

❁**غزوة بدر الكبرى** :بنت التصور الإسلامي لعوامل النصر والهزيمة بطريقة عملية واقعية، وقررت أن النصر ليس بالعدد ولا بالعدة، وإنما بمقدار الاتصال بالله الذي لا يقف أمامه قوة العباد، ليوقن المسلمون في عصورهم المختلفة أنهم يملكون في كل زمان ومكان القدرة للتغلب على أعدائهم مهما كانوا هم من القلة وعدوهم من الكثرة، شريطة أن تتحقق فيهم عوامل النصر الحقيقية.

❁**غزوة بدر الكبرى**: تُعد ميلاداً ثانياً لقوةٍ ناهضة ودولةٍ ناشئة للمسلمين، ظنتها قريش لا تقوى على مطاولة أو مجاولة، لكن نصر الله للمسلمين في هذه الغزوة مكَّن للدين في النفوس، وللإسلام في جزيرة العرب، بل العالم كله.

❁**غزوة بدر الكبرى**: كانت إيقافًا لمدِّ الشركِ على ظهر الأرض وتقليم أظافره والإطاحةِ بكل رؤوسه ودفنهم في بدر، لقد خرج أبو جهل وقال له الناس: ارجع قد نجت التجارة، ارجع لا داعي للاشتباك مع محمد فقال: لا، وأقسم باللات والعزى أنه لن يرجع، حتى يَرِد بدر فيقيم فيها ثلاثًا، ماذا يصنع؟ ينحر ويذبح ويشرب ويُغني ويعزف وتسمع الدنيا بمسيرته، فلا يجرؤ محمد ولا غيره أن يتعرَّض لهم مرة أخرى، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: ٤٧، ٤٨].

❁ **غزوة بدر الكبرى**: أوقفت التطاول على رُسل الله وعلى منهج الله وعلى دين الله، ولذلك القرآن الكريم يقول للمسلمين لأهل بدر: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ [الأنفال:٧] تريدون التجارة والله يريد أمرًا آخر، أمرًا كبيرًا، أمرًا عظيمًا، أمرًا هو بداية للبشرية، للحياة الحقيقية للبشرية ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾ [الأنفال:٧]

❁ **غزوة بدر الكبرى** :ليست كتابًا يُقرأ ولا محاضرة تُقال، بدر ينبغي على المسلم أن يعيشها وهي حُجة على كل مسلم على ظهر الأرض، أنَّ النصرَ منه قريب لو آمن بالله حقًا، وأنه لا يهودية ولا نصرانية ولا شيوعية، كل هؤلاء عندما يعتصم المسلمون بالله يصبحون هباء ويصبحون هواء، ونفخة واحدة لا تُبقي منهم أحدًا، حين أقبل أهل بدر على المولى- تبارك وتعالى- وصدقوا وتجرَّدوا وأخلصوا وطرحوا الدنيا وراءهم، ووضعوا في أنفسهم أمرًا واحدًا؛ أن تكون كلمة الله هي العليا وما عداها السفلى عندها قال الله لهم: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]

❁ **غزوة بدر الكبرى** :التي فُرِضَت على المسلمين فرضًا، وفُوجِئوا على غير استعداد بتحدي صناديد قريش وأبطالها لهم؛ ولم يكن بُدٌّ من قَبول هذا التحدي، وواجه النبي ﷺ الموقف بما يتطلبه من إيمان وثقة، غير أن كثيرًا من المسلمين تساءل..؛ إذ كيف يواجه هذا العدو الذي لم يستعد له؟! ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال:٥]

❁ **غزوة بدر الكبرى**: التي كانت بعد أن بلغ المسلمين تحرُّكُ قافلة تجارية كبيرة من الشام تحمل أموالاً عظيمة[١] لقريش يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلا[٢] ، فأرسل الرسول ﷺ بَسْبَس بن عمرو[٣]لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله ﷺ أصحابه للخروج وقال لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»[٤]، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ومن المؤكد أنه حين خروجه ﷺ من المدينة لم يكن في نيته قتال، وإنما كان قصده عير قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال

---

(١) قدرت قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي ٥٠ ألف دينار، انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/٢٨٦).

(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص(١٠٧).

(٣) ورد الاسم في صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصحفًا إلى بسيسة وصححه ابن حجر.

(٤) ابن هشام السيرة (٢/٦١) بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءًا من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلمًا وعدوانًا[١].

❁**غزوة بدر الكبرى**: كان عدد المسلمين فيها ثلاثمائة وتسعة عشرة رجلا[٢]،من المهاجرين ستة وثمانون ومن الأوس أحد وستون ومن الخزرج مائة وسبعون وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج ، وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة ، في حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمائة»[٣]. ، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين،[٤] وكانت قوات المسلمين في بدر لا تمثل القدرة العسكرية القصوى للدولة الإسلامية، ذلك أنهم إنما خرجوا لاعتراض قافلة واحتوائها، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش وأحلافها مجتمعة للحرب، والتي بلغ تعدادها ألفًا[٥] معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان يضربون بالدفوف، ويغنين بهجاء النبي ﷺ وأصحابه، في حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فرسان، وكان معهم سبعون بعيرًا يتعاقبون ركوبها[٦].

---

(١) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، . محمد آل عابد (٤٣/١).
(٢) مسلم، شرح النووي (٨٤/١٢).
(٣) فتح الباري (٢٩٠/٧-٢٩٢).
(٤) البداية والنهاية (٣١٤/٣) وكذلك الطبقات، وخليفة بن خياط.
(٥) البداية والنهاية (٢٦٠/٣).
(٦) المسند (٤١١/١)، مجمع الزوائد (٦٩/٦)، جوامع السير، ص١٠٨.

۞ **غزوة بدر الكبرى**:التي استشهد فيها من المسلمين يومئذ أربعة عشرـ رجلا : ستة من المهاجرين وستة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، وفرغ رسول الله ﷺ من شأن بدر والأسرى في شوال .

۞غزوة بدر الكبرى بالأرقام:

عدد المسلمين: (٣١٤) .

عدد المشركين:(١٠٠٠).

شهداء المسلمين: (١٤).

قتلى المشركين:(٧٠)قتيلاً، و(٧٠) أسيرًا وعامتهم من القادة والزعماء والصناديد.

العتاد: المسلمون لم يكن معهم سوى (فرسين).

المشركون:(١٠٠)فرس عليها مائة درع، سوى دروع في المشاة، و (٧٠٠) ناقة.

۞ **غزوة بدر الكبرى** : هي الغزوة الأولى من نوعها في تاريخ الإسلام، والتي أعز الله فيها الإسلام وأهله، ومرّغ أنف الشرك في أوحال الهزيمة بعد أن قذفت قريش في خضم هذه المعركة برجالها وصناديدها، ولكن الله جعل كيدهم في نحورهم، لأنهم خرجوا، والغرور يملأ نفوسهم، والشيطان فيها

حليفهم.

۞**غزوة بدر الكبرى** : ـهي الغزوة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون فرقاناً بين الحق والباطل، وفرقاناً في خط سير التاريخ الإسلامي، ومن ثَم فرقاناً في خط سير التاريخ الإنساني.

۞**غزوة بدر الكبرى** : هي الغزوة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يتعلم المؤمنون منها عوامل النصر وعوامل الهزيمة، وأن يأخذوها مباشرة من الله عز وجل، وهو في ميدان المعركة وأمام مشاهدها.

۞**غزوة بدر الكبرى** : هي الغزوة التي تجلّت فيها نعم الله تعالى على عباده المؤمنين بالنعاس والمطر والملائكة .

۞**غزوة بدر الكبرى** : هي الغزوة التي تجلى فيها روح الإيمان والإخلاص لله تعالى ومبدأ الإعداد والتخطيط الدقيق من قبل الرسول ﷺ وأصحابه لهذه الغزوة.

۞**غزوة بدر الكبرى** : ـهي الغزوة التي تجلى فيها مبدأ الأخذ بالأسباب ومبدأ الشورى بين القائد والجيش.

هذه غزوة بدرٍ الكبرى إجمالاً وإليك أخي القارئ الدروس والعبر من هذه الغزوة بالتفصيل والله الموفق وعليه التكلان.

١- وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌ لكم:

حين نودي على الجهاد وعد الله المؤمنين هذا الوعد:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].. والنفس البشرية دائمًا تميل إلى الراحة والدعة وتتوقى المشقة والضرر، ولو كان في الراحة الخسران وفي الضرر والمشقة النصر والتمكين وهذا ما حكاه القرآن، في هذا الوعد ويتأكد في قوله تعالى :﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد. قال الحسن ﷺ: **"لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلرب أمرٍ تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك"**، وأنشد أبو سعيد الضرير:

ربّ أمرٍ تتقيه جرَّ أمرًا ترتضيه خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه

ومن كلام الحكماء:

"ربّ مسرة هي الداء، ومرض وهو الشفاء".

وكما قيل:

كم نعمةٍ مطويةٍ لك بين أنياب النوائب

ومسرةٍ قد أقبلت من حيث ترتقب المصائب

فاصبر على حدثان دهرك فالأمور لها عواقب

ولكل كرب فرجة ولكل خالصة شوائب

و (عسى) من الله إيجاب، والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة، وهو خير لكم في أنكم تَغلبون وتَظفرون وتَغنمون وتُؤجرون، ومن مات مات شهيدًا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال، وهو شر لكم في أنكم تُغلبون وتُذلون ويذهب أمركم، ثم يقول القرطبي معقِّبًا: **"وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهادَ، وجبُنوا عن القتال، وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! وأَسَرَ وقَتَل وسبى واسترقَّ، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته.!"**

هذا الذي قاله الإمام القرطبي على الأندلس نقوله نحن عن فلسطين، وقد انتزعها بضعة ملايين من يهود، من أيدي مليار مسلم؛ وذلك لتركهم الجهاد،

وقعودهم عن القتال، وإخلادهم إلى الأرض، وإتباعهم الشهوات؛ إذ الجهاد والقتال كريه إلى النفس وبغيض إلى القلب، بينما الترف والشهوات وزينة الأرض محبوبة إلى النفس ويهواها القلب، وغابت عنهم حقيقة هذه الآية، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي بدر ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٧].

٢- قوة الإيمان هي السلاح البتار:

فما الذي حمل هؤلاء الأصحاب على أن يقفوا هذا الموقف مع أن جذوة المعركة وجوانبها المادية؛ لتجعل أشدَّ الناس تفاؤلاً ينظر إلى آثارها من خلال غيوم سُود؟

إنه الإيمان بالله الذي يضع أمر الله ورسوله في جانب، والدنيا كلها في جانب آخر، وإنه التسليم لله ورسوله مهما حذَّر العقل، ونهت ظواهر الأشياء، وإنها الثقة التي لا تُجادل في أن الموت في الله شرف، لا يقل عن شرف النصر على الناس، وهيهات لمن يحمل هذه المبادئ أن يَذِلَّ أو يُهزَم، أو يكون بعيدًا عن تأييد الله ونصره.

وهكذا جرفت موجة الإيمان كافة عوامل التردد، وجاءت الساعة الرهيبة ودار القتال، ومشى مَلَك الموت يقطع رقاب الكفار، وتنجست

الرمال بدماء الطائفة التي آذت الله ورسوله، وَوَطِئَت أقدام المسلمين حدودًا وجباهًا طالما استنكرت أن تسجد لله رب العالمين.

يقول شاهد عيان لأبي لهب يصف له ما كان: ولا تسيء يا عماه ما كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافَنَا يقتلونَنَا؛ ويأمرونَنَا كيف شاءوا.. لقينا رجالاً لا يتلقاهم شيء، ولا يقوم لهم شيء، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤمِنينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* ذَلِكُم وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ﴾[الأنفال: ١٧ـ١٨].

وإذا كان الله قد أمر بإعداد ما نستطيع من قوة لمواجهة الأعداء؛ فإن أعظم القوة الإيمان الصادق بالله، وعدونا لا يخشى في ميدان المعركة الأسلحة التي بأيدينا، ولكنه يخشى من سلاح الإيمان الذي يستمد قوته من الله؛ لأنه السلاح الذي لا يقهر واليقين الذي لا يغلب، ولا أدلَّ على ذلك في عصرنا الحاضر من تسخير الأعداء كل قواهم لاغتيال الشيخ أحمد ياسين، وهو القعيد الذي لا يحمل طلقةً، ومن قبله يتآمر العالم على اغتيال الإمام البنا- رحمهما الله- الأعزل من أي سلاح، وليس لذلك من سبب إلا الخوف من مخازن أسلحة الإيمان، فالمصلحون المخلصون والدعاة الصادقون يحملون بين جنباتهم مصانع إيمان تبث إنتاجها في قلوب من حولهم، ويمدون به كل جبان رعديد، فإذا به في الميدان أسدٌ هصورٌ، كما يبعث الإيمان بالأمل في قلوب اليائسين القانطين،

فيتوجهون لملاقاة العدو، وكلهم يقين أن نصر الله آتٍ، وأن التمكين لهم قريب :﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران١٦٠].

٣- قوة الترابط بين المؤمنين:

وبعد قوة الإيمان تأتي قوة الترابط بين المؤمنين والمحبة فيما بينهم والتآلف بين قلوبهم، وهذه منّةٌ من الله ومن أعظم أسرار النصر: يقول الله تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٦٢-٦٣].

وقفنا أمام غزوة بدر الكبرى، فعلمنا أن من أسباب النصر العظيمة تآلف القلوب وتراحمها، كان أصحاب النبي في قلة من العدد والعدة، ولكن كانت بينهم المحبة والصفاء والمودة، كانوا متراحمين متعاطفين متآلفين متكاتفين متناصرين متآزرين، شعارهم: لا إله إلا الله فسبحان من أعزهم وهم أذلاء، سبحان من أغناهم وهم فقراء، سبحان من رفعهم وهم وضعاء.

التآلف والتعاطف والتكاتف والتناصر والتآزر سبيل إلى نصر المؤمنين، طريق لعزة الأخيار والصالحين، فإن وجدت أهل الإسلام متعاطفين متراحمين فاعلم أن النصر حليفهم، وإن وجدتهم متقاطعين متباعدين متناحرين، إن مزقتهم الجماعات والحزبيات والرايات والشعارات فادمع على الإسلام بين

أهله.

إن من أبرز سمات معركة بدر أنه تلاشت فيها العصبيات والقبليات وعبية الجاهلية، فلم يكن المسلمون ينتصرون لقبيلة أو لون أو جنسية، بل كانوا ينصرون الإسلام وأهله ويواجهون المشركين أعداء الله بغض النظر عما بينهم من خلافات إن وُجد بينهم خلافات، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٧٦]. وهذا هو حال المسلم في كل مكان وزمان، ينصر إخوانه المسلمين ولو اختلفت ألسنتهم وألوانهم؛ لأنه بذلك ينصر الدين والعقيدة والملة، فالمسلمون يوم بدر قاتل الأخ أخاه والابن أباه، فلا مجال للمساومات؛ إذ العقيدة لا تقبل المساومات ولا التنازلات. ولقد استشار النبي ﷺ الصحابة في أسرى بدر، فقال عمر له: أرى أن تمكّنّا فنضرب أعناقهم، فتمكِّن عليًّا من أخيه عقيل فيضرب عنقه، وتمكّنّي من فلان نسيبي فأضرب عنقه، وأشار أبو بكر رضي الله عنه على الرسول ﷺ أن يقبل الفدية ففعل، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾ [الأنفال:٦٧].

وما أحسن بيان هذا المعنى في قول الإمام البنا: "ولقد كنت -ولا زلت- أقول في كل مناسبة: **"إنكم لن تُغلَبوا أبدًا من قلة عددكم، ولا من ضعف وسائلكم، ولا من كثرة خصومكم، ولا من تألُّب الأعداء عليكم، ولو تجمع أهل الأرض جميعًا ما استطاعوا أن ينالوا منكم، إلا ما كتب الله عليكم،**

ولكنكم تُغلبون أشدَّ الغلب، وتفقدون كل ما يتصل بالنصر والظفر بسبب إذا فسدت قلوبكم، ولم يصلح الله أعمالكم، أو إذا تفرقت كلمتكم، واختلفت آراؤكم.. أما ما دمتم على قلب رجل واحد متجه إلى الله تبارك وتعالى، آخذ في سبيل طاعته، سائر نهج مرضاته، فلا تهنوا أبدًا ولا تحزنوا أبدًا، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم".

والحديث عن غزوة بدر في سورة الأنفال يؤيد هذا المعنى؛ حيث يقول تعالى في صدر السورة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَّ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

فإصلاح ذات البين وتوحيد الصف، ورفع النزاع والخصومة بين المؤمنين من أولى مقومات النصر ولوازمه، والتفرق والتنازع من أعظم مسببات الضعف والفشل.. ﴿وَأَطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَّ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٤- الثبات وذكر الله عند لقاء الأعداء:

في الحديث عن غزوة بدر، والتعقيب عليها في سورة الأنفال يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَّ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] أمر الله تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا

ينسوه، بل يستغيثوا به ويتوكلوا عليه أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على أعدائهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

٥- الشورى بين القائد الجند:

لما بلغ النبيَّ ﷺ نجاةُ القافلة وإصرار زعماء مكة على قتال النبي ﷺ استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الأمر، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش، حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناع الرسول ﷺ بوجهة نظرهم.

وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو،[١] وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميزٌ، فقد قال عبد الله بن مسعود ﷺ: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عُدلَ به[٢]: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/٢٨٨).

(٢) المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خُير بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك لكان حصوله أحب إليه.

وخلفك. فرأيت الرسول ﷺ أشرق وجهه وسرَّه[١]، وفي رواية:[٢] قال المقداد: يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكن امضِ ونحن معك، فكأنه سرَّى عن رسول الله ﷺ.

وبعد ذلك عاد رسول الله ﷺ فقال: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، وكان إنما يقصد الأنصار؛ لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول ﷺ خارج المدينة، وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي ﷺ من ذلك فنهض قائلاً: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل». قال: (**لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله**)[٣]. سُرَّ النبي ﷺ من مقالة سعد بن معاذ، ونشطه ذلك فقال ﷺ: «سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» [٤].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي (٧/٢٨٧).
(٢) البخاري، كتاب التفسير (٨/٢٧٣).
(٣) مسلم (٣/١٤٠٤) رقم (١٧٧٩).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٣/٢٦٢) بإسناد صحيح، المسند (٥/٢٥٩) رقم (٣٦٩٨).

كانت كلمات سعد مشجعة لرسول الله ﷺ وملهبة لمشاعر الصحابة فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال.

إن حرص النبي ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات؛ ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فإما إلى العلياء، وإما تحت الغبراء[1].

٦- استكشاف قوة الأعداء :

قام النبي - ﷺ - باستكشاف قوة الأعداء بنفسه؛ حيث صحب أبا بكر، وتجوّلا حول معسكر مكة، فوجدا شيخًا من العرب فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه- سأل عن الجيشين زيادةً في التكتم- ولكن الشيخ قال لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ : « إذا أخبرتنا أخبرناك»، قال: أو ذاك بذاك؟ قال:« نعم» قال الشيخ: "فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهو اليوم بمكان كذا وكذا- للمكان الذي به جيش المدينة- وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا- للمكان الذي به جيش مكة".

ولما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ : «نحن من ماء» ، ثم انصرف عنه وبقي الشيخ يتفوّه، ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟!

---

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، ص٣٧.

ثم أرسل ثلاثة من قادة المهاجرين، علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، في نفر من الصحابة إلى ماء بدر فوجدوا غلمانًا يستقون لجيش مكة، فألقوا عليهم القبض وجاءوا بهم والرسول ﷺ يصلي، فقالوا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهم فضربوهم، فقالوا :نحن لأبي سفيان، ونحن في العير، فأمسكوا عنهم، فسلم رسول الله ﷺ وقال:« إن صدقوكم ضربتموهم وإذا كذبوكم تركتموهم؟» ثم أقبل عليهم يسألهم، فأخبروه أن قريشًا خلف هذا الكثيب وأنهم ينحرون يومًا عشرًا ويومًا تسعًا، وأعلموه بمن خرج من مكة، فقال ﷺ :« القوم ما بين الألف والتسعمائة » ، وقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها »[1] .

كان من هدي النبي ﷺ حرصه على معرفة جيش العدو والوقوف على أهدافه ومقاصده؛ ولأن ذلك يعينه على رسم الخطط الحربية المناسبة لمجابهته وصد عدوانه، فقد كانت أساليبه في غزوة بدر في جمع المعلومات تارة بنفسه وأخرى بغيره، وكان ﷺ يطبق مبدأ الكتمان في حروبه، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا المبدأ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾[النساء: ٨٣].

---

١)إمتاع الأسماع/ ٧٧.

٧- المسلم الصادق موصول بجند السماء:

إن المسلم في مواجهته للباطل يحشد ما استطاع من قوة، ولا يدَّخر في ذلك وُسعًا، ثم هو بعد ذلك لا يرهب قوة الأعداء، وإن كانت تفوقه عددًا وعتادًا؛ لأنه على يقين من أنه ليس في الميدان وحده، وإنما معه جند الله الذي لا يعلمها إلا هو، وفي بدر يتجلى ذلك في مواقف عدة؛ حيث تنتصر القلة المؤمنة على الكثرة المشركة وذلك بفضل ما سخر الله للمسلمين من جند السماء والأرض والتي كان منها:

أ- **الملائكة مدد من السماء**: حين استغاث الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بربهم أمدهم بالملائكة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]، والمتأمل يرى أن عدة الملائكة بعدة المشركين، وبذلك يتحقق ما أخبر به الله من البشرى والطمأنينة للمؤمنين: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:١٠].

ب- **النوم والمطر**: قبل المعركة كان المسلمون في حالة من التعب والإعياء والخوف يحتاجون معها إلى قسط من الراحة قبل المواجهة، كما أن ساحة المعركة كانت في حاجة إلى تجهيز وإعداد بما يمكِّن المسلمين من الحركة في الميدان وفي المقابل يعوق حركة المشركين؛ فأنزل الله عليهم النعاس والمطر.. ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ

وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال:١١] .

يقول الماوردي: "وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أن قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمَّنهم بزوال الرعب من قلوبهم، كما يقال: الأمنُ مُنِيم، والخوف مُسْهِر [١] ، وعن علي – رضي الله عنه – قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائمٌ إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت الشجرة حتى أصبح[٢]، وعن عروة بن الزبير – رضي الله عنه – قال :بعث الله السماء وكان الوادي دهسًا، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبَد الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه [٣] ، وروي أنهم كانوا على جنابة وظمأ، وأن الشيطان ألقى في قلوبهم الحزن، وقال: أتزعمون أن فيكم نبيًّا، وأنكم أولياء الله، وتصلون مجنبين محدثين؟! فأنزل الله من السماء ماءً فسال عليهم الوادي ماءً؛ فشرب المسلمون وتطهَّروا وثبت أقدامهم وذهبت وسوسته .

ج- **سلاح الرعب**: إن سلاح الرعب من أقوى الأسلحة التي يتحقق بها

١) القرطبي: ٧/ ٢٣٧
٢) الدر المنثور: ٣/ ٣١٠
٣)الدر المنثور: ٣/ ٣١١

الغلبة على الأعداء، وهذا السلاح إذا سرى في أقوى الجيوش وأعتاها، فإنه ينهار ولا يغني عنه لا عدد ولا عتاد، وهذا السلاح لا يملك خزائنه إلا من يقدر على الوصول إلى القلب الذي هو محلّ التثبيت والخوف والهلع، وتأمل قول رب القلوب: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

ومن خصائص نبينا ﷺ وخصائص الأمة الإسلامية النصر بالرعب مسيرة شهر؛ فعن جابر بن عبد الله أن النبي - ﷺ - قال: «أُعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة» [(١)].

إن الرعب سلاح يفتك بالمشركين والكافرين قبل المواجهة، قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[آل عمران: ١٥١]، وفي حق يهود يقول: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَار﴾ [الحشر: ٢]، وفي حق الأحزاب: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ

(١) فتح الباري: ١/٣٣٥

فَرِيقًا﴾[الأحزاب: ٢٦]؛ فسلاح الرعب سلاح ينفذ إلى أعماق القلوب، فيسلب من أصحابها العقلَ والحسَّ، ويجعلها في حالة من الذهول واللا وعي ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤] .

٨- من يحارب الإسلام إنما يحارب الله:

إن الذين ينصبون لواء الحرب والعداء على الإسلام والمسلمين إنما يعلنون الحرب على الله، ومن يعلن الحرب على الله لن تقوم له قائمة مهما كان عدده وعتاده، والعجيب أن قريشًا كانت تعلم ذلك، وهذه الواقعة تؤكد ذلك؛ فقد جاء في تفسيرقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٧]. عند القرطبي أن المقصود بالآية: «يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير، خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث خُفاف الكناني، وكان صديقا لأبي جهل، بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي مع ما خف من قومي، فقال أبو جهل: إنا كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا؛ فتهابنا

آخر الأبد، فوردوا بدرًا، ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»[١].

٩- خُطبة النبي - ﷺ - يوم بدر ترسم طريق النصر:

كل هذه المعاني السابقة وغيرها تجدها في خطبة النبي – ﷺ – يوم بدر؛ حيث حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:« أما بعد: فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق لا يقبل الله فيه أحد إلا ما ابتُغي به وجهه، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهمَّ، وينجي به من الغَمِّ، وتدركون النجاة في الآخرة، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر١٠].

انظروا الذي أمركم به من كتابه وأراكم من آياته، وأعزَّكم به بعد ذلة؛ فاستمسكوا به يرضى به ربكم عنكم، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمرًا تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته؛ فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين» [٢].

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/٢٥).

٢) المسند (٥/٤٣١).

١٠- مروءة ووفاء:

نهى النبي – ﷺ – عن قتل أبي البختري وفاءً لما قدم له من معروف وهو بمكة؛ لأنه كان كفَّ القوم عنه وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض صحيفة المقاطعة، ولكن أبا البختري قُتل؛ حيث إن المجذر بن زياد لقيه في المعركة مع صاحب له يقاتلان سويًّا فقال المجذر: يا أبا البختري إن رسول الله – ﷺ – قد نهانا عن قتلك، فقال: وزميلي؟! فقال: لا.. والله ما نحن بتاركي زميلك ما أمرنا رسول الله – ﷺ – إلا بك وحدك؛ فقال: لا والله إذن لأموتن أنا وهو جميعًا، لا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصًا على الحياة؛ فقال أبو البختري حين نازله المجذر وأبى إلا القتال، يرتجز:

لن يُسلم ابن حرة زميله   حتى يموت أو يرى سبيله

فاقتتلا، فقتله المجذر إلى قتله[1].

١١- أخوة الإيمان تعلو على أخوة النسب:

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صف المشركين، ثم وقع أسيرًا في يد أحد الأنصار، فقال مصعب

---

١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩٧

للأنصاري: شد يدك به فإن أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك، تلك كانت حقائق وليس مجرد كلمات: إنه أخي دونك[1]، إنها القيم المطروحة لتقوم الإنسانية على أساسها، فإذا العقيدة هي آصرة النسب والقرابة وهي الرباط الاجتماعي (٢).

فرابطة الإيمان أعلى الروابط وأبقاها، وتعلو على روابط الدم والنسب والأرض.

١٢- سيف عكاشة والمعجزة:

وذكر ابن القيم في زاد المعاد: أن سيف عُكَّاشة بن محصن انقطع يومئذ، فأعطاه النبي ﷺ جذلا من حطب، فقال: «دونك هذا» فلما أخذه عكاشة وهزه، عاد في يده سيفًا طويلاً شديدًا أبيض، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل في الردة أيام أبي بكر[3]. وقال رفاعة بن رافع: "رميت بسهم يوم بدر، ففقئت عيني، فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيء"[4].

قال الدكتور أبو شهبة: "وما ينبغي لأحد أن يزعم أن المعجزات الحسية لا ضرورة إليها بعد القرآن، فها هي قد بدت آثارها واضحة جلية في إسلام البعض، وتقوية يقين البعض الآخر، وإثبات أنه نبي يوحى إليه، فقد أخبر

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/٣٠٧).

(٢) انظر: معين السيرة، ص٢١٣.

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/١٨٦) وذكر المحقق أن ابن إسحاق ذكرها من غير سند.

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/١٨٦) والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.

بمغيبات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنه خبر السماء، وغير خفي ما يحدثه من انقلاب عود أو عرجون في يد صاحبه سيفا بَتَّارًا في إيمانه وتقوية يقينه، وجهاده به جهادًا لا يعرف التردد أو الخور، وحرصه البالغ على أن يخوض المعارك بسيف خرقت به العادة وصار مثلاً وذكرى في الأولين والآخرين[1].

١٣- حقيقة النصر من الله تعالى:

إن حقيقة النصر في بدر كانت من الله تعالى قال سبحانه فقد بين سبحانه وتعالى أن النصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. وقوله تعالى: (وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠].

في هاتين الآيتين تأكيد على أن النصر لا يكون إلا من عند الله عز وجل، والمعنى: ليس النصر إلا من عند الله دون غيره، و(العزيز) أي: ذو العزة التي لا ترام[2]، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى[3].

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه مع التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١٧٨/٢).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤١١/١).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣٠٢/٢) نقلاً عن حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (٩٧/١- ١٠٥).

وليس من الملائكة أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون، لكن يجب أن لا يغتروا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه، ثم بين سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأن النصر الذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمي النبي ﷺ المشركين بالتراب يوم بدر إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولاً وبفضله ومعونته. وبهذه الآية الكريمة يربي القرآن المسلمين ويعلمهم الاعتماد عليه، قال تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٧]. ولما بيَّن سبحانه وتعالى أن النصر كان من عنده، وضح بعض الحكم من ذلك النصر، قال تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٧، ١٢٨].

وأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتذكروا دائماً تلك النعمة العظيمة؛ نعمة النصر في بدر، ولا ينسوا من أذهانهم كيف كانت حالتهم قبل النصر، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [الأنفال: ٢٦].

١٤- يوم الفرقان:

سُمي يوم بدر يوم الفرقان، ولهذه التسمية أهمية عظيمة في حياة المسلمين، وقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن وصف الله تعالى ليوم بدر بأنه يوم الفرقان

في قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِالله وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١]. فقال: كانت غزوة بدر، التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده، فرقانًا بين الحق والباطل، كما يقول المفسرون إجمالاً، وفرقانًا بمعنى أشمل وأدق وأوسع وأعمق كثيرًا. كانت فرقانًا بين الحق والباطل فعلاً.. ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء والأشياء.. الحق الذي يتمثل في تفرد الله سبحانه بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير، وفي عبودية الكون كله سمائه وأرضه، أشيائه وأحيائه، لهذه الألوهية المتفردة، ولهذا السلطان المتوحد، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك، والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك، ويغشي على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء، فهذا الفرقان الكبير الذي تم يوم بدر، حيث فرق بين ذلك الحق الكبير، وهذا الباطل الطاغي، وزيَّل بينهما فلم يعودا يلتبسان.

لقد كانت فرقانًا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق، على أبعاد وآماد، كانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير؛ فرقانًا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور، وفي الخلق والسلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشرك في كل صوره التي

تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص، والأهـواء والقـيم والأوضـاع والتقاليد والعادات، وكانت فرقانًـا بـين هـذا الحـق وهـذا الباطـل في الواقـع الظاهر، كذلك فرقانًا بين العبودية الواقعيـة للأشـخاص، والأهـواء، وللقـيم والأوضاع والشرائع والقوانين وللتقاليد والعادات، وبين الرجوع في هذا كلـه لله الواحد الذي لا إله غيره، ولا متسلط سواه، ولا حاكم دونه، ولا مشرع إلا إياه، فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله، وتساوت الـرؤوس فـلا تخضـع إلا لحاكميته وشرعه، وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة.

وكانت فرقانًا بـين عهـدين في تـاريخ الحركـة الإسـلامية: عهـد المصـابرة والصـبر والتجمـع والانتظـار، وعهـد القـوة والحركـة والمبـادأة والانـدفاع، والإسلام بوصفه تصويرًا جديدا للحياة، ومنهجًا جديـدًا للوجـود الإنسـاني، ونظامًا جديدًا للمجتمع، وشكلاً جديدًا للدولة، بوصفه إعلانًا عامًّـا لتحريـر الإنسان في الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميتـه، ومطـاردة الطواغيـت التي تغتصب ألوهيته[1].

إلى أن قال: وأخيرًا فلقد كانت بدر فرقانًا بين الحق والباطل بمدلول آخـر، ذلك المدلول الذي يوحي به قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّـائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَـيْرَ ذَاتِ الشَّـوْكَةِ تَكُـونُ لَكُـمْ وَيُرِيـدُ اللهُ أَن يُحِـقَّ الحَـقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾. لقد كان الذين خرجوا للمعركة مـن المسـلمين إنـما خرجـوا يريـدون عـير أبي

(١) انظر: في ظلال القرآن (١٥٢١/٣، ١٥٢٢).

سفيان واغتنام القافلة، فأراد الله لهم غير ما أرادوا، أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبي سفيان (غير ذات الشوكة)، وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشوكة)، وأن تكون معركة وقتالاً وقتلاً وأسرًا، ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة، وقد قال الله سبحانه: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة، إن الحق لا يحق وإن الباطل لا يبطل -في المجتمع الإنساني- بمجرد البيان النظري للحق والباطل، ولا بمجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حقٌّ وهذا باطلٌ، إن الحق لا يحق، وإن الباطل لا يبطل، ولا يذهب من دنيا الناس، إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ويهزم جند الباطل ويندحروا، فهذا الدين منهج حركي واقعي، لا مجرد نظرية للمعرفة والجدل، أي لمجرد الاعتقاد السلبي.

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة، وكان هذا النصر ـ العملي فرقانًا واقعيًا بين الحق والباطل بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قول الله تعالى في معرض بيان إرادته سبحانه من وراء المعركة، ومن وراء إخراج الرسول ﷺ من بيته بالحق، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة. ولقد كان هذا كله فرقانًا بين منهج هذا الدين ذاته، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم.. وإنه لفرقان ندرك به اليوم ضرورته، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين، حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون

بدعوة الناس إلى هذا الدين، وهكذا كان يوم بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة، والله على كل شيء قدير، وفي هذا اليوم مثل من قدرته على كل شيء، مثل لا يجادل فيه مجادل، ولا يماري فيه ممارٍ.. مثل من الواقع المشهود، الذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله. وأن الله على كل شيء قدير[1].

١٥- الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمة صورًا مشرقة في الولاء والبراء، وجعلت خطًا فاصلاً بين الحق والباطل، فكانت الفرقان النفسي ـ والمادي والمفاصلة التامة بين الإسلام والكفر، وفيها تجسدت هذه المعاني، فعاشها الصحابة واقعًا ماديًّا وحقيقة نفسية، وفيها تهاوت القيم الجاهلية، فالتقى الابن بأبيه والأخ بأخيه:

١- كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في صف المسلمين، وكان أبوه عتبة وأخوه الوليد وعمه شيبة في صف المشركين، وقد قتلوا جميعًا في المبارزة الأولى.

٢- كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه في صف المسلمين.. وكان ابنه عبد الرحمن في صف المشركين.

٣- كان مصعب بن عمير رضي الله عنه حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صف المشركين، ثم وقع أسيرًا في يد أحد الأنصار، فقال

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/١٥٢٣، ١٥٢٤).

مصعب للأنصاري: شد يدك به فإن أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك، تلك كانت حقائق وليس مجرد كلمات: إنه أخي دونك(١)، إنها القيم المطروحة لتقوم الإنسانية على أساسها، فإذا العقيدة هي آصرة النسب والقرابة وهي الرباط الاجتماعي(٢).

٤- كان شعار المسلمين في بدر (أَحَدٌ، أَحَدٌ) وهذا يعني أن القتال في سبيل عقيدة تتمثل بالعبودية للإله الواحد، فلا العصبية ولا القبلية، ولا الأحقاد والضغائن، ولا الثأر هو الباعث والمحرك، ولكنه الإيمان بالله وحده.

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر واحدة في مضمونها(٣)، وللإيمان فقه عظيم، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، هاجر إليها كل من استطاع ذلك من المسلمين في مكة، وحبس من كان مضطهدًا ولم يستطع ذلك، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صف المشركين منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو، والحارث بن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه.

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/٣٠٧).

(٢) انظر: معين السيرة، ص٢١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢١٧.

الله ﷺ فشهد المعركة، وكان أحد الصحابة الذين نالوا هذا الشرف العظيم[١].

وأما الآخرون فلم يفعلوا ذلك، وشهدوا المعركة في صف المشركين وقد أصيبوا جميعًا[٢] فقتلوا تحت راية الكفر، فنزل في حقهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

قال ابن عباس ﷺ: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا على الخروج، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إنهم لم يُعذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صف المؤمنين متوافرة، ولم يكن الفاصل كبيرًا بين الصفين، ولن يعدموا لو أرادوا الفرصة في الانتقال إلى رسول الله ﷺ كما فعل عبد الله بن سهيل[٣].

إن للإيمان مستلزمات تعبر عن صدقه وقوته، ومن مستلزماته استعلاؤه على كل القيم مما سواه، فإذا كان كذلك كان لأصحابه الأثر الفعال، والقوة الفاعلة في بناء الحق والخير الذي أراده الله، إن الإيمان يصبغ السلوك، فإذا به يشع من خلال الحركة والجهد، ومن خلال الكلمة والابتسامة، ومن خلال السمت والانفعال؛ ولذا لم يعذر الذين كانوا في صف المشركين؛ لأن الإيمان

---

(١) انظر: معين السيرة، ص٢١٧.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٥٣).

(٣) انظر: معين السيرة، ص٢١٧.

الذي ادعوه لم توجد له مستلزمات فلم يؤت ثماره[١].

ولهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصحابة الكرام في بدر مُثلاً عُليا لصدق الإيمان، التي تدل على أنهم آثروا رضاء الله ورسوله ﷺ على حب الوالد والولد والأهل والعشيرة، فلا يعجب المسلم من ثناء الله تعالى على هذه المواقف الصادقة في قوله تعالى: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

١٦- المعجزات التي ظهرت في بدر وما حولها:

من المعجزات التي ظهرت على يدي رسول الله ﷺ في بدر إخباره عن بعض المغيَّبات، ومن المعلوم أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير آية من كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) انظر: معين السيرة، ص٢١٨.

ومن المعلوم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون الغيب ولا اطلاع لهم على شيء منه، فقد قال تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب، وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم، ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]. فنخلص من ذلك أن ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الأخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى، وهو إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺباطلاع الله له على المغيبات[1]. وكان لأحداث غزوة بدر نصيب من تلك المعجزات الغيبية منها:

١- مقتل أمية بن خلف:

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انطلق سعد بن معاذ معتمرًا، قال: فنزل

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (٤٥٣/١).

على أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نـزل على سعد، فقال أمية لسعد: ألا تنظر حتـى إذا انتصـف النهـار وغفـل النـاس انطلقت فطفت؟ فبينما سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الـذي يطـوف بالكعبة، فقال سعد: أنا سعد، فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمنا وقـد آويـتم محمدًا وأصحابه؟ فقال: نعـم، فتلاحيـا[1] بيـنهما، فقـال أميـة لسـعد: لا ترفـع صوتك على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سـعد: والله لـئن منعتنـي أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال: فجعـل أميـة يقـول لسـعد: لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه فغضب سعد فقال: دعنـا عنـك. فـإني سـمعت محمدًا ﷺ يزعم أنه قاتلك، قال: إياي؟ قال: نعم. قال: والله مـا يكـذب محمـد إذا حدث، فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ما قال لي أخـي اليثـربي؟ قالـت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمدًا يزعم أنه قاتلي، قالـت: فـوالله مـا يكـذب محمد، قال: فلما خرجوا إلى بدر جاء الصريخ، قالت له امرأته: أمـا ذكـرت مـا قال لك أخوك اليثربي؟ قال: فأراد ألا يخـرج، فقـال لـه أبـو جهـل: إنـك مـن أشراف الوادي، فسر يومًا أو يومين، فسار معهم يومين فقتله الله[2].

٢- مصارع الطغاة:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة فتراءينـا الهـلال، وكنت رجلا حديد البصر[3] فرأيتـه ولـيس أحـد يـزعم أنـه رآه غـيري، قـال

---

(١) تلاحيا: تلاوما وتنازعا، انظر: النهاية (٤/٢٤٣).

(٢) البخاري ز انظر: الفتح (٦/٣٦٣٢).

(٣) حديد البصر: أي نافذ.

فجعلت أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل يقول لا يراه، قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلقٍ على فراشي، ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غدًا، إن شاء الله» قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ[(١)].

٣- إخبار العباس بن عبد المطلب بالمال الذي دفنه، وإعلام عمير بن وهب بالحديث الذي حدث بينه وبين صفوان:

ومن ذلك لما طلب رسول الله ﷺ من عمه دفع الفداء، وأجابه العباس: ما ذاك عندي يا رسول الله، فقال له: «أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلتَ لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم»، قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا الأمر ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل. وما حدَّث به عمير بن وهب لما جاء متظاهرًا بفداء ابنه، وهو يريد قتل النبي ﷺ باتفاق مع صفوان بن أمية، فقد أنبأه نبأ المؤامرة، فكانت سببًا في إسلامه وصدق إيمانه[(٢)].

١٧- حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدر -في الأحداث التي سبقتها- أراد مشرك أن يلحق بجيش المسلمين، وطلب من النبي ﷺ الموافقة على قبوله معهم، والاشتراك فيما هم

---

(١) مسلم رقم (٢٨٧٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/١٧٨).

ذاهبون إليه فقال ﷺ: «ارجع فلن أستعين بمشرك»[١] فالحديث يبين أن القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامة، ولهذه القاعدة استثناء، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروط معينة وهي: تحقق المصلحة، أو رجحانها بهذه الاستعانة، وألا يكون ذلك على حساب الدعوة ومعانيها، وأن يتحقق الوثوق الكافي بمن يستعان به، وأن يكون تابعًا للقيادة الإسلامية، لا متبوعًا، ومقودًا فيها لا قائدًا لها، وألا تكون هذه الاستعانة. مثار شبهة لأفراد المسلمين، وأن تكون هناك حاجة حقيقية لهذه الاستعانة وبمن يستعان به، فإذا تحققت هذه الشروط جازت الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق لم تجز الاستعانة. وفي ضوء هذا الأصل رفض رسول الله ﷺ اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عير قريش إذ لا حاجة به أصلاً، وفي ضوء الاستثناء وتحقق شروطه استعان النبي ﷺ بالمشرك عبد الله بن أريقط الذي استأجره النبي ﷺ وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة؛ ليدلهما على الطريق إليها.. وهكذا على هذا الاستثناء وتحقق شروطه قبل ﷺ حماية عمه أبي طالب له، كما قبل جوار أو إجارة المطعم بن عدي له عند رجوعه عليه الصلاة والسلام من الطائف، وكذلك قبول الصحابة الكرام جوار من أجارهم من المشركين ليدفع هؤلاء الأذى عمن أجاروهم[٢]. وضبط هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقه دقيق وإيمان عميق.

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/٣٥٥).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٤٤، ١٤٥).

١٨- **النصر مع الصبر**:

من عِبَر يوم بدر أخذنا أن الصبر مفتاح الفرج فما ضاقت الأمور على من صبر، الصبر مفتاح الخير.

أخذنا من غزوة بدر أن مع العسر يسرًا، وأن عاقبة الصبر خير ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ [النحل:١٢٧]. صبر حبيب الله ورسول الله فأقر الله عينه ونصر الله حزبه ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ﴾ [آل عمران:١٢٥]. فإن وجدت عبدًا من عباد الله قد صُبت عليه المحن والبلايا من الله ونصب وجهه صابرًا لله، فبشره بحسن العاقبة والمآل من الله ، علمنا أن الصبر عواقبه الخير، ولقد صدق رسول الهدى إذ يقول ﷺ: «ما أُعطي عبد عطاء أفضل من الصبر». بالصبر يتوسع ضيق الدنيا، وبالصبر تتبدد همومها وغمومها وأحزانها، يطيب العيش وترتاح النفوس وتطمئن القلوب، وصدق عمر وأرضاه إذ قال: **(وجدنا ألذ عيشنا بالصبر)**

١٩- **سر الانتصار**:

والحق أن "الإسلام" هو السر وراء انتصار المسلمين الفريد، وهو ما تكشف عنه المقارنة بين حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده، فقد حدث لهم "تحول عظيم" كان من بين مظاهره أن المسلم أصبح له وزن كبير في موازين القوى، وها هو "المثنى بن حارثة الشيباني" يصف الفرق بين المقاتل العربي في الجاهلية وهذا المقاتل ذاته بعد الإسلام فيقول: **"قد قاتلت العرب والعجم الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد علي من**

ألف من العرب، ولمائة اليوم من العرب أشد علي من ألف من العجم".

وقد كان النبي - ﷺ - في قتاله دفاعًا عن الدين يحارب عربًا بعرب، بل قرشيين بقرشيين، فلا يمكن أن تكون هناك مزايا لدى طرف دون طرف في القوة والشجاعة، فالسر وراء انتصار المسلمين هو أن الإسلام وجه نزعات العرب في نفوسهم إلى غاية عظمى رفعت أقدارهم، وهي إعلاء كلمة الله، وإعزاز راية دينه، وما يدخل في مفهوم كلمة سبيل الله من قيم فاضلة وقضايا عادلة وأهداف نبيلة، وكان الإسلام حريصًا على أن يزود المسلمين بتلك الدوافع التي تملأ نفوسهم حمية واستبسالاً، ولهذا كان "حساب المقاتل المجاهد " في الحرب وفي ميزان القوى مقدرًا بما في قلبه من عقيدة وإيمان، وربما في نفسه من مبادئ يُحارب عنها، وأسباب تدعوه إلى خوض هذه الحرب.

وهذا ما نجده في قول الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنْكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وذلك لأن الذين كفروا قد خلت نفوسهم من المبادئ الكريمة والدوافع الصادقة، ولذلك "حُرموا الفقه" الذي كان من شأنه أن يبصرهم بالمبادئ التي يقاتلون عليها، والمثل التي يدافعون عنها، ومن حرم هذا الفقه في مجال الحرب، فقد تعرى من كل سلاح يدافع به، وكانت عاقبته الهزيمة والبوار.

وقد برز ذلك في أول مواجهة بين المسلمين والكفار في غزوة بدر الكبرى، إذ كان هدف المسلمين "إعلاء كلمة الله"، بينما كان هدف المشركين ما عبَّر عنه

قول زعيمهم أبي جهل: "والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا، فنقيم عليه ثلاثًا ننحر الجزور ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها.

فإذا ما تأملنا موقف المسلمين، فإننا نجد الإسلام ينزه المقاتل عن دوافع المفاخرة أو حب الظهور أو الرغبة في الثناء، فهو لا يستحق الجنة ولا يجد ريحها إلا إذا كان جهاده خالصًا من أجل إعلاء كلمة الله، فقد سُئل الرسول- ﷺ - عن الرجل يُقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

قال الحسن بن الربيع: خرج فارس ملثم فقتل فارسًا من العدو كان قد نال من المسلمين، فكبر له المسلمون، وعاد ودخل في غمار الناس ولم يعرفه أحد فتتبعته حتى سألته بالله أن يرفع لثامه، فعرفته وقلت أخفيت نفسك من هذا الفتح العظيم الذي يسره الله على يديك! فقال **"الذي فعلت له، لا يخفى عليه عملي"**.

٢٠- صفات المنصورين:

المؤمنون الذين ضمن الله لهم النصر وأخبر أن لهم الغلبة ولا سلطان للكافرين عليهم، ذكرهم الله – تعالى – في أوائل سورة الأنفال، حيث قال –

(١)متفق عليه.

تعالى - مبينًا صفة المؤمنين المنصورين في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ* أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ -٤].

فهؤلاء هم المنصورون والسعداء في الدنيا والآخرة "ما داموا" متصفين بهذه الصفات الخمس التي وصفهم الله بها، أما إذا حادوا عن دينهم وعدلوا عن كتاب ربهم، عند ذلك يتخلى الله عنهم وعن نصرهم: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ويقول الرسول - ﷺ-: « ويقول : «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي »[(١)]، وقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- لسعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه-: **"وآمرك ومن معك من الأجناد أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه، وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم لله".**

٢١- نصر الله سنة ماضية:

نصر الله للمؤمنين سنة ماضية يشهد بها سجل التاريخ الإسلامي في عهد النبوة وفي فتوح الإسلام ومعارك المسلمين ضد الصليبيين والمغول وغيرهما.

ولقد سأل الإمبراطور البيزنطي هرقل قادته: أخبروني ويلكم من هؤلاء

(١)صحيح، أخرجه الترمذي ح (٣٧٨٨).

القوم الذين تلقونهم؟ أليسوا بشرًا مثلكم؟..فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: نحن أكثر منهم أضعافًا، وما لقيناهم في موطن إلا ونحن أكثر منهم.قال: ويلكم فما بالكم تنهزمون إذا لقيتموهم؟.. فقام شيخ من الحاضرين يجيب عن سؤاله فكان مما قال: من أجل أن القوم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يظلمون أحدًا ويتناصفون فيما بينهم، إذا حملنا عليهم صبروا، وإذا حملوا علينا لم يكذبوا. !!

وتلك وقفةٌ ينبغي أن تقفَها الأمةُ كلها، وهي في حال انكسارها وتراجعها؛ لتستمد من تاريخها نورًا يبدد ظلام حاضرها، ورُشدًا لمن ضلَّ منها عن طريقه، وهدًى للسائرين في ضلالة، والخابطين خبطَ عشواء؛ حتى لا نبدو كأننا أمةٌ لا تاريخَ لها تفيدُ منه، ولا جذورَ لها تستعصم بها، على أن وقائع يوم بدر لم تكن مجرد تاريخ ينبغي تدبُّره، بل كانت قرآنًا يُتلى إلى قيام الساعة، ومواقف نبوية مركوزة في ضمير أمتنا ووعيها.

إن شعوبنا المسحوقة قهرًا وعسفًا، وطغيانًا وعجزًا، في حاجة إلى أن تتدبر قولَ ربنا عن الجماعة المؤمنة يوم بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقوله عن أصحاب الدعوات على امتداد تاريخ الصراع بين الحق والباطل ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وتدركَ أن النصر من عند الله وحدَه، يمنحه من نصَرَ دينه وأعزَّ دعوتَه، وأعدَّ عدتَه، وأجادَ التوكلَ عليه، بغير نظر إلى قلةٍ أو كثرةٍ.. ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ

الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠]. وقوله تعالى -: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] وقوله تعالى -: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

أيها المجاهدون المستضعفون في أقطار الأرض، يا أهلَنا في فلسطين والعراق والشام وأفغانستان وكشمير والشيشان وغيرها، يا مَن استُبيحت أوطانُهم، واحتُلَّت بلادُهم، وانتُهكت حرماتُهم، ودِيست مقدساتُهم، لا يكادُ يشعر بهذه الآيات القرآنية الكريمة أحدٌ مثلما تشعرون أنتم بها، وقد أحسستم عزة الإسلام رغم قهر أعدائكم، وتخاذل المنافقين عنكم، وخيانات المارقين لكم، ورأيتم من تباشير النصر وآيات الرحمن وكريم لطفه وعزيز تأييده ما عَمِيت عن إدراكه عيونُ القاعدين والمثبِّطين والخائرين والعاجزين.. ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إن جهادكم ليس عدوانًا على أحد، ولا إرهابًا كما يرجُف المرجِفون، بل أنتم من اعتدى عليه المجرمون، وأرادوا لهم الخَسْف والهوان، وفُرض عليكم القتال فرضًا، فلا بديلَ لكم عنه، وهو كريهٌ إلى أنفسكم، وكذلك كان شأنُ أسلافكم يوم بدر.. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا

تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهم إنما خرجوا لاسترداد بعض أموالهم التي سلبَها منهم المشركون، ففاتتْهم العيرُ، ووجدوا أنفسَهم في مواجهة النفير وجحافل الشرك في غروره وعُجْبه، وقد ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

فكونوا على ثقة أن اختيارَ الله لكم - حين فرَض عليكم الجهاد وردَّ عاديةَ الظالمين - خيرٌ من اختياركم لأنفسكم، وقد كنتم في بلادكم آمنين، وكذلك كان اختيارُ الله لأهل بدر ليخطُّوا أبهى نصر في تاريخ الإسلام.. ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ، يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٥-٧].

٢٢- النصر ثمرة الإخلاص:

لقد نزل النصر على أهل بدر من القلة المؤمنة بعد أن اطلع الله - تعالى - عليهم فرأى في قلوبهم الإخلاص، وفي نفوسهم العزم، وقد حرروا ولاءهم لله - تعالى - وحده، ولمَّا التقى الجمعان كان القول الفصل لآصرة الإيمان وأُخوَّة الإسلام، التي استعلت على أواصر القربى وروابط الدم، أما قبل اللقاء فكان الاستعدادُ الجازمُ والرؤيةُ الصافيةُ والطاعةُ البصيرةُ للقيادةِ المؤمنةِ المجاهدة، وقد قال سعد بن معاذ للنبي - ﷺ - وهو يشاورهم: **"لقد آمنا بك**

وصدقناك.. فامض يا رسول الله لما أردتَّ، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلَّف منا واحد، وما نكره أن تلقَى بنا عدوَّنا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعلَّ الله يريك منا ما تقرُّ به عينك.. ".

أما القيادة المؤمنة- المتمثلة في رسول الله -ﷺ- فكانت في مقدمة صفوف المجاهدين، حتى قال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-: **"لقد رأيتُنا يومَ بدر ونحن نلوذ برسول الله- ﷺ - وهو أقربنا من العدو".**

٢٣- توحد القيادة والشعب:

إن أمتنا اليوم في أمسِّ الحاجة إلى أن تستلهم روح بدر، تلك التي توحَّدت فيها رؤية القيادة والأمة، واتَّسقت مساراتهم فكانت مسارًا واحدًا، وعملاً متوحدًا، وإن درس الشورى واحترام إرادة الأمة لِمن أبرز دروس بدر التي ننظر إليها بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا في إجلال، وننظر إلى واقعنا الراهن بعد هذه القرون في حسرة وأسف.. !!

لقد شاور الرسول- ﷺ - أصحابه في أمر محاربة العدو الرابض على مقربةٍ منهم، وقَبِلَ مشورة أحدهم وهو الحباب بن المنذر أن يغيِّر موضع الجيش إلى مكان آخر يتحكم في مياه منطقة القتال، فنزل النبي- ﷺ- على رأيه، وهو جَدٌّ سعيد.

ولم تكن الشورى في حياة النبي- ﷺ- وصحابته مقتصرةً على أمور الحكم وقضايا السياسة، بل كانت خُلقًا عامًا، تربَّى عليه ذلك الجيل الفريد،

واستمسك به، وإن النصر في تاريخنا لشديدُ الارتباط بالحرية السياسية، كما أن الهزيمة والنكوص قرين الاستبداد والقهر، وهل ضاعت القدس وسيناء والجولان وغيرها عام ١٩٦٧م إلا في أجواء القهر السياسي، حين استأسد الحاكمون على شعوبهم، وكانوا بغاثًا أمام العدو، حين جدَّ الأمر وحان القتال.. (أسد عليَّ.. وفي الحروب نعامة)، وهل احتل الأمريكان- ومن حالفهم- العراقَ في نكبة دامية إلا في ظل استبداد حاكمها وطغيانه؟!

وبقي على الشعوب أن تدفع ثمن هذا وذاك من كرامتها ودماء أبنائها، وهو ثمن فادح ثقيل ما كانت ستدفع معشارَه لو أخذت على أيدي ظالميها، واضطَّرتهم إلى لزوم الجادة، وأعادتهم إلى الصواب، وأفاقتهم من نشوة الحكم وغرور السلطان، وأوقفتهم على حقيقة أمرهم أنهم أُجَراءُ عند شعوبهم - محض أجراء- إن أحسنوا بقَوا، وإن أساءوا عُزِلوا، ورَحِم الله أبا بكر الصديق رضي الله عنه حين قال مخاطبًا شعبَه: **"إني وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيرِكم، فإن أحسنتُ فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني"**.

٢٤- لا عُذرَ في القعود:

إن المجاهدين يوم بدر لم يُبْقُوا حُجةً لقاعد، ولا عذرًا لمتخاذل يحتجُّ بقلة ذات اليد، وعظم إمكانات العدو وقدراته، فواجَهوا جيشًا يفوقُهم عددًا بثلاث مرات، ولم يكن في جيش المسلمين سوى سبعين بعيرًا يعتقبونها، فيركب البعيرَ الواحدَ الثلاثةُ والأربعةُ منهم، واحدًا تلو الآخر، وكانوا كما وصفهم النبي- صلى الله عليه وسلم - في دعائه ربَّه: «اللهم إنهم حفاةٌ فاحملهم، عالةٌ فأغنهم،

جياعٌ فأطعمهم.. »، وكان في مقدورهم القعود لكل ذلك.

ولأنهم يخوضون معركةً لم يتحسَّبوا لها، إذ خرجوا لعِير قريش، وبقي منهم عدد صالح بالمدينة لو يعلم قتالاً لخف إلى مشاركتهم.. لكنهم حين فُرِض عليهم القتال، ورأوا أنه لا بد منه وقد سارت إليهم قريش.. أدركوا أنه لا ملجأَ من الله إلا إليه، فاستغاثوا ربَّهم، وأحسنوا اللجوءَ إليه، وفرُّوا من حولهم وقوتهم إلى حوله وقوته.. ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن علي بن أبي طالب قوله: **"لقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله – ﷺ – تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح، وذلك ليلةَ بدر.. وهو يُكثِر من قول: يا حي يا قيوم.. ويكررها وهو ساجد.."**.

٢٥- الدعاء ومقاطعة العدو:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾

لما نظم ﷺ صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم وحرضهم على القتال، رجع إلى العريش الذي بُني له ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه، وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه، واتجه رسول الله ﷺ إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذي وعده ويقول في دعائه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبدًا»، وما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر ورده على منكبيه وهو

يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك[١]، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك الله، فخرج ﷺ وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[٢].

وهذا درس رباني مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد في التجرد من النفس وحظها، والخلوص واللجوء لله وحده، والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه؛ لكي ينزل نصره. ويبقى مشهد نبيه، وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو مادٌّ يديه يستغيث بالله، يبقى هذا المشهد محفورًا بقلبه ووجدانه، يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات، وفي مثل هذه المواطن، حيث تناط به المسئولية وتلقى عليه أعباء القيادة[٣].

يا قومَنا.. نحن أحوج ما نكون اليوم إلى أن نتأسَى برسولنا وصحبه في تمامِ التوكل على الله، وحسنِ الدعاء بين يديه، ودوامِ الاستغاثة به؛ حتى يتنزَّل علينا نصرُه، ويرتفعَ عنا بلاؤه، ونحن في حاجة أيضًا إلى إدراك دور كل منا في دعم الجهاد ونصرة إخوانه في ساحات الشرف والابتلاء: بالدعاء لهم.. دعاءَ الصالحين الموقنين بالإجابة، وبمقاطعة منتجات العدو، وإضعاف اقتصاده، وشلِّ يده عن مقدراتنا وثرواتنا؛ لعل الله- عز وجل - يرى فينا خيرًا وصدقًا

---

(١) انظر: مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ببدر (٣/٣٨٤).
(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب قصة بدر (٥/٦) رقم (٣٩٥٣).
(٣) انظر: التربية القيادية (٣/٣٦).

فيُنـزِلَ علينا نصرَه وتمكينَه.

اللهم نصرك الذي وعدتنا.. إنك سـميع قريـب.. ﴿أُذِنَ لِلَّـذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَّ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَـيْرِ حَـقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُّ وَلَوْلا دَفْعُ اللهَّ النَّـاسَ بَعْضَـهُمْ بِـبَعْضٍ لَهُـدِّمَتْ صَـوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهَّ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُّ مَـنْ يَنْصُرُـهُ إِنَّ اللهَّ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

٢٦- الرضا بقضاء اللّه تعالى وقدره:

قال تعالى:﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتـاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[القمر: ٤٩] ، عن عبد الله بن عمـرو بـن العـاص أن رسـول الله ﷺ قال: «إن الله كتب مقـادير الخلائـق قبـل أن يخلـق السـماوات والأرض بخمسين ألف سنة»(١) .

ويتضح الرضا بالقضاء والقدر جليًا في سبب الغزوة، عن كعب بن مالـك قال: (لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاهـا إلا في غـزوة تبـوك، غـير أني تخلفت عن غزوة بدر، ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنـما خـرج رسـول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم على غير ميعاد سابق)(٢).

قال تعالى: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركـب أسـفل

---

(١)مسلم ٢٦٥٣

(٢) البخاري حديث ٣٩٥١

منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ [الأنفال: ٤٢] .

فرضي الرسول ﷺ وجميع الصحابة الذين خرجوا معه للقاء عير قريش بما قدره الله من لقائهم بجيش قريش .

٢٧- الاستشارة من أسباب النصر:

إن استشارة أهل التقوى من أهل العلم بالدين وأهل الخبرة في أمور الدنيا من أسباب النصر وصلاح أحوال المجتمع المسلم؛ ويتضح ذلك جلياً عندما استشار النبي ﷺ أصحابه من المهاجرين والأنصار في لقاء جيش المشركين، ولقد استجاب الرسول ﷺ لمشورة الحباب بن المنذر عندما تحرك الرسول ﷺ بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل أدنى ماء من مياه بدر، فقام الحباب بن المنذر وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الحرب والرأي والمكيدة ؟ قال: بل هو الحرب والرأي والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى (أقرب) ماء من القوم ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ : «لقد أشرت علي بالرأي»، فنهض رسول الله ﷺ وسار معه الصحابة حتى نزل بالمكان الذي

أشار به الحباب بن المنذر[1].

إن هذه الحرية التي ربَّى عليها رسول الله ﷺ أصحابه مكنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحًا باهرًا، وإن كان حديث السن؛ لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد، أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصالحها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد؛ لأنه ليس هناك ما يحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه[2].

ونلحظ عظمة التربية النبوية التي سرت في شخص الحباب بن المنذر، فجعلته يتأدب أمام رسول الله ﷺ فتقدم دون أن يُطلب رأيه، ليعرض الخطة التي لديه، لكن هذا تم بعد السؤال العظيم الذي قدمه بين يدي الرسول ﷺ. يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ إن هذا السؤال ليشي بعظمة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدي قائده، فإن كان الوحي هو الذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم فتقطع عنقه أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأي البشري فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٢٤- الطبقات لابن سعد ج٢ ص١٠.
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١١٠).

إن هذه النفسية الرفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأي المعارض لرأي سيد ولد آدم، عليه الصلاة والسلام.

وتبدو عظمة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتبني الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنودها أو قائد من قوادها[(١)].

٢٨- علو منزلة النبي ﷺ عند الصحابة :

لقد كان للنبي ﷺ منزلة رفيعة في قلوب أصحابه ﷺ، فقد كانوا على أتم استعداد للتضحية بأنفسهم وأولادهم وأموالهم من أجل الدفاع عن النبي ﷺ ، ويتضح ذلك جليا في قول سعد بن معاذ: «**يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك ثم نلقي عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك**». فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله ﷺ عريشا فكان فيه[(٢)].

٢٩- وجوب الحذر من الأعداء :

يجب أن نحذر من أعدائنا حتى لا نؤاخذ على غرة يجب علينا جمع المعلومات التي تساعدنا على التعرف على أحوال أعدائنا

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/٢١).

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٢٥ .

وقوتهم وتحركاتهم حتى لا يباغتونا، فيحدث ما لا تحمد عقباه، ويتضح ذلك جليا عندما بعث الرسول ﷺ علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر فأصابوا رجلين من قريش لسقي الماء، فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ واستطاع أن يحصل منهما على معلومات مهمة عن عدد قريش وقوتهم(١).

٣٠- النصر من عند الله العزيز الحكيم:

يجب علينا الإيمان بأن النصر إنما يكون من عند الله وحده مع وجوب الأخذ بالأسباب ولو كانت قليلة، ويتضح ذلك جليا عندما نعقد مقارنة بين قوة جيش المسلمين وقوة المشركين في غزوة بدر، حيث كان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر، وعدد المشركين تسعمائة وخمسين رجلا، وكان مع المسلمين سبعون بعيرا يعتقبونها، كل ثلاثة على بعير، فكان رسول الله ﷺ ومعه اثنان من الصحابة يعتقبون بعيرا واحدا، وكان مع المسلمين فرسان فقط أحدهما للزبير بن العوام والثاني للمقداد بن الأسود، وكان مع المسلمين ستون درعا، بينما كان للمشركين أكثر من سبعمائة بعير، ومعهم مائتا فرس، وستمائة درع[٢].

فإذا نظرنا إلى الأسباب المادية وجدنا تفوق المشركين، ولكن يجب علينا أن نؤمن أننا لا نعتمد في حربنا مع أعداء الإسلام على كثرة العدد والأسلحة،

---

(١) الطبقات لابن سعد ج٢ ص١٠ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص٢٥٩، ٢٦٠.

ولكننا نعتمد أولا وأخيرا على قوة إيماننا بالله تعالى وحده، وأنه هو الحافظ لهذا الدين وإن كانت قوتنا المادية قليلة، قال الله تعالى: ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ [آل عمران: ١٢٦] ، وقال تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ [البقرة: ٢٤٩] ، وتتجلى نصرة الله لأهل الإيمان في غزوة بدر بنزول المطر عليهم وإلقاء النعاس عليهم وتثبيتهم عند القتال وإلقاء الرعب في قلوب المشركين ونزول الملائكة وقتالهم في صف المسلمين.

٣١- طاعة الله والدعاء من أسباب النصر:

المحافظة على الطاعات والإخلاص في الدعاء من أعظم أسباب النصر على الأعداء؛ كان ذلك عندما دخل رسول الله ﷺ عريشه ومعه أبو بكر الصديق، فأخذ الرسول ﷺيناشد ربه بالدعاء قائلاً: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». فما زال يهتف لربه مادًا يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه وألقاه على منكبيه ثم التزمه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ [الأنفال: ٩] ، فأمده الله بالملائكة.

فمتى نصرنا الله بطاعته واجتناب نواهيه وتحكيم شرعة جاء النصر المبين والتمكين ،قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمد:٧]

وقال جل شأنه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[النور:٥٥]

٣٢- ولا تنازعوا فتفشلوا:

ويتضح ذلك عندما اختلف الصحابة في غنائم غزوة بدر فقال الذين جمعوا الغنائم هي لنا، وقال الذين كانوا يقاتلون المشركين: هي لنا، وقال الذين كانوا يحرسون النبي ﷺ: هي لنا، فلما اشتد الخلاف في هذا الأمر نزل قول الله تعالى :﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ [الأنفال: ١]

روى أحمد عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، قال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء -يقول على السواء [1].

فيجب علينا عند الاختلاف والتنازع في أمر ما أن نرد التنازع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لنقف على الحكم الشرعي في هذا الأمر، قال تعالى:

---

(١) حديث حسن لغيره: مسند أحمد ج٣٧ ص٤١٠.

﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويل﴾ [النساء: ٥٩] .

٣٣- علو منزلة أهل بدر على غيرهم من الصحابة :

إن الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر هم الذين اصطفاهم الله على غيرهم من المؤمنين وذلك؛ لأن غزوة بدر كانت هي المفتاح لوصول الإسلام إلى البشرية جمعاء، وأصحاب بدر هم النجوم المضيئة في التاريخ الإسلامي حتى أصبح يقال للواحد منهم «البدري»، وكفى بهذا الوصف شرفاً وتعظيماً له في حياة الناس، وكفى به أجراً وإحساناً عند الله تعالى، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده المؤمنين.

وظهر ذلك في قصة حاطب بن ابي بلتعة رضي الله عنه عندما أرسل كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم بخروج النبي ﷺ إليهم، وأخبر الوحي الرسول ﷺ بذلك، وهَمّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقتل حاطباً- إلا أن رسول الله ﷺ قال: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم» [(١)].

وروى البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه -وكان أبوه من أهل بدر- قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرا من

---

(١) البخاري ح٣٩٨٠، ومسلم ح٣٤٩٤.

الملائكة»[١].

٣٤- الإسلام والأسرى:

لما رجع ﷺ إلى المدينة فرَّق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيرًا»[٢] وبهذه التوصية النبوية الكريمة ظهر تحقيق قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يحدثنا عما رأى قال: كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيرًا»، وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البُرَّ لوصية رسول الله ﷺ[٣].

وهذا أبو العاص بن الربيع رضي الله عنه يحدثنا قال: **"كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيرًا، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إليَّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد، وكانوا يحملوننا ويمشون"**[٤].

كان هذا الخلُق الرحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين، وذكر به النبي ﷺ أصحابه فاتخذوه خلقًا، وكان لهم طبيعة، قد أثر في

---

(١) البخاري ح٣٩٩٢ .

(٣) مجمع الزوائد (٦/٨٦) وقال: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن.
(٤) انظر: المغازي للواقدي (١/١١٩).

إسراع مجموعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبـو عزيـز عقيب بدر، بُعيـد وصـول الأسرى إلى المدينـة، وتنفيـذ وصـية رسـول الله ﷺ، وأسلم معه السائب بن عبيد[١] بعد أن فدى نفسه، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم، وطهرت نفوسهم، وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهليهم يتحـدثون عـن محمد ﷺ ومكارم أخلاقه، وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها مـن الـبر والتقوى والإصلاح والخير[٢].

إن هذه المعاملة الكريمة لـلأسرى شـاهد عـلى سـمو الإسـلام في المجـال الأخلاقي، حيث نال أعداء الإسلام في معاملة الصحابة أعلى درجات مكـارم الأخلاق، التي تتمثل في خلق الإيثار[٣].

ألا تسمع الدنيا بهذه الصورة الكريمة لمعاملة الأسرى في الإسلام، بعـد مـا سمعت ما كان وما يكون في سجن أبي غريب، وما كان في سـجن جوانتانـامو بل وفي سجون معظم دول العالم، وليس لأسرى، وإنما لأحرار أبريـاء لم تثبـت عليهم أي تهمة، ولم يحرموهم من حقوق الإنسان الذي كرمه الله بل حق الحياة المكفول للحيوان حرم السجين منه، ومنهم مـن قضى نحبـه تحـت التعـذيب، ومنهم من ينتظر، وسمعت بهم الدنيا، ومـا تحركـت أي قـوة لفـك قيـدهم أو إطلاق سراحهم.

(١، ٦) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٤٧٤/٣).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (١٧٥/٤، ١٧٦).

٣٥- الإسلام يهتم بالعلم:

إن الإسلام دائما يدعو إلى العلم، ويظهر هـذا الاهـتمام جليـا في غـزوة بدر عندما شرع المسلمون في قبول فداء الأسارى مقابـل أربعـة أو ثلاثـة آلاف درهم، ومن لم يكن عنده مال من الأسرى وكان يحسن القـراءة والكتابـة دفـع إليه الرسول ﷺ عشرة من غلمان المدينـة يعلمهـم الكتابـة، فـإذا أجادوهـا تـم إطلاق سبي هذا الأسير، وكان ممن تعلم الكتابة بهذه الطريقة: زيـد بـن ثابـت رضي الله عنه(١).

هذه الطريقة النبوية المباركة في فداء الأسارى كانت طريقـة غـير مسـبوقة قبـل ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان ناس من الأسارى يـوم بـدر لـيس لهـم فـداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصـار الكتابـة؛ وبـذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القـراءة والكتابـة، وكـل مـن يعلـم عشرـة مـن الغلمان يفدي نفسه"(٢). وقبول النبي ﷺ تعليم القـراءة والكتابـة بـدل الفـداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرتـه إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نـزل من كتابه الكريم: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَـانَ مِـنْ عَلَـقٍ * اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الأَكْـرَمُ *الَّـذِي عَلَّـمَ بِـالْقَلَمِ ﴾ [العلق: ١-٤]. واستفاضـت فيـه

---

(١)الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٦ .

(٢) انظر: التربية القيادية (٣/٧٤).

نصوص القرآن والسنة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي ﷺ أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام(١).

٣٦- الشيطان يخذل أتباعه:

إن الشيطان دائماً بالمرصاد للإنسان يزين له المعصية حتى إذا وقع فيها تركه وتبرأ منه، ويتضح ذلك في غزوة بدر، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: لما كان يوم بدر سار إبليس برعيته وجنوده من المشركين وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم وإني جارٌ لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى مدد الملائكة نكص على عقبه ورجع مدبراً وقال: إني أرى ما لا ترون(٢).فعلى المسلم العاقل أن يعلم الشيطان يخذل من أطاعه في أي وقت وفي أي مكان، وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه العزيز: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦] .

وقال سبحانه عن الشيطان يوم القيامة: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] .

٣٧- الأسوة الحسنة ﷺ:

---

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/١٦٤، ١٦٥).

(٢)تفسير ابن كثير جـ٧ ص١٠٠ .

نبينا محمد ﷺ هو القدوة الحسنة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب:٢١].

ولقد تجلّت هذه القدوة الحسنة في كثير من مواقفه ﷺ في غزوة بدر الكبرى، وسوف نذكر بعضا من هذه المواقف:

١- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما زميلي رسول الله ﷺ وكانت عقبة رسول الله ﷺ أي (جاء دوره في السير على قدميه) فقالا: نحن نمشي عنك. فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» [(١)].

٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس -أي عم النبي ﷺ- فداءه، قال: «والله لا تذرون منه درهم».

قال ابن حجر -رحمه الله- تعليقا على هذا الحديث: «الحكمة في ذلك أنه خشي أن يكون في ذلك محاباة له لكونه عمه لا لكونه قريبهم من ناحية النساء فقط» [(٢)]..

ولقد حثنا الله تعالى على الاقتداء بنبينا محمد ﷺ والرضا بجميع أحكامه، وحذرنا مخالفته، قال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء: ٦٥] .

---

(١)حديث حسن: مسند أحمد جـ٧ ص١٧ .

(٢)فتح الباري جـ٧ ص٣٧٥ .

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١] .

وقال جل شأنه: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧] . وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً ﴾[الأحزاب:٣٦] .

وقال سبحانه: ﴿ فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]

٣٨- الكتمان وأهميته في الحروب:

لقد تحلى رسول الله ﷺ بصفة الكتمان في عامة غزواته، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: "ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها...". (١) وفي غزوة بدر ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

١ – سؤاله ﷺ الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه، وعن قريش وجيشها.

٢– تورية الرسول ﷺ في إجابته عن سؤال الشيخ ممن أنتما؟ بقوله ﷺ: «**نحن من ماء**» وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به ﷺ كتمان أخبار جيش المسلمين عن قريش.

---

(١) البخاري (٢/٢٩٤٧)

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٢٨).

٣- وفي انصرافه فور استجوابه كتمانٌ أيضًا، وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هذا سببًا في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله ﷺ: «من ماء»[1].

٤- أمره ﷺ بقطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر[2].

٥- كتمانه ﷺ خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال ﷺ: «... إن لنا طلبةً فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا...»[3].

وقد استدل الإمام النووي بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب، وأن لا يبين القائد الجهة التي يقصدها لئلا يشيع هذا الخبر فيحذرهم العدو[4].

ونلحظ أن التربية الأمنية في المنهاج النبوي مستمرة منذ الفترة السرية، والجهرية بمكة، ولم تنقطع مع بناء الدولة، وأصبحت تنمو مع تطورها، وخصوصًا في غزوات الرسول ﷺ.

٣٩- بناء عريش القيادة:

بعد نزول النبي ﷺ والمسلمين معه على أدنى ماء بدر من المشركين، اقترح سعد بن معاذ رضي الله عنه على رسول الله ﷺ بناء عريش له يكون مقرًا لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: (يا نبي الله ألا نبني لك عريشًا

---

(٢) انظر: مرويات غزوة بدر، أحمد محمد باوزير، ص١٠٠.

(٣) مسلم، كتاب الإمارة (٣/١٥١٠) رقم (١٩٠١).

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم (١٣/٤٥).

تكون فيه ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ويناصحونك، ويجاهدون معك) فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ على تل مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله ﷺ(١).

ويستفاد من بناء العريش أمور، منها:

١ - لا بد أن يكون مكان القيادة مشرفًا على أرض المعركة، يتمكن القائد فيه من متابعة المعركة وإدارتها.

٢ - ينبغي أن يكون مقر القيادة آمنًا بتوافر الحراسة الكافية له.

٣ - ينبغي الاهتمام بحياة القائد، وصونها من التعرض لأي خطر.

٤ - ينبغي أن يكون للقائد قوة احتياطية أخرى تعوض الخسائر التي قد تحدث في المعركة(٢).

٤٠- من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من المنن التي منَّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدر أنه أنزل عليهم النعاس

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٣٣).

(٢) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص٦٦.

(٢)

والمطر، وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ قال القرطبي: (وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها، فكان النوم عجيبًا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، وكأن الله ربط جأشهم).

وعن علي ﷺ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح.

وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أولهما: أن قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمَّنهم بزوال الرعب من قلوبهم كما يقال: «الأمن مُنيم، والخوف مُسْهِر»[1].

وبين سبحانه وتعالى أنه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم في وقت لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار، وذلك فضلاً منه وكرمًا، وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتنبيه على أنه أكرمهم به.

قال الإمام الرازي: (وقد علم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقذر نفسه، إذ كان جنبًا، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب فلا

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/٣٢٧).

جَرَمَ عدَّ الله تعالى وتقدس تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه...)[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ فقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزل النبي ﷺ -يعني حين سار إلى بدر- والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة- أي كثير مجتمعة- فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليكم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشي الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم[٢]. فقد بين سبحانه أنه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة فتطهروا به حسيًّا ومعنويًّا إذ ربط الله به على قلوبهم وثبت به أقدامهم، وذلك أن الناظر في منطقة بدر يجد في المنطقة رمالا متحركة لا زالت حتى اليوم ومن العسير المشي عليها، ولها غبار كبير، فلما نزلت الأمطار تماسكت تلك الرمال وسهل السير عليها، وانطفأ غبارها، وكل ذلك كان نعمة من الله على عباده[٣].

٤١- الخطة المحكمة للرسول ﷺ في المعركة:

ابتكر الرسول ﷺ في قتاله مع المشركين يوم بدر أسلوبًا جديدًا في مقاتلة أعداء الله تعالى، لم يكن معروفًا من قبل حتى قاتل ﷺ بنظام الصفوف[٤]، وهذا

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي (١٣٣/١٥).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٩٥/٩).
(٣) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (٩١/١).
(٤) انظر: القيادة العسكرية، د. محمد الرشيد ص٤٠١.

الأسلوب أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصلاة، وتقل هذه الصفوف أو تكثر تبعًا لقلة المقاتلين أو كثرتهم. وتكون الصفوف الأولى من أصحاب الرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف التي خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدر:

١- إرهاب الأعداء ودلالة على حسن وترتيب النظام عند المسلمين.

٢- جعل في يد القائد الأعلى ﷺ قوة احتياطية عالج بها المواقف المفاجئة في صد هجوم معاكس، أو ضرب كمينٍ غير متوقع، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة والفرسان، ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأول مرة في غزوة بدر سبقًا عسكريًا تميزت به المدرسة العسكرية الإسلامية على غيرها منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان(١).

ويظهر للباحث في السيرة النبوية أن النبي ﷺ كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية الجديدة، وخاصة تلك التي لم يعهدها العرب من قبل، على نحو ما قام به النبي ﷺ في يوم بَدْرٍ، وأُحُدٍ وغيرهما.

ومن جهة النظرة العسكرية، فإن هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب

---

(١) انظر: الرسول القائد، خطاب، ص١١١، ١١٦، ١١٧.

بشخصية النبي ﷺ وبراعته العسكرية؛ لأن التعليمات العسكرية التي كان يصدرها خلال تطبيقه لها، تطابق تمامًا الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة(١).

وتفصيل ذلك فقد اتبع ﷺ أسلوب الدفاع ولم يهاجم قوة قريش، وكانت توجيهاته التكتيكية التي نفذها جنوده بكل دقة سببًا في زعزعة مركز العدو، وإضعاف نفسيته، وبذلك تحقق النصر الحاسم بتوفيق الله على العدو برغم تفوقه(٢)، بنسبة ٣ إلى ١، فقد كان ﷺ يتصرف في كل موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة؛ وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال والظروف، وقد طبق الرسول ﷺ في الجانب العسكري أسلوب القيادة التوجيهية في مكانها الصحيح. أما أخذه بالأسلوب الإقناعي في غزوة بدر فقد تجلى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضع متعددة؛ لأنه ﷺ لا يقود جنده بمقتضى السلطة، بل بالكفاءة والثقة، وهو ﷺ أيضا لا يستبد برأيه، بل يتبع مبدأ الشورى وينزل على الرأي الذي يبدو صوابًا، ومارس ﷺ في غزوة بدر أسلوب القيادة التوجيهية، فقد تجلى في أمور، منها:

١- الأمر الأول: أمره ﷺ الصحابة برمي الأعداء إذا اقتربوا منهم؛ لأن الرمي يكون أقرب إلى الإصابة في هذه الحالة «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل»(٣).

---

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، محمد محفوظ، ص١٢١.

(٢) انظر: مقومات النصر، د. أحمد أبو الشباب (١٥٤/٢)

(٣) صحيح السيرة النبوية برواية أخرى ونفس المعنى، ص٢٣٩.

٢- الأمر الثاني: نهيه ﷺ عن سل السيوف إلى أن تتداخل الصفوف[١] «**ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم**»[٢].

٣- الأمر الثالث: أمره ﷺ الصحابة بالاقتصاد في الرمي[٣] «**واسْتَبْقُوا نَبْلَكم**»[٤].

وعندما تقارن هذه التعليمات الحربية بالمبادئ الحديثة في الدفاع تجد أن رسول الله ﷺ كان سباقًا إليها من غير عكوف على الدرس ولا التحاق بالكليات الحربية، فالنبي ﷺ يرمي من وراء تعليماته التي استعرضناها آنفا إلى تحقيق ما يعرف حديثًا بكبت النيران إلى اللحظة التي يصبح فيها العدو في المدى المؤثر لهذه الأسلحة، وهذا ما قصده ﷺ في قوله: «**واستبقوا نبلكم**» .

٤٢- الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال الأعداء:

ولم يهمل ﷺ فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال العدو، فقد كان يستفيد من كل الظروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله ﷺ قبل بدء القتال يوم بدر، يقول المقريزي: وأصبح ﷺ ببدر قبل أن تنزل قريش، فطلعت الشمس وهو يصفهم فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه فاستقبلوا الشمس [٥].

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص٦٣، ٦٤، لأبي فارس.
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٣٩.
(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس، ص٦٣، ٦٤.
(٤،٦) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدرا، رقم ٣٩٨٤، ٣٩٨٥.
(٥) انظر: القيادة العسكرية، ص٤٥٣.

وهذا التصرف يدل على حسن تدبيره ﷺ؛ واستفادته حتى من الظروف الطبيعية لما يحقق المصلحة لجيشه، وإنما فعل ذلك لأن الشمس إذا كانت في وجه المقاتل تسبب له عَشا(١) البصر فتقل مقاومته ومجابهته لعدوه(٢). وفيما فعله رسول الله ﷺ يوم بدر إشارة إلى أن الظروف الطبيعية كالشمس والريح والتضاريس الجغرافية وغيرها لها تأثير عظيم على موازين القوى في المعارك، وهي من الأسباب التي طلب الله منا الأخذ بها لتحقيق النصر والصعود إلى المعالي(٣).

٤٣- ما وقع لسواد بن غزية:

كان ﷺ في بدر يعدل الصفوف ويقوم بتسويتها لكي تكون مستقيمة متراصة، وبيده سهم لا ريش له يعدل به الصف، فرأى رجلاً اسمه سواد بن غزية، وقد خرج من الصف فطعنه ﷺ في بطنه، وقال له: «**استوِ يا سواد**» فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «**استقد**» فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد**» قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله بخير(٤).

ويستفاد من قصة سواد رضي الله عنه أمور، منها:

---

(١) سوء البصر بالليل والنهار يكون في النار والدواب والإبل والطير.
(٢) انظر: تحفة الأحوذي بشرح مجامع الترمذي (١٧٥/٧)
(٣) انظر: القيادة العسكرية، ص٤٥٤.
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٣٦.

١- حرص الإسلام على النظام.

٢- العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله ﷺ القود من نفسه.

٣- حب الجندي لقائده.

٤- تذكر الموت والشهادة.

٥- جسد رسول الله ﷺ مبارك، ومسه فيه بركة، ولهذا حرص عليها سواد.

٦- بطن الرجل ليس بعورة بدليل أن النبي ﷺ كشف عنه ولو كان عورة لما كشف عنه(١).

٤٤- التعبئة المعنوية على القتال:

كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه على أن يكونوا أصحاب إرادات قوية راسخة ثابتة ثبات الشُّمِّ الرواسي، فيملأ قلوبهم شجاعة وجرأة وأملاً في النصر على الأعداء، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القوية أسلوب الترغيب والترهيب، الترغيب في أجر المجاهدين الثابتين، والترهيب من التولي يوم الزحف، والفرار من ساحات الوغى، كما كان يحدثهم عن عوامل النصر وأسبابه ليأخذوا بها ويلتزموها، ويحذرهم من أسباب الهزيمة ليقلعوا عنها، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها(٢).

وكان ﷺ يحث أصحابه على القتال ويحرضهم عليه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا

(١) انظر: غزوة بدر، لأبي فارس، ص٥٢.
(٢) انظر: المدرسة النبوية لأبي فارس، ص١٤٠.

مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وفي غزوة بدر الكبرى قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض». فقال عمير بن الحمام الأنصاري ﷺ: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بخٍ بخٍ (كلمة تعجب). فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قول: بخٍ بخٍ؟». قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: «فإنك من أهلها».

فأخرج تمرات من قرنه (جعبة النشاب) فجعل يأكل منه، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل[١].

وفي رواية قال: قال أنس ﷺ : فرمى ما كان معه من التمر، وقاتل وهو يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والبر والرشاد

فقاتل رحمه الله حتى استشهد[٢] . ومن صور التعبئة المعنوية أنه ﷺ كان يبشرهم بقتل صناديد المشركين، وزيادة لهم في التطمين كان يحدد مكان قتلى

(١) انظر: مختصر صحيح مسلم للمنذري (٢/٧٠) رقم (١١٥٧).
(٢) انظر: صفة الصفوة (١/٤٨٨)، زاد المعاد (٣/١٨٢).

كل واحد منهم،(١) كما كان يبشر المؤمنين بالنصر قبل بدء القتال فيقول: «أبشر أبا بكر». ووقف رسول الله ﷺ يقول للصحابة رضوان الله عليهم: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»(٢).

وقد أُثرت هذه التعبئة المعنوية في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم والذين جاءوا من بعدهم بإحسان(٣).

وكان ﷺ يطلب من المسلمين أن لا يتقدم أحد إلى شيء حتى يكون دونه، فعن أنس ﷺ قال: (... فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون دونه»(٤) فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» (٥).

٤٥- العمل بالأسباب وانتظار المدد الرباني:

من أساسيات العقيدة الأخذ بالأسباب كما أمر الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ

---

(١) انظر: جامع الأصول (٨/٢٠٢)
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/٢٣٩).
(٣) المدرسة العسكرية لأبي فارس، ص١٤٣.
(٤) انظر: مسلم (٣/١٥١٠) رقم (١٩٠١).
(٥) انظر: المنذري، مختصر صحيح مسلم، (٢/٧٠) رقم (١١٥٧).

﴿وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وبعد الإعداد والأخذ بالأسباب يكون المؤمن على يقين تامٍّ أن الله هو الفاعل الحقيقي، فإن شاء أمضى الأسباب، وجعل قوتها المؤثرة أقوى من قوة القائم بها، وإن شاء عطَّلها وسلبَها الأثر.

بعد أن دعا ﷺ ربه في العريش، واستغاث به خرج من العريش فأخذ قبضة من التراب، وحصَبَ بها وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه» ثم أمر ﷺ أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبقَ أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله(١)؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته، فالرمي يراد به الحذف والإيصال فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال(٢). ونلحظ أن الرسول ﷺ أخذ بالأسباب المادية والمعنوية وتوكل على الله، فكان النصر والتأييد من الله تعالى، فقد اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقدر الممكن مع التوفيق الرباني في تهيئة جميع أسباب النصر ـ متعاونة متكافئة مع التأييدات الربانية الخارقة والغيبية، ففي عالم الأسباب تشكل دراسة الأرض والطقس ووجود القيادة والثقة بها والروح المعنوية لبنات أساسية في صحة القرار العسكري، ولقد كانت الأرض لصالح المسلمين، وكان الطقس

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٢٥).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/١٨٣).

مناسبًا للمعركة، والقيادة الرفيعة موجودة والثقة بها كبيرة، والروح المعنوية مرتفعة، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكل مباشر وتوفيقه، وبعضها كان من فعل رسول الله ﷺ أخذًا بالأسباب المطلوبة، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله وزيد على ذلك التأييدات الغيبية والخارقة فكان ما كان، وذلك نموذج على ما يعطاه المسلمون بفضل الله إذا ما صلحت النيات عند الجند والقادة، ووجدت الاستقامة على أمر الله، وأخذ المسلمون بالأسباب(١).

٤٦- نهاية الطغاة:

أ- مصرع أبي جهل بن هشام المخزومي:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما(٢)، فغمزني(٣) أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها.

قال: فلم أنشب(٤) أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت: ألا تريان؟

---

(١) انظر: الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية (١/٤٧٤).
(٢) أضلع:أقوى وأعظم وأشد.
(٣)غمزني: قرصني.
(٤) أنشب: ألبث.

هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «**أيكما قتله؟**» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «**هل مسحتما سيفيكما؟**» قالا: لا. فنظر في السيفين فقال: «**كلاكما قتله**»، وقضى بسَلَبِه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، وكانا معاذ بن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجموح(١). وفي حديث أنس قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**من ينظر ما صنع أبو جهل؟**» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه (ابنا عفراء حتى برد(٢) فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال: قتلتموه (٣)، وفي حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: أدركت أبا جهل يوم بدر صريعا، فقلت: أي عدو الله قد أخزاك الله؟ قال: وبما أخزاني؟ من رجل قتلتموه، ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوقع السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه، فضربت عنقه، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «**آلله الذي لا إله إلا هو؟**» قلت: الله الذي لا إله إلا هو. قال: فانطلق فاستثبت فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته. فقال رسول الله ﷺ: «**انطلق**» فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: «**هذا فرعون هذه الأمة**»(٤).

كان الدافع من حرص الأنصاريين الشابين على قتل أبي جهل ما سمعاه من

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدرًا، رقم (٣٩٨٨).
(٢) برد: قارب على الموت وكان في النزع الأخير.
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل رقم (٣٩٦٣).
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٤٢.

أنه كان يسب رسول الله ﷺ، وهكذا تبلغ محبة شباب الأنصار لرسول الله ﷺ بذل النفس في سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبي جهل وهو في الرمق الأخير من الحوار فيه عبرة بليغة، فهذا الطاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكة قد وقع صريعًا بين أيدي من كان يؤذيهم. ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمق من حياته هو أحد المستضعفين، ولقد كان أبو جهل مستكبرًا جبارًا حتى وهو صريع وفي آخر لحظات حياته[1]. فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتز رأسه: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعي الغنم[2].

فالله تعالى لم يعجِّل لهذا الخبيث أبي جهل بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقاه مصروعًا في حالة من الإدراك والوعي بعد أن أصابته ضربات أشفت به على الهلاك الأبدي، ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة والذل والخذلان على يد من كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهده بمكة من رجال الرعيل الأول -السابقين إلى مظلّة الإيمان وطهر العقيدة، والتعبد لله بشرائعه، التي أنزلها رحمة للعالمين- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيرًا له، ويقرّعه تقريعًا يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض، ويستل منه سيفه إمعانًا في البطش به فيقتله به، ويمعن

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١٥٨- ١٦٠).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٤٧).

في إغاظته بإخباره أن النصر عقد بناصية جند الله وكتيبة الإسلام، وأن شنار الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النفير الذي قاده هذا الكفور الخبيث...[1].

ب- مصرع أمية بن خلف:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: كاتبت أمية بن خلف كتابًا بأن يحفظني في صاغيتي[2] بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته (عبد عمرو).

فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه[3] حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه ثم أبوا حتى يتبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه، فتجللوه(٤) بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه[5].

وفي رواية أخرى لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كان أمية بن خلف لي

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/٤٣١، ٤٣٢).
(٢) الصاغية: صاغية الرجل ما يميل إليه، ويطلق على الأهل والمال.
(٣) أحرزه: أحميه.
(٤) تجللوه: طعنوه وأصابوه
(٥) البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكَّل المسلم حربيًا رقم (٢٣٠١).

صديقًا بمكة، وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماك أبوك؟ قال: فأقول نعم. قال: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئًا أدعوك به، أما أنت فلا تجبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف. قال: وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: قلت: نعم. قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجبته فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ بيده قال: ومعي أدراع لي قد استلبتها، فأنا أحملها، فلما رآني قال: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ قال: قلت: نعم، ها لله؟ قال: فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ ثم خرجت أمشي بهما، قال ابن هشام: يريد باللبن أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن[1].

ونلحظ من الروايات السابقة:

١ - ما جرى من بلال ﷺ حينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف الذي كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب في مكة، فلما رآه في يد عبد الرحمن بن عوف ﷺ أسيرًا صرخ بأعلى صوته: لا نجوت إن نجا.

إنه موقف من مواقف التشفي في أعداء الله، والتشفي من كبار الكفرة

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٤٣) سنده صحيح وقد صرح ابن إسحاق بالقولين.

الفجار وفي الحياة الدنيا نعمة يفرج الله بها عن المكروبين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطغاة، قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

٢- إن فيما جرى لأمية بن خلف من قتل مفزع درسًا بليغًا للطغاة المتجبرين، وعبرة للمعتبرين، الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم، فيعتدون على الضعفاء، ويسلبونهم حقوقهم، فمآلهم إلى عاقبة سيئة ووخيمة في الآخرة، وقد يمكن الله للضعفاء منهم في الدنيا قبل الآخرة كما حدث لأمية بن خلف وأضرابه من طغاة الكفر(١)، قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

٣- وفي قول عبد الرحمن بن عوف: «يرحم الله بلالا ذهبت أدراعي وفجعني بأسيريَّ»(٢) مع ما جرى من بلال من معارضة وانتزاع الأسيرين من يده بقوة الأنصار الذين استنجد بهم دليل على قوة الرباط الأخوي بين الصحابة الكرام(٣).

٤- موقف لأم صفوان بنت أمية: قيل لأم صفوان بنت أمية بعد إسلامها، وقد نظرت إلى الحباب بن المنذر بمكة: هذا الذي قطع رجل علي بن أمية يوم بدر، قالت: دعونا من ذكر من قُتل على الشرك، قد أهان الله عليًا بضربه

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١٥٢، ١٥٣).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٤٤).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١٥٣).

الحباب بن المنذر، وأكرم الله الحباب بضربه عليًا، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقتل على غير ذلك(١)، وهذا الموقف يدل على قوة إيمانها، ورسوخ يقينها حيث اتضحت لها عقيدة الولاء والبراء، فأصبحت تحب المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها، وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها(٢).

وقولها على ابنها علي: «قد كان على الإسلام حين خرج من ههنا فقتل على غير ذلك» تعني أنه كان ممن عرف عنهم الإسلام بمكة وخرجوا مع قومهم يوم بدر مكرهين، فلما التقى الصفان فتنوا حينما رأوا قلة المسلمين فقالوا: قد غر هؤلاء دينهم(٣)، فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

ج- مصرع عبيدة بن سعيد بن العاص على يد الزبير:

قال الزبير بن العوام ﷺ: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة فطعنته في عينه فمات، قال هشام، فأُخبرت أن الزبير قال: (لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها، وقد انثنى طرفاها).

قال عروة: فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه، فلما قُبض رسول الله ﷺ

(١، ٥) نفس المصدر (٤/١٥٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/٢١).

أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاها، فلما قبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل علي، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتى قُتل(١).

(هذا الخبر يصور لنا دقة الزبير بن العوام ﷺ في إصابة الهدف، حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرجل مع ضيق ذلك المكان، وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرجل بعيدة جدًا لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي، لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته ومهارته في إصابة الهدف)..

د- مصرع الأسود المخزومي:

قال ابن إسحاق: وقد خرج الأسود المخزومي، وكان رجلاً شرسًا سيئ الخلق فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن(٢) قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب (٣) رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض(٤).

---

(١) انظر: صحيح البخاري، المغازي رقم (٣٩٩٨). (2) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١٦٣/٤).

(٢) أطن: أطار.

(٣)تشخب: تسيل بصوت.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢٣٧/٢)

وقد سأل أمية بن خلف عبد الرحمن بن عوف عن الرجل المعلم بريشة نعامة في صدره؟ فأجابه عبد الرحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل(١): وهذه شهادة من أحد زعماء الكفر، وهذا يعني أنه رضي الله عنه قد أثخن في جيش الأعداء قتلاً وتشريدًا(٢).

وكان هذا أول من قتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقد جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين، فتصدى له بطل الإسلام حمزة، فقضى عليه ولقن أمثاله من الحاقدين المتكبرين درسًا في الصميم.

٤٧- إنها جنان كثيرة:

عن أنس رضي الله عنه قال: أصيب حارثة بن سراقة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: «**ويحك أَوَهَبلْتِ أَوَجَنَّة واحدة هي؟ إنها جنانٌ كثيرةٌ، وإنه في جنةِ الفردوسِ**»(٣) وفي رواية: «**يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»(٤).

٤٨- الشوق إلى الآخرة:

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أن عوف بن مالك

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١٥١).

(٢) المصدر نفسه (٤/١٥٢).

(٣) البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا رقم (٣٩٨٢).

(٤) الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية (١/٤٧٥).

وهو ابن عفراء[1] قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «**غمسة يده في العدو حاسرًا**»[2] فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل[3].

ولما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وعرض عليه جيش بدر رد عمير بن أبي وقاص فبكى عمير فأجازه، فعقد عليه حمائل سيفه، ولقد كان عمير يتوارى حتى لا يراه رسول الله ﷺ فقال سعد: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني ويردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة[4]، وقد استُشهد بالفعل.

وهذا الخبر يدل على قوة ارتباط الصحابة الكرام بالآخرة، وحرصهم على رضوان الله تعالى؛ ولذلك انطلق عوف بن الحارث رضي الله عنه كالسهم وهو حاسر غير متدرع يثخن في الأعداء حتى أكرمه الله بالشهادة، لقد تغيرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلق أفراده بالآخرة، وأصبحوا حريصين على مرضاته بعد أن كان جل همهم أن تتحدث عنهم النساء عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتنشد الأشعار في شجاعتهم[5].

---

(١) عفراء بنت عبيد بن ثعلبة شارك أولادها السبعة في غزوة بدر.

(٢) حاسرًا: غير لابس الدرع.

(٣)انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٤٥.

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣١٧، نقلاً عن صفة الصفوة، (١/٢٩٤)، والمستدرك (٣/١٨٨) والإصابة (٣/٣٥).

(٥) انظر: التربية القيادية (٢/٣١).

٤٩- بيوت الصحابة تتنافس من أجل الجنة:

قال الحافظ ابن حجر: قال موسى بن عقبة، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة وأبوه فخرج سهم سعد فقال له أبوه: يا بني آثرني اليوم، فقال سعد: يا أبت لو كان غير الجنة فعلت، فخرج سعد إلى بدر فقُتِلَ بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أحد[(١)].

وهذا الخبر يعطي صورة مشرقة عن بيوتات الصحابة في تنافسهم وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى، فهذا سعد بن خيثمة ووالده لا يستطيعان الخروج معًا لاحتياج أسرتهما وعملهما لبقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبة في نيل الشهادة حتى اضطروا إلى الاقتراع بينهما، فكان الخروج من نصيب سعد -رضي الله عنهما-، وكان الابن في غاية الأدب مع والده، ولكنه كان مشتاقًا إلى الجنة فأجاب بهذا الجواب البليغ: (يا أبت لو كان غير الجنة فعلت)[(٢)].

٥٠- محاولة اغتيال القائد ﷺ:

قال عروة بن الزبير: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحِجْر، بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء[(٣)] وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب

---

(١) الإصابة (٢/٢٣، ٢٤) رقم (٣١١٨).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/٨٧).

(٢) عناء: التعب.

ومصابهم، فقال صفوان: (والله ما في العيش بعدهم خير). قال له عمير: صدقت، أما والله لولا دَيْنٌ علي ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة(١) بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علة(٢)، ابني أسير في أيديهم.

قال: فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: عليّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم(٣) ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم علي شأني وشأنك. قال: أفعل.

قال: ثم أمر عمير بسيفه، فشحذ وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ راحلته على باب المسجد متوشحًا سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشرٍّ وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه.قال ﷺ: «فأدخله عليَّ» قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة(٤) سيفه في عنقه فلبَّبَه(٥)بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول

---

(١) الضيعة: الضياع والتشتت.

(٢)العلة: السبب.

(٣) أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.

(٤) حمالة السيف: ما يربط به السيف على الجسم. (٦)

(٥)لببه: قيده.

الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هـذا الخبيـث، فإنـه غـير مـأمون. ثـم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخـذ بحمالـة سـيفه في عنقه قال: «أرسله يا عمر، ادنُ يا عميرُ».

فدنا ثم قال: انعموا صباحًا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسـول الله ﷺ: «أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة»(١).

فقال: أما والله، يا محمد إن كنت بها لحديث عهد.

فقال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئـت لهـذا الأسـير الـذي في أيـديكم فأحسنوا فيه.

قال: «فما بال السيف في عنقك؟» قال: قبَّحها الله من سيوف! وهـل أغنـت عنا شيئًا؟!! قال: «اصدقني ما الذي جئْتَ به؟» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنـت وصـفوان بـن أميـة في الحجـر، فـذكرتما أصـحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دينٌ عليَّ وعيالٌ عندي لخرجـت حتـى أقتـل محمدًا، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، عـلى أن تقتلنـي لـه، والله حائل بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يـا رسـول الله نكـذبك بـما كنـت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنـا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسـلام،

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٥٩.

وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره ففعلوا».

ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، قال: فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عن الركبان، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا»(١).

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١ - حرص المشركين على التصفية الجسدية للدعاة، فهذا صفوان بن أمية وعمير بن وهب يتفقان على قتل النبي ﷺ، وهذا يرشدنا إلى أن أعداء الدعوة قد لا يكتفون برفض الدعوة، والتشويش عليها، وصد الناس عنها، بل يريدون اغتيال الدعاة، وتدبير المؤامرات لقتلهم، وقد يستأجرون المجرمين لتنفيذ هذا الغرض الخسيس(٢). وقد يستغل الأغنياء المترفون من أعداء الدعوة حاجة الفقراء وفقرهم فيوجهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة مآربهم، وإن أدى ذلك إلى هلاكهم، فها هو صفوان قد استغل فقر عمير وقلة ذات يده

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٦٠.
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١٥٩/٢).

ودَيْنه ليرسله إلى هلاكه(١).

٢- ظهور الحس الأمني الرفيع الذي تميز به الصحابة ﭬ ، فقد انتبه عمر ابن الخطاب لمجيء عمير بن وهب وحذَّر منه، وأعلن أنه شيطان ما جاء إلا لشرٍّ، فقد كان تاريخه معروفًا لدى عمر، فقد كان يؤذي المسلمين في مكة، وهو الذي حرض على قتال المسلمين في بدر، وعمل على جمع معلومات عن عددهم؛ ولذلك شرع عمر في أخذ الأسباب لحماية الرسول ﷺ، فمن جهته فقد أمسك بحمالة سيف عمير الذي في عنقه بشدة فعطله عن إمكانية استخدام سيفه للاعتداء على الرسول ﷺ وأمر نفرًا من الصحابة بحراسة النبي ﷺ.

٣- الاعتزاز بتعاليم هذا الدين، فقد رفض ﷺ أن يتعامل بتحية الجاهلية، ولم يرد على تحية عمير حين قال له: أنعموا صباحًا، وأخبره بأنه لا يحيي بتحية أهل الجاهلية؛ لأن الله تعالى أكرم المسلمين بتحية أهل الجنة.

٤- سمو أخلاق النبي ﷺ فقد أحسن إلى عمير، وتجاوز عنه وعفا عنه مع أنه جاء ليقتله(٢)، بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عمير وقال لأصحابه: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره»(٣).

٥- قوة إيمان عمير، فقد قرر أن يواجه مكة كلها بالإسلام، وقد أذن له رسول الله ﷺ، وفعل، وواجه، وتحدى، وعاد أدراجه إلى المدينة، وأسلم على يديه ناس كثير، وكان حين تعد الرجال يطرحه عمر ﭬ ممن يزن عنده ألف

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، ص٨٢.
(٢) انظر غزوة بدر الكبرى، ص٨٣.
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٦٠.

رجل، وكان أحد الأربعة الذين أمد بهم أمير المؤمنين عمر، عمرو بن العاص -رضي الله عنهم- الذين كان كلٌّ واحد منهم بألف(١).

٥١- إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومرويات عدد من الصحابة البدريين؛ أن الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢]. وقال تعالى: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾.

وأورد البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وغيرهم عددًا من الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر، وقيامهم بضرب المشركين وقتلهم(٢) .

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول:

---

(١) انظر: التربية القيادية، (٣/٧٣).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/٢٩١).

أقدم حيزوم.(١) فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا فنظر إليه فإذا هو خُطِم أنفه(٢)، وشُقَّ وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله فقال: «صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة»(٣) ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضا قال: إن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»(٤). ومن حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا، فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح(٥) من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق(٦) ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال «اسكت فقد أيدك الله بملك كريم»(٧). ومن حديث أبي داود المازني قال: (إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري)(٨).

إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لا شك فيه، وأن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سببًا لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سببا لنصر المسلمين:

---

(١) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك.

(٢)خطم: الخطم: الأثر على الأنف

(٣) مسلم –الجهاد، باب الإمداد بالملائكة رقم (١٧٦٣).

(٤) البخاري –المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، رقم (٣٩٩٥).

(٥) الأجلح: الذي انحسر شعره على جانبي رأسه.

(٦)الأبلق: ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٤٧.

(٨)نفس المصدر، ص٢٤٧.

من بشارتهم بالنصر، ومن تثبيتهم بما ألقـوه في قلـوبهم مـن بواعـث الأمـل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم معـانون مـن الله تعـالى، وأيضا بما قام به بعضـهم مـن الاشـتراك الفعـلي في القتـال، ولا شـك أن هـذا الاشتراك الفعلي في القتال قوى قلوبهم وثبتهم في القتال، وهذا مـا دلـت عليـه الآيات وصرحت به الأحاديث النبوية[1].

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة مع أن واحـدًا مـن الملائكة كجبريل عليه السلام قادر بتوفيق الله على إبادة الكفار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك فقال: لقد مضت سـنة الله بتدافع الحق وأهله مع الباطل وأهله، وأن الغلبة تكون وفقًا لسنن الله في الغلبة والانتصار، وأن هذا التدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحـق والباطـل، ومن ثمرات التمسك بالحق والقيام بمتطلباته أن يحصلوا على عون وتأييد مـن الله تعالى، بأشكال وأنواع متعددة مـن التأييـد والعـون، ولكـن تبقـى المدافعـة والتدافع يجريان وفقًا لسنن الله فيهما، وفي نتيجة هـذا التـدافع فالجهـة الأقـوى بكل معاني القول اللازمة للغلبة هي التي تغلب، فالإمداد بالملائكة هـو بعـض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة، ذلك الإمداد الـذي تحقـق بـه مـا يسـتلزم الغلبة على العدو، ولكن بقيت الغلبة موقوفة على ما قدمه أولئـك المؤمنـون في قتـال ومبـاشرة لأعـمال القتـال، وتعرضـهم للقتـل، وصـمودهم وثبـاتهم في الحرب، واستدامة توكلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم بـه، وهـذه معـانٍ

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٣١، ١٣٢).

جعلها الله حسب سننه في الحياة أسبابًا للغلبة والنصر، مع الأسباب الأخرى المادية، مثل العُدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونه... إلخ. ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل وقتال المبطلين، وأن يهيئوا الأسباب المادية والإيمانية للغلبة والانتصار، وبأيديهم إن شاء الله تعالى ينال المبطلون ما يستحقونه من العقاب(١)، قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

إن نزول الملائكة عليهم السلام من السماوات العلى إلى الأرض لنصر المؤمنين حدث عظيم.

إنه قوة عظمى، وثبات راسخ للمؤمنين حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه، فإنهم أهل لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة في مقابلة الأعداء، وإن كان ذلك على سبيل المغامرة، لبعد التكافؤ المادي بين جيش الكفار الكبير عددًا القوي إعدادًا وجيش المؤمنين القليل عددًا الضعيف إعدادًا.

وهو في نفس الوقت عامل قوي في تحطيم معنوية الكفار وزعزعة يقينهم، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تكرار نزول الملائكة الذين شاهدهم بعضهم عيانًا، إنهم مهما قدروا قوة المسلمين وعددهم فإنه سيبقى في وجدانهم رعب مزلزل من احتمال مشاركة قوى غير منظورة لا يعلمون عددها ولا

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٣١، ١٣٢)

يقدرون مدى قوتها، وقد رافق هذا الشعور المؤمنين في كل حروبهم التي خاضها الصحابة ﭬ في العهد النبوي، وفي عهد الخلفاء الراشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك فكان عاملاً قويًا في انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم(١).

٥٢- بعد النصر ومخاطبة أهل القليب:

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلا، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا، منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ولما تم الفتح وانهزم المشركون أرسل ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ليبشرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين(٢).

ومكث ﷺ في بدر ثلاثة أيام، فعن أنس ﭬ قال: (إنه ﷺ كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال...)(٣) ولعل الحكمة في ذلك:

١- تصفية الموقف بالقضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة التي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارين هربًا إلى الجبال.

٢- دُفن من استُشهد من جند الله مما لا تكاد تخلو منه معركة، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة، ولم يرد ما يشير إلى الصلاة عليهم، ولم يدفن

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١٤٥/٤).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١٣٣/٢)
(٣)انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٥٠.

أحد منهم خارج بدر(١).

٣- جمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ حتى تؤدى كاملة إلى مستحقيها، وقد أسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبد الله بن كعب الأنصاري، أحد بني مازن(٢).

٤- إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر المؤزر الذي لم يكن داني القطوف، سهل المنال، ويتذاكر أفراده وجماعاته ما كان من أحداث ومفاجآت في الموقعة، مما كان له أثر فعال في استجلاب النصر، وما كان من فلان في شجاعته وفدائيته وجرأته على اقتحام المضائق وتفريج الأزمات، وما تكشفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفر، والتدبير المحكم الذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعلية في تنفيذها، ليكون من كل ذلك ضياء يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

٥- مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرف عليهم وعلى مكانتهم في حشودهم، وعلى من بقي منهم مصروعًا بجراحه لم

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (٢٩١/١)

(٢)انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤٥٣/٣)

يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه اتقاء شره في المستقبل، كالذي كان من أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمة، والذي كان في شأن رأس الكفر أمية بن خلف وأضرابهما، وقد أمر رسول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخباث في رَكِيٍّ[١] من قُلُب[٢] بدر خبيث مُخْبث، ثم وقف على شفة الركي[٣]، وقد ورد أنه ﷺ وقف على القتلى فقال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس»[٤].

ثم أمر بهم، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر فطرحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! ما تخاطب من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون الجواب»[٥]. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا، وتصغيرًا، ونقمة، وحسرة، وندمًا[٦].

٥٣- الحياة البرزخية للأموات:

الحديث السابق الذي ورد فيه أنه ﷺ وقف على القتلى فقال: «بئس عشيرة

---

(١) ركي: حافة البئر.

(٢)قلب: أبيار ومفرده بئر.

(٣) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/٤٥٤).

(٤) زاد المعاد (٣/١٨٧).

(٥) أخرجه البخاري (٧/٢٣٤) في المغازي، باب دعاء النبي ﷺعلى كفار قريش.

(٦) الأساس في السنة – السيرة النبوية (١/٤٧٩).

النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس»(١).

ثم أمر بهم، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر فطرحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا» .

إن مناداة الرسول ﷺ لقتلى قريش بينت أمرًا عظيمًا، وهو أنهم بدَأوا حياة جديدة، هي حياة البرزخ الخاصة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، غير أنهم لا يجيبون ولا يتكلمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحيح الأحاديث، حتى إنه ﷺ مر بقبرين وقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير»(٢)، وذكر أن سبب تعذيبهما النم بين الناس، وعدم الاستنزاه من البول(٣). ولا بد من التسليم بهذه الحقائق الغيبية، بعد أن تحدث عنها الصادق المصدوق، وقطع بها القرآن الكريم في تعذيب آل فرعون، قال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]. وأما الشهداء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وبعد هذا التطواف مع الدروس والعبر .. فهذا غيضٌ من فيض ودرس من مدرسة بدر الكبرى التي يجب على المسلمين أن يقفوا أمامها وقفة إجلال

---

(١) زاد المعاد (١٨٧/٣).
(٢) رواه البخاري رقم ٢١٨.
(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي فضل الله، ص٦٤.

وتقدير، لينظروا من خلالها إلى المعايير الإيمانية في مواجهة الحق مع الباطل، وكيف أن الفئة المؤمنة القليلة العدد والعتاد، والمستضعفة في الأرض كيف أنها حين أخلصت لربها، وتجردت لعقيدتها، وانخلعت من الأهواء والشهوات، فإن الله– عز وجل– أعزَّها، وسخَّر لها جنود السموات والأرض، فتحقق لها النصر الذي وعد الله به عباده في محكم التنزيل :﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣–١٧١]

اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك يارب العالمين ،واكتب لنا الشهادة في سبيلك بعد طول عمر وحسن عمل ،إنك ولي ذلك والقادر عليه .

هذا وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آبه وصحبه وسلم .

الحمد لله الذي تفرد بالجلال والعظمة، والعز والكبرياء والجمال، وأشكره شكر عبد معترف بالتقصير عن شكر بعض ما أوليه من الإنعام والأفضال، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد .

إن الحنين والشوق يشدنا دائماً إلى السيرة النبوية العطرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، لنجلس في أفياء أحداثها مجلس التلاميذ الذين يتلقون العلوم والدروس النافعة المفيدة في أمور العقيدة والإيمان، والعبادة والأحكام، والسيادة والقيادة، والحرب والجهاد، والسلم وإدارة شئون الحياة؛ إنها مدرسة كاملة لإعمار هذه الدنيا على منهج الله عز وجل، وللسعي إلى رضوان الله سبحانه وتعالى في الآخرة.

عندما يقف المسلم ويُقلب صفحات غزوة أحد يجد أنَّ فيها سفراً عظيماً للدروس والعبر التي تقوّم اعوجاج مسالكنا، وتحيي وتقوي ضعف إيماننا، وتثبت مواضع أقدامنا، وتكشف ما وراء المظاهر إلى حقائقها .

ولقد وصف القرآن هذه المعركة وصفاً دقيقاً، وسلّط الضوء على خفايا النفوس، ودخائل القلوب، وكان فيها تربية للأمة في كل زمان ومكان،

ودروساً تتوارثها الأجيال تلو الأجيال.

وتستمر السلسلة المباركة(**غزوات النبي المصطفى ﷺ دروس وعـبر**) ومـع الوقفة الثانية مع (**غزوة أحد دروس وعبر**).

وسأقف وإياكم مع بعض الفوائد والحكم الربانية المستفادة من هذه الغزوة العظيمة. فهذه الغزوة العظيمة تعد نموذجاً حياً لما يمر به المسلمون اليـوم مـن محن وشدائد، فما أحرانا أن نقف عندها، ونستفيد مـن دروسـها وعبرهـا، ومـا أحوج الأمة وهي تمـر بهـذه المرحلـة الحرجـة في تاريخهـا، أن تراجـع نفسـها، وتستعيد ذاكرتها، وتعي سيرة نبيها - ﷺ-.

فأحدٌ نصرٌ لا هزيمة، معركة فياضةٌ بالعبر والعظـات، أحـداثها صـفحات ناصعة، يتوارثها الأجيال بعد الأجيال.

نسأل الله بمنه وكرمه أن يعيد لهذه الأمة مجدها وعزها ،وان يجعلنـا مفـاتيح للخير مغاليق للشر وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

غزوة أحد:

التي أنزل الله على إثرها آيات تُتلى إلى يوم الدين، فنزلت ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران، تتحدث عن هذه الغزوة، ابتدأت بذكر أول مرحلة من مراحل الإعداد للمعركة في قوله تعالى -:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٢١]، وانتهت بالتعليق الجامع على نتائج المعركة، والحكم التي أرادها الله منها فقال - سبحانه -:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٩].

غزوة أحد:

التي وقعت في الخامس عشر من شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة.

قال ابن إسحاق: كان أُحد يوم السبت للنصف من شوال [(١)].

غزوة أحد:

التي تعلّم منها المسلمون أنه ينبغي أن تكون الشدائد والمحن في كل زمان فيصلاً لتمييز المؤمنين، وفضح المنافقين.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١١٦).

❁ غزوة أحد:

التي فيها دروساً للأمة جمعاء في حياتها ومعاملاتها ولعل دروس النكبات والهزائم أعظم أثراً من غيرها في كل وقت وحين.

❁ غزوة أحد:

تركت آثاراً غائرة في نفس النبي ﷺ تلازمه حتى آخر حياته ولما حانت وفاته جعل آخر عهده بذكريات البطولة أن يودع قتلى أحد وأن يدعوا الله لهم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ على قتلى أُحد بعد ثمان سنوات كالمودع للأحياء والأموات ثم طلع المنبر فقال:« إني بين أيديكم فرط وأنا عليكم شهيد وإن موعدكم الحوض وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها قال عقبة فكان آخر نظرة نظرتها إلى الرسول»[1].

❁ غزوة أحد:

إن مقارنة يسيرة بين حال الأمة في يومها وبين حالها يوم هُزمت في معركة أحد وجعلت الهزيمة بسبب معصيتها ومخالفتها لرسولها توحي بأن الأمة اليوم لم تكمل أسباب النصر والتمكين التي وردت في كتاب الله تعالى وإنما هي في غفلة معرضة، لم ترفع بالدين رأساً في كثير من بقاعها وأصقاعها وفي كثير من أحوالها وأهوالها.

❁ غزوة أحد:

---

(١)أخرجه البخاري ومسلم.

من المعارك التي خاضها النبي ﷺ بنفسه غـزوة أحـد التـي كانـت محـلاً لأحداث كبار ودروس وعبر عظام. فهي فيّاضة بالعظـات الغـوالي والمـواعظ القيمة.

۞غزوة أحد:

مع ما وقع فيهـا مـن الكـوارث والنكبـات، ومـا حوتـه مـن النـوازل والأزمات، إلا أنه يَصدُق فيها قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[النور:١١]

هذه لمحة موجزة سريعة نقف وإياكم مـع دروس وعـبر مـن هـذه الغـزوة المباركة التي كان لها الأثر البالغ في حياة المصطفى ﷺ وحياة الصحابة وسيكون لها مثل ذلك التأثير لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فهيا لنعيش مع هذه الدروس العبر .

١- أثر المعاصي في النصر والهزيمة:

في غزوة أحد ظهر أثر المعصية والفشل والتنازع في تخلف النصر عن الأمة، فبسبب معصية واحدة خالف فيها الرماة أمر النبي - ﷺ -، وبسبب التنازع والاختلاف حول الغنائم، ذهب النصر عن المسلمين بعد أن انعقدت أسبابه، ولاحت بوادره، فقال - سبحانه -: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢]

فكيف ترجو أمة عصت ربها، وخالفت أمر نبيها، وتفرقت كلمتها أن يتنزل عليها نصر الله وتمكينه؟. وبالمعاصي تدور الدوائر، ففاضت أرواح في تلك الغزوة بسبب خطيئة، وخرج آدم من الجنة بمعصيته، و«دخلت امرأة النار في هرة» فما الذي أهلك الأمم السابقة وطمس الحضارات البائدة سوى الذنوب والمعاصي:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (القصص ٤٠)

يقول بعض أهل العلم: يا سبحان الله! رماة خالفوا رسول الله ﷺ والموت على رءوسهم، وأنت تخالف رسول الله ﷺ في اليوم والليلة عشرات المرات ولا تخشى، ولذلك كان من نتيجة هذه المخالفة حلول الهزيمة وحلول الغلبة على المؤمنين رضي الله عنهم وأرضاهم، فمخالفة أمر الرسول ﷺ شؤم وفساد كبير، وما هناك تدمير لمستقبل الإنسان ولا خيبة أمل ولا تعكير لفهمه وذكائه ورزقه وولده مثل المعصية نعوذ بالله من المعاصي!

فالمعاصي سبب كل عناء وطريق كل شقاء ،ما حلّت في ديار إلا أهلكتها ولا فشت في مجتمعات إلا دمّرتها وأزالتها ،وما أهلك الله تعالى أمة إلا بذنب وما نجى وما فاز من فاز إلا بتوبة وطاعة .

قال تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم٤٠)

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى ٣٠)

المعصية عذاب المعصية وحشة المعصية حتى ولو كانت صغيرة مع الإصرار عليها تعمي البصيرة وتُسقط الكرامة وتُوجب القطيعة وتمحق البركة ما لم يتب العبد ويرجع خائفا وجلاً .

رأيتُ الذنوب تُميت القلوب وقد يورث الذُّل إدمانها

وتركُ الذنوب حياةُ القلـوب   وخـــيرٌ لنفســك عصـــيانها

قال مجاهد ﷺ:" إن البهـائم لـتلعن عصـاة بنـي آدم إذا اشـتدت السـنة وأمسك المطر وتقول هذا شؤمه معصية بني آدم"و لا حول ولا قـوة إلا بـالله.

تأمل يا رعاك الله قول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُـلْ هُـوَ مِـنْ عِنْـدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران ١٦٥).

فالزم يا عبد الله الطاعة والعبودية، يؤخذ بيـدك في المضـايق، وتُفْـرَج لـك الشدائد، ولا تجعل أعمالك جُنداً عليك، يزداد بها عدوك قوة عليك.

٢- خطورة إيثار الدنيا على الآخرة :

وهذه الغزوة تعلمنا كذلك خطورة إيثار الدنيا على الآخرة، وأن ذلك ممـا يفقد الأمة عون الله ونصره وتأييده، قال ابن مسعود: " ما كنت أرى أحداً مـن أصحاب رسول الله – ﷺ– يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحـد : ﴿ مِـنْكُم مَّـن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآَخِرَةَ ﴾ "، عن أبي سعيد الخدري ﷺ عـن النبـي ﷺقال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[1].

قال ابن عباس ﷺ: لما هزم الله المشركين يـوم أحـد، قـال الرمـاة: (أدركـوا الناس ونبي الله، لا يسبقوكم إلى الغنائم، فتكون لهم دونكـم) وقـال بعضـهم:

---

(١)مسلم، رقم ٢٧٤٢.

(لا نبرح حتى يأذن لنا النبي ﷺ)(١)فنزلت:

﴿ مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآَخِرَةَ ﴾ (آل عمران: ١٤)..

وفي ذلك درسٌ عظيم يبين أن حب الدنيا والتعلق بها قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان والصلاح، وربما خفي عليهم ذلك، فآثروها على ما عند الله، مما يوجب على المرء أن يتفقد نفسه وأن يفتش في خباياها، وأن يزيل كل ما من شأنه أن يحول بينها وبين الاستجابة لأوامر الله ونواهيه.

وقد وردت نصوص عديدة من آيات وأحاديث تبين منزلة الدنيا عند الله وتصف زخارفها وأثرها على فتنة الإنسان، وتحذر من الحرص عليها، قال تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤].

وقد حذّر الرسول الكريم ﷺ أمته من الاغترار بالدنيا، والحرص الشديد عليها في أكثر من موضع، وذلك لما لهذا الحرص من أثره السيئ على الأمة عامة وعلى من يحملون لواء الدعوة خاصة.

إن الذي حدث في أُحد عبرة عظيمة للدعاة وتعليمًا لهم بأن حب الدنيا قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان ويخفى عليهم، فيؤثرون الدنيا ومتاعها على الآخرة ومتطلبات الفوز بنعيمها، ويعصون أوامر الشرع الصريحة كما عصى-

---

(١)انظر: تفسير الطبري (٣/٤٧٤).

الرماة أوامر الرسول ﷺ الصريحة بتأويل ساقط، يرفعه هوى النفس وحب الدنيا، فيخالفون الشرع وينسون المحكم من أوامره، كل هذا يحدث ويقع من المؤمن وهو غافل عن دوافعه الخفية، وعلى رأسها حب الدنيا، وإيثارها على الآخرة ومتطلبات الإيمان، وهذا يستدعي من الدعاة التفتيش الدائم الدقيق في خبايا نفوسهم واقتلاع حب الدنيا منها، حتى لا تحول بينهم وبين أوامر الشرع، ولا توقعهم في مخالفته بتأويلات ملفوفة بهوى النفس وتلفتها إلى الدنيا ومتاعها[(١)].

٣- ويتخذ منكم شهداء:

ومن الحكم إكرام الله بعض عباده بنيل الشهادة، التي هي من أعلى المراتب والدرجات، فأراد – عز وجل – أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في سبيله، ويؤثرون محبته ورضاه على نفوسهم.

مصعب بن عمير رضي الله عنه:

قال خباب رضي الله عنه: هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله فمنا من مضى في سبيله ولم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير قُتل يوم أحد، ولم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «غطوا رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر»، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها[(٢)]، ومن حديث عبد

---

(١)السيرة النبوية ، علي الصلابي،غزوة أحد .

(٢) البخاري في الجنائز، رقم ١٢٨٦. أي: يجتنيها.

الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه أُتي بطعام وكان صائمًا، فقال: قُتل مصعب بن عمير رضي الله عنه، وكان خيرًا مني، فلم يوجد له ما يُكفن فيه إلا بردة، وقتل حمزة أو رجل آخر خير مني، فلم يوجد له ما يكفن فيه، إلا بردة، لقد خشيت أن يكون قد عُجّلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي[1].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه ودعا له ثم قرأ هذه الآية:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٢٣]، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه»[2].

سعد بن الربيع رضي الله عنه:

هذا الذي استكتمه رسول الله ﷺ خبر مسير قريش، وكان رسول الله ﷺ يحبه، فلما انتهت معركة أحد قال رسول الله ﷺ: «من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات»؛ لأن النبي ﷺ قد رأى الأسنة شرعت إليه، فقال أبي بن كعب[3] رضي الله عنه: أنا أنظره لك يا رسول الله، فقال له: «إن رأيت سعد بن الربيع فأقرأه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ كيف

---

(١) البخاري في الجنائز رقم ١٢٧٤، ١٢٧٥.

(٢) انظر: المستدرك (٣/٢٠٠) صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

٣) وفي رواية أن المرسل هو زيد بن ثابت وليس أبي .كما جاء في زاد المعاد ص ٢٠٧ ط١٥ مؤسسة الرسالة.

يجدك؟» فنظر أبي فوجده جريحًا به رمق، فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال: قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وقد أنفذت إلى مقاتلي(١)، وفي رواية صحيحة قال: على رسول الله وعليك السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: «**لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر**(٢)**يطرف**»، قال: وفاضت نفسه رحمه الله(٣). وهذا نصح لله ورسوله في سكرات الموت يدل على قوة الإيمان، والحرص على الوفاء بالبيعة لم يتأثر بالموت ولا آلام القروح.

عبد الله بن جحش رضي الله عنه:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: إن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تدعو الله، فخلوا في ناحية فدعا سعد فقال: يا رب إذا لقيت العدو، فلقِّني رجلاً شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه، فأمّن عبد الله بن جحش رضي الله عنه، ثم قال: «**اللهم ارزقني رجلاً شديدًا حرده، شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا، قلت: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول صدقت**»، قال سعد: يا بني كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط(٤). وفي

---

(١) انظر: السيرة الحلبية (٥٣٢/٢).

(٢) شفر: العين.

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٢٩٤.

(٤) المصدر السابق، ٢٩٣.

هذا الخبر جواز دعاء الرجل أن يقتل في سبيل الله، وتمنيه ذلك وليس هـذا مـن تمني الموت المنهي عنه[١].

أَنَسِ بْنِ النّضْرِ رضي الله عنه:

ولما انهزم الناس لم ينهزم أنس بن النضر . وقال:« **اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء**» يعني المشركين ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ فقال أين يا أبا عمر ؟ فقال أنس رضي الله عنه :«**واهاً لريح الجنة يا سعد إني أجده دون أحد** »ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل فما عرف حتى عرفته أخته ببنانه وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم [٢].

حنظلة بن أبي عامر – رضي الله عنه – (غسيل الملائكة):

لما انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب فوقع على الأرض، فصاح حنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شداد، ويقال له ابن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ومشى إليه حنظله بالرمح وقد أثبته، ثم ضرب الثانية فقتله، فذكر ذلك لرسول الله – ﷺ – فقال: «**إني رأيت الملائكة تغسله بين السماء والأرض بماء المزن، في صحاف الفضة**» فقال رسول الله – ﷺ –: «**فاسألوا أهله ما شأنه؟** » فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة، فقال رسول الله – ﷺ –: «**فلذلك غسّلته الملائكة**».

وفي رواية الواقدي: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٢١٢).

(٢)أخرجه البخاري ٧/ ٢٧٤ في المغازي : باب غزوة أحد .

أبي ابن سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبحها قتال أحد، وكان قد استأذن رسول الله - ﷺ - أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلى بالصبح غدا يريد رسول الله - ﷺ- ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بعدُ: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فرجت فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بها، وفي تعلق جميلة بنت عبد الله بن أبي حنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرؤيا التي فسرتها بالشهادة، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتى لا تحمل منه فتكون بعد ذلك غير حظية لدى الخطاب، لكنها تعلقت به رجاء أن تحمل منه فتلد ولدًا ينسب لذلك الشهيد الذي بلغ درجات عليا في الصلاح أولاً، ثم بما ترجوه من نيله الشهادة، ولقد حصل لها ما أملت به فحملت منه وولدت ولدًا ذكرا سمي عبد الله، وكان له ذكر بعد ذلك، وكان من أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابن غسيل الملائكة.

عبد الله بن عمرو بن حرام -رضي الله عنه- :

رأى عبد الله بن عمرو رؤية في منامه قبل أحد، قال: «رأيت في النوم قبل أحد، مبشر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيام، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نسرح فيها كيف نشاء، قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى ثم أحييت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هذه الشهادة يا أبا جابر»، وقد تحققت تلك الرؤيا بفضل الله ومنه.

أصّر عبد الله بن عمرو بن حرام على الخروج في غزوة أحد، فخاطب ابنه جابر بقوله: يا جابر، لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي (١).

وقال لابنه أيضاً: «**ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن على دينًا فاقض واستوص بأخواتك خيرًا**»(٢). وخرج مع المسلمين ونال وسام الشهادة في سبيل الله، فقد قتل في معركة أحد، وهذا جابر يحدثنا عن ذلك حيث يقول: «لما قُتل أبي يوم أحد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: «**تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظلله بأجنحتها حتى رفعتموه**»(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «**يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟**» قال: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً ودينًا، قال ﷺ: «**أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟**» قال: بلى يا رسول الله، قال ﷺ:

«ما كلَّم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحًا، يا جابر أما علمت أن الله أحيا أباك فقال: يا عبدي، تمنَّ عليّ أعطك، قال: يا رب تحييني

---

(١)انظر: زاد المعاد (٣/٢٠٨).

(٢) البخاري رقم ١٣٥١.

٣) البخاري، رقم ١٢٤٤.

فأُقتل فيك ثانية، فقال الرب سبحانه: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب.. فأبلغ من ورائي»(١). فأنزل الله تعالى:﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

خيثمة أبو سعد - رضي الله عنه - :

قال خيثمة أبو سعد، وكان ابنه استشهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر، لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصًا، حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقًا، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني، ورقَّ عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة، فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذلك فقتل بأحد شهيدًا(٢).

وهب المزني وابن أخيه - رضي الله عنهما -:

أقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس، بغنم لهما من جبل مزينة، فوجدا المدينة خلوًا فسألا: أين الناس؟ فقالوا: بأحد، خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقاتل المشركين من قريش، فقالا: لا نبتغي أثرًا بعد عين فخرجا حتى أتيا النبي - صلى الله عليه وسلم - بأحد فيجدان القوم يقتتلون

(١) صحيح ابن ماجة للألباني، رقم ١٩٠ (٢٨٠٠).

(٢)انظر: زاد المعاد (٢٠٨/٣).

والدولة لرسول الله -ﷺ- وأصحابه، فأغارا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من وراءهم، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلطوا، فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين فقال رسول الله -ﷺ-: «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع. فانفرقت فرقة أخرى فقال رسول الله -ﷺ-: «من لهذه الكتيبة؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله، فقام فذبها بالسيف حتى ولوا، ثم رجع المزني، ثم طلعت كتيبة أخرى فقال: «من يقوم لهؤلاء؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله، فقال: «قم، وأبشر بالجنة» فقام المزني مسرورًا يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله -ﷺ- ينظر إلى المسلمين، حتى خرج من أقصاهم ورسول الله -ﷺ- يقول: «اللهم ارحمه» ثم يرجع فيهم، فما زال كذلك وهم محدقون به، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح، كلها قد خلصت إلى مقتل، ومُثل به أقبح المثلة يومئذ، ثم قام ابن أخيه فقاتل قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «**إن أَحب ميتة أموت لما مات عليها المزني**».

وكان بلال بن الحارث المزني يحدث يقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص، فلما فتح الله علينا وقسمت بيننا غنائمنا، فأسقط فتى من آل قابوس من مزينة، فجئت سعدًا حين فرغ من نومه فقال: بلال؟ قلت: بلال، قال: مرحبًا بك، من هذا معك؟ قلت: رجل من قومي من آل قابوس، قال

سعد: ما أنت يا فتى من المزني الذي قتل يوم أحد؟ قال: ابن أخيه، قال سعد: مرحبًا وأهلاً وأنعم الله بك عينًا، ذلك الرجل شهدت منه يوم أحد مشهدًا ما شهدته من أحد، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كل ناحية ورسول الله - ﷺ- وسطنا، والكتائب تطلع من كل ناحية، وإن رسول الله - ﷺ- ليرمي ببصره في الناس يتوسمهم يقول: «من لهذه الكتيبة؟ » كل ذلك يقول المزني: أنا يا رسول الله، كل ذلك يرده فلما أنسى آخر مرة قامها فقال رسول الله - ﷺ-: «قم وأبشر بالجنة» قال سعد: وقمت على أثره يعلم الله أني أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة، فخضنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية، وأصابوه - رحمه الله - وودت والله أني كنت أصبت يومئذ معه، ولكن أجلي استأخر، ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله، وقال: اخترْ في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع، فرجعنا.

وقال سعد: أشهد لرأيت رسول الله - ﷺ- واقفًا عليه وهو مقتول، وهو يقول: «رضي الله عنك فإني عنك راضٍ»، ثم رأيت رسول الله - ﷺ- قام على قدميه وقد نال النبي - ﷺ- من الجراح ما ناله، وإني لأعلم أن القيام ليشق عليه على قبره حتى وُضع في لحده، وعليه بردة لها أعلام خضر، فمد رسول الله - ﷺ- البردة على رأسه فخمره، وأدركه فيها طولا، وبلغت نصف ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحرمل فجعلناه على رجليه، وهو في لحده، ثم انصرف، فما حال أموت عليها أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله - تعالى -على حال المزني.

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه فهذا وهب المزني وابن أخيه تركا الأغنام

بالمدينة والتحقا بصفوف المسلمين وحرصاً على نيل الشهادة، فأكرمهما الله بها، وقد كانت تلك الملحمة التي سطرها المزني محفورة في ذاكرة الصحابة، فهذا سعد بن أبي وقاص يتذكرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريبا على غزوة أحد لمجرد سماع اسم رجل من عشيرة المزني ويتمنى أن يموت ويلقى الله على مثل حالة المزني.

عمرو بن الجموح - رضي الله عنه - :

كان عمرو بن الجموح - رضي الله عنه - أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأُسْد يشهدون مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المشاهد، وهم خلاد ومعوذ ومعاذ وأبو أيمن، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا: إن الله - عز وجل - قد عذرك، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: إن بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه وللخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**أما أنت فقد عذرك الله - تعالى -فلا جهاد عليك**» وقال لبنيه: «**ما عليكم ألا تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة**» فخرج وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم لا تردني إلى أهلي خائبًا فقتل شهيدًا.

وفي رواية أتى عمرو بن الجموح - رضي الله عنه - إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله: أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة، وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**نعم**» فقتلوه يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم، فمر بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجُعلوا

في قبر واحد[1].

وفي هذا الخبر دليل على أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج، يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج، وفيه دليل على شجاعة عمرو بن الجموح ورغبته في نيل الشهادة وصدقه في طلبها، وقد أكرمه الله بذلك.

أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش -رضي الله عنهم-:

لما خرج رسول الله -ﷺ- إلى أحد رفع حُسيل بن جابر، وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان، وثابت بن وقش في الآطام مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أبا لك، ما تنتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلا ظمء (٢)حمار، إنما نحن هامة اليوم أو غد، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله -ﷺ-، لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله -ﷺ-؟ فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس ولم يعلم بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حسيل بن جابر فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي، فقالوا: والله إن عرفناه، وصدقوا، قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله -ﷺ- أن يديه، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله -ﷺ- خيرًا. وفي هذا الخبر، يظهر أثر الإيمان في نفوس الشيوخ الكبار الذين

---

(١)انظر: المسند (٥/٢٩٩)، السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠١).

(٢)ظمء حمار: أي مقدار ما بين شربتي حمار.

عذرهم الله في الجهاد وكيف تركوا الحصون وخرجوا إلى ساحات الوغى طلبًا للشهادة وحبًا وشوقًا للقاء الله - تعالى -، وفيه موقف عظيم لحذيفة، حيث تصدق بدية والده على المسلمين، ودعا لهم بالمغفرة لكونهم قتلوا والده خطأ، وفيه أيضًا: أن المسلمين إذا قتلوا واحدًا منهم في الجهاد يظنونه كافرًا، فعلى الإمام ديته من بيت المال؛ لأن رسول الله - ﷺ- أراد أن يدي اليمان أبا حذيفة، فامتنع حذيفة من أخذ الدية، وتصدق بها على المسلمين(١).

منزلة الشهداء:

قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال عز وجل: أنا أبلغهم عنكم» فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺهذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران: ١٦٩-١٧١) .

وروى مسلم بسنده عن مسروق، قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه

(١)انظر: زاد المعاد (٢١٨/٣)

الآية: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾. قال: أما إنا سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة، حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟! ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

٤- سنة الله في الصراع بين الحق والباطل:

وفي غزوة أحد تأكيد لسنة الله في الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فقد جرت سنة الله في رسله وأتباعهم أن تكون الحرب سجالاً بينهم وبين أعدائهم، فيدالوا مرة ويدال عليهم أخرى، ثم تكون لهم العاقبة في النهاية، ولئن انتفش الباطل يوماً وكان له صولات وجولات، إلا أن العاقبة للمتقين، والغلبة للمؤمنين، فدولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

والجنة عزيزة غالية لا تُنال إلا على جسر من المشاق والمتاعب، والنصر الرخيص السهل لا يدوم، ولا يدرك الناس قيمته، ولذلك قال الله:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران ١٤٢)..

٥- لا بد من الأخذ بالأسباب:

لا بد أيضاً من الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية مع التوكل على الله والاعتماد عليه، فقد ظاهر النبي - ﷺ- بين درعين، ولبس لأْمَة الحرب، وكافح معه الصحابة، وقاتل عنه جبريل وميكائيل أشد القتال، رغم أن الله عصمه من القتل.

٦- التضحية من أجل الدين:

إن سنة الله جل وعلا قد مضت أن هذا الدين لا يتحقق في واقع الحياة، ولا يثبت على هذه الأرض، ولا تعلو رايته خفاقة فوق البقاع، ولا يتحقق منهجه بين الناس إلا بجهد من أبناء هذا الدين يسبقه ويرافقه ويعقبه توفيق من الله عز وجل.

إن هذا الدين لابد له من علم يُنشر، ودعوة تبذل، وأموال تُنفق، ومهج وأرواح تُزهق في سبيل الله عز وجل، إنه ليس أمراً هيناً؛ إنها الرسالة العظيمة الخالدة، إنها الأمانة الكبيرة الماجدة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب:٧٢) ، ويخاطب الله جل وعلا نبيه ﷺ فيقول: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (المزمل:٥)، إنها أمانة هذا الدين والرسالة الخاتمة من رب العالمين، الدين الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى للناس أجمعين، حتى يرث الله الأرض ومن عليها يوم يقوم الناس لرب العالمين.

هذه الرسالة العظيمة، وهذا الدرس الكريم نقف مع ومضات منه لنرى

صورته في غزوة أحد، ولست معنياً بـالوقوف مـع الأحـداث وترتيبهـا، وإنـما نأخذ هذا الدرس الواضح الجلي في هذه المعركة العظيمة مـن معـارك الإسـلام الخالدة التي قادها محمـد ﷺ برفقـة الصـحب الكـرام الغـر الميـامين الأبطـال الشجعان رضوان الله عليهم أجمعين.

أنس بن النضر ﷺ يصاب في هذه الغزوة ببضع وثمانين جراحـة، ثـم مثّل به بعدها، فلم يعرفه أحد سوى أخته عرفته ببنانه.

وفي سعد بن الربيع ﷺ سبعون طعنة ، و قتل مصعب بن عمـير ﷺ ، فلم يوجد له ما يُكفن فيه إلا بردة ، واستشهد حمـزة عـم النبـي ﷺ ،واستشـهد سبعين من خيرة الصحابة الكرام.

فماذا قدمنا لديننا؟؟ وللصحابة الكرام الصُحبة والسبق والإقدام، تقطعـت منهم الأشلاء، وتمزقت الأجساد، وترمل النساء، قـدَّموا أرواحهـم فـداء لهـذا الدين، حتى وصل إلينا كاملاً متمّماً، فاقدر لهم قدرهم، واشـكر لهـم سـعيهم، وترض عنهم، فقد أحبهم ربهم، - رضي الله عنهم وأرضاهم -.

٧- العاقبة للمتقين:

للحق جولة، وللباطل صولة، والعاقبة للتقوى، فلا تيـأس مـن إصـلاح المجتمع، ولا تقنط من هدايته، فقد صَبَرَ النبي ﷺ عـلى الأذى والجـراح، حتـى دخل الناس أفواجاً في دين الله، إن عواقـب الأمـور كلهـا بيـد الله، فـامض في الدعوة، وداوم على الدعاء، وهداية البشر بيد خالق البشر.

أبو سفيان في أُحُد يقود المشركين، وشعاره:"اعـلُ هُبـل"، وفي فـتح مكـة

يقول:"لا إله إلا الله".ووحشي يقتل حمزة، ثم يُسلم ويقتل مُدعي النبوة مسيلمة الكذاب.

فاحذر على نفسك التقلب، «فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء». واسأله دوماً دوام الثبات، والعبد وإن استغرق في العصيان، فالتوبة تحط الأوزار وإن بلغت العنان.

خالد بن الوليد يقود خيَّالة الكفر، وقُتِل على يديه فضلاء الصحابة، ولما شرح الله صدره للإسلام، أتى يبايع النبي، وقال: يا رسول الله، إني أشترط أن تُغفَر زلتي، فقال: «يا خالد، أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها».

فأنقذ نفسك من وحل الأوزار، وأقبل على ربك تائباً من الآثام، فالحسنات يذهبن السيئات، ولا تستنكف عن التمسك بهذا الدين، فحوله سالت الدماء.

٨- الابتلاء بذوي القربى:

المرء قد يُبتلى بذوي القربى والأرحام، فاصبر على ما تلاقيه منهم، فأقارب النبي تركوا أوطانهم وأموالهم، وقدموا إلى المدينة وقطعوا مسافة أربعمائة كيلومتر أو أكثر لقتل النبي، وفعلوا ما لم يفعله غالب الكفار، من تمثيلهم بالقتلى، مع أنهم بنو عمه، وفي الفتح عفا عنهم وصفح، وقال: «لا تثريب عليكم اذهبوا فأنتم الطلقاء».

فاتخذ النبي ﷺ قدوة لك في الحلم والعفو، وصل رحمك، وغض الطرف

عما يسوؤك منهم.

٩- ولا تنازعوا:

في الفُرقة والنزاع تبعثَر الجهود، وفي الألفة والاتفاق صفاء القلوب، فلنحذر من تفرق الكلمة والاختلاف في الرأي، فهما الهزيمة، ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ﴾ (الأنفال:٤٦).

١٠- الأنبياء عبيد مخلوقون :

الأنبياء عبيد مخلوقون، يعتريهم ما يعتري البشر، لا يُرفعون فوق منزلة العبودية، ولا يُحَطُّ من شأنهم، والنبي ظاهر بين درعين، ولبس لأْمَة الحرب، وكافح معه الصحابة، وقاتل عنه جبريل وميكائيل أشد القتال، ومع هذا شُجَّ في وجهه، وكُسرت رَباعيته، والأمر لله من قبل ومن بعد، وهو سبحانه وحده النافع الضار، ولو كان يملك لنفسه شيئاً ما سال الدم منه.

١١- العرفان لمن خدم هذا الدين:

ومن مُروآت الأفعال العرفان لمن خدم الدين، ومن جميل الخلال الوفاء للأصحاب، ودماء شهداء أحد بقيت في نفس الرسول إلى السنة التي مات فيها، فصلى على قتلى أُحُد بعد ثمان سنين، كالمودع لهم.

فأجلّ نبلاء هذا الدين، واحفظ ودَّ خِلاَّنك، وارع حق صحبتهم، واحفظ سرهم.

١٢- حُب الصحابة لنبيهم ﷺ:

طوق المشركون رسول الله -ﷺ- ومن معه وكانوا تسعة فقُتل سبعة منهم بعد قتال عنيف. ولم يبق معه غير سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبد الله.

فطمعوا في القضاء على رسول الله -ﷺ- رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله الزهري فشجه في جبهته، وجاء عبد الله بن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر، وضربه بأبي هو وأمي ضربة أخرى عنيفة حتى دخلت حلقتان من حلق المقفر في وجنته، فقال عليه الصلاة و السلام وهو يسلت الدم عن وجهه: «**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

واستبسل سعد وطلحة في الدفاع عن رسول الله -ﷺ- فقد نثل رسول الله -ﷺ- كنانته لسعد بن أبي وقاص وقال: ارم فداك أبي وأمي، وأما طلحة فقد قاتل حتى شلت يده، وكان أبو بكر -رضي الله عنه- إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك اليوم كله لطلحة. وروى الترمذي أن النبي -ﷺ- قال فيه يومئذ: «**من ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله**».

وخلال هذا الموقف العصيب تسارع المسلمون إلى رسول الله -ﷺ- وأقاموا حوله سياجًا من أجسادهم وسلاحهم وبالغوا في الدفاع عنه، قام أبو طلحة على رسول الله -ﷺ- يسور نفسه بين يدي رسول الله -ﷺ- ويرفع

صدره ليقيه عن سهام العدو، وكان راميًا يرمي فكلما رمى أشرف رسول الله -ﷺ- ليرى موضع سهمه، فيقول له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، وقام أبو دجانة أمام رسول الله -ﷺ- فترس عليه ظهره والنبل يقع عليه، وهو لا يتحرك، وامتص مالك بن سنان الدم عن وجنته وأنقاه فقال: مجه. فقال: والله لا أمجه أبدًا، ثم أدبر يقاتل، فقال النبي -ﷺ- : «**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**» فقُتل شهيدًا.

وقاتلت أم عمارة حول رسول الله -ﷺ- فضربها ابن قمئه على عاتقها ضربة تركت جرحًا أجوف، وضربته فنجا بدرعه، وبقيت تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحًا.

وقام النبي ﷺ فعرفه كعب بن مالك فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله -ﷺ- ، فأشار إليه أن اصمت لئلا يعرف المشركون موضعه، فلاذ إليه المسلمون فأخذ بالانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وأثناء القتال كان النعاس يأخذ المسلمين أمنة من الله، وفي أثناء الانسحاب عرضت لرسول الله -ﷺ- صخرة من الجبل فنهض إليها ليعلوها فلم يستطع، فجلس تحته طلحة بين عبيد الله فنهض حتى استوى عليها وقال: «**أوجب طلحة**» أي الجنة.

قال سعد بن أبي وقاص ﷺ: مر رسول الله ﷺبامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺبأحد، فلما نعوا لها قالت: فما

فعل رسول الله ﷺ؟ قال: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل، تريد صغيرة، وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين.

١٣- الأمور بخواتيمها:

إن الأمور بخواتيمها، وقد وقع في غزوة أحد ما يحقق هذه القاعدة المهمة في هذا الدين، فقد وقع حادثان يؤكدان هذا الأمر، وفيهما عظة وعبرة لكل مسلم متعظ ومعتبر.

الأصيرم - رضي الله عنه- :

واسمه عمرو بن ثابت بن وقش، عرض عليه الإسلام فلم يسلم، وروى قصته أبو هريرة - رضي الله عنه- : أن الأصيرم كان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يوم ورسول الله - ﷺ- وأصحابه بأُحد فقال: أين سعد بن معاذ؟ فقيل: بأحد، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأحد: فسأل عن قومه فقيل: بأحد، فبدا له الإسلام فأسلم، وأخذ سيفه، ورمحه، وأخذ لأمته، وركب فرسه فعدا حتى دخل في عرض الناس، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى أثخنته الجراحة، فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذ هم به، فقالوا: والله إن هذا الأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث، فسألوه: ما جاء بك؟ أحدب على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله - تعالى -ورسوله، وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله - ﷺ-، ثم قاتلت حتى

أصابني ما أصابني، وإن مت فأموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله - ﷺ- فقال: «إنه من أهل الجنة». وقيل: مات فدخل الجنة وما صلى من صلاة، فقال النبي - ﷺ-: «عَمِل قليلاً وأُجر» وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط، فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو؟ قال: هو أصيرم بن عبد الأشهل.

مخيريق:

لما كانت غزوة أحد وخرج رسول الله - ﷺ- يقاتل المشركين، جمع مخيريقٌ قومه اليهود وقال لهم: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله - ﷺ- فقاتل معه حتى قُتل، فقال رسول الله - ﷺ -«مخيريق خير يهود».

وقد اختلف في إسلامه، فنقل الذهبي في التجريد وابن حجر في الإصابة عن الواقدي أن مخيريق مات مسلمًا، وذكر السهيلي في الروض الأنف أنه مسلم، وذلك حين قال معقبًا على رواية ابن إسحاق عن رسول الله - ﷺ- أنه قال: «مخيريق خير يهود» قال: ومخيريق مسلم، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النصارى، ولا خير اليهود؛ لأن أفعل من كذا، إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنه قال: خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويهود اسم علم كثمود، يقال: إنهم نسبوا إلى يهوذا بن يعقوب ثم عربت الذال دالا.

وقد حقق هذه المسألة الدكتور عبد الله الشقاوي في كتابه: (اليهود في السنة المطهرة) وذهب إلى أن مخيريق قد أسلم، ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدق بماله مع كثرته، ومع ما عرف عن اليهود من حب المال والتكالب عليه.

١٤- إنما الأعمال بالنيات:

كان ممن قاتل مع المسلمين يوم أحد رجل يدعى قزمان، كان يعرف بالشجاعة، وكان رسول الله – ﷺ- يقول إذا ذكر له: إنه من أهل النار، فتأخر يوم أحد فعيرته نساء بني ظفر، فأتى رسول الله – ﷺ- وهو يسوي الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ويكت كتيت الجمل، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة وأصابته جراحة، فوقع فناداه قتادة بن النعمان: يا أبا الغيداق، هنيئًا لك الشهادة، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر، قال: بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلى على أحساب قومي، فلولا ذلك ما قاتلت، فذكر ذلك لرسول الله – ﷺ- فقال: «**إنه من أهل النار، إن الله – تعالى –يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»

وفي هذا الخبر بيان لمكان النية في الجهاد، وإنه من قاتل حمية عن قومه أو ليقال شجاع ولم تكن أعماله لله – تعالى – لا يقبل الله منه.

١٥- قل هو من عند أنفسكم :

قال تعالى :﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُـلْ هُـوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (ال عمران ١٦٥)

لقد نزلت هذه الآية الكريمة لكي تُشخّص الداء وتقّوم حال الجماعة المسلمة بعد مخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ ونزولهم لأخذ الغنائم ونرك الجبل للمشركين كي يقلبوا النتائج ويحولوا سير المعركة لصالحهم ، وقد كان النصر حليف المسلمين ، كيف لا وقد رأى بعض الصحابة خلاخيل نساء المشركين وهن يهربن من هول المعركة .

عندها قال ابن مسعود ﷺ قولته المشهورة التي ذكرناها آنفاً: ما كنت أظن أن أحد من أصحاب محمد ﷺ يريد الدنيا حتى نزل قول الله عز وجل : ﴿ مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآَخِرَةَ ﴾

- إن المتأمل في هذه الآية يجد الصراحة والوضوح في تحديد الخطأ الذي وقعت فيه الأمة الإسلامية بدون مجاملة أو تعميم " قل هو من عند أنفسكم ".

- إنها الغنائم التي طالما حذر منها الحبيب ﷺ ، إنها الغنائم حينما تقفز على قائمة الأولويات والمهمات في حياة الدعاة والمصلحين فكذلك تنقلب قائمة النتائج والانتصارات .

- واليوم إذا أرادت الأمة الإسلامية وعلى رأسها الدعاة والمصلحون الانتصار والتمكين فلا بد من تحديد الخلل بصراحة ووضوح ثم العمل الجاد على الإصلاح والتغيير لا المراوغة والتبرير.

١٦- من دلائل النبوة:

أصيبت عين قتادة - رضي الله عنه - حتى سقطت على وجنتيه فردها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما، وأصبحت لا ترمد إذا رمدت الأخرى، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - فسأله من أنت؟ فقال له مرتجلا:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد

فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حسنها عينًا ويا حسن ما خد

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند ذلك:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

١٧- تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلو الإيماني:

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧-١٣٩).

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد أن الله سبحانه وتعالى لم يترك المسلمين لوساوس الشيطان في محنة غزوة بدر، بل خاطبهم بهذه الآيات التي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقويهم ويثبتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم ويخفف عنهم آلامهم.

قال القرطبي: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين.

ففي الآيات السابقة دعوة للتأمل في مصير الأمم السابقة التي كذبت

بدعوة الله تعالى، وكيف جرت فيهم سنته على حسب عادته، وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم على أمره. وجاء التعبير بلفظ كيف الدال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التي تدعو إلى التعجب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتعاظ في قلوب المؤمنين؛ لأن هؤلاء المكذبين مكن الله لهم في الأرض ومنحهم الكثير من نعمه، ولكنهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم بسبب طغيانهم .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ دعاهم إلى ترك الضعف، ومحاربة الجبن، والتخلص من الوهن، وعدم الحزن؛ لأنهم هم الأعلون بسبب إيمانهم.

١٨- كيفية معالجة الأخطاء:

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد على عكس ما نزل في بدر من آيات، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر، فقال في غزوة بدر:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٧].

وقال في أحد: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا

وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٢]،وفي هذا حكمة عملية وتربية قرآنية يحسن أن يلتزمها أهل التربية والقائمون على التوجيه.

١٩- ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ.وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

قال ابن كثير: عاتب الله بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمدًا قد قتل، فعذَلهم الله على فرارهم وتركهم القتال.

وضرب الله لهم مثلاً بإخوانهم المجاهدين السابقين، وهم جماعة كثيرة، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا عن الجهاد بعد الذي أصابهم منه، وما استكانوا للعدو، بل ظلوا صابرين ثابتين في جهادهم، وفي هذا تعريض بالمسلمين الذين أصابهم الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، وضرب الله مثلا للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الربانيين وبما قالوه: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا

﴿فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٧)،وهذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى نفوسهم -مع كونهم ربانيين- هضم لها واعتراف منهم بالتقصير ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدم على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم النصر عن زكاة وطهارة وخضوع، وفي هذا تعليم للمسلمين إلى أهمية التضرع، والاستغفار وتحقيق التوبة. وتظهر أهمية ذلك في إنزال النصر على الأعداء ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وبذلك نالوا ثواب الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء والتوجه إلى الله، وإحسانهم في موقف الجهاد، وكانوا بذلك مثلا يضربه الله للمسلمين المجاهدين، وخص الله تعالى ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه على ثواب الدنيا وأنه هو المعتمد عنده .

٢٠- التعلق والارتباط بالدين:

قال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان، ألا إن محمدًا قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدًا، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قُتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل ضعف ووهن وتأخر، عن القتال، ففي ذلك أنزل الله:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ

عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَّضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤)أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

وقد جاء في تفسير الآية السابقة، أن الرسل ليست باقية في أقوامها أبدًا، فكل نفسٍ ذائقة الموت، ومهمة الرسول تبليغ ما أرسل به، وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائما مع قومه، فلا خلود لأحد في هذه الدنيا، ثم قال تعالى منكرًا على من حصل له ضعف لموت النبي ﷺ أو قتله، فقال تعالى: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي رجعتم القهقرى، وقعدتم عن الجهاد، والانقلاب على الأعقاب يعني الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد ومتطلباته: ﴿وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَّضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ الذين لم ينقلبوا أو ظلوا ثابتين على دينهم متبعين رسوله حيًا أو ميتًا.

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب التي حدثت للمسلمين يوم أحد أنهم ربطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته بشخص رسول الله ﷺ ، فهذا الربط بين عقيدة الإيمان بالله ربًا معبودًا وحده وبين بقاء شخص النبي ﷺ خالدًا فيهم خالطه الحب المغلوب بالعاطفة، الربط بين الرسالة الخالدة وبين الرسول ﷺ البشر الذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصحابة -رضي الله عنهم- من الفوضى والدهشة والاستغراب، ومتابعة الرسول ﷺ أساس وجوب التأسي به في الصبر على المكاره، والعمل الدائب على نشر الرسالة، وتبليغ الدعوة ونصرة الحق، وهذا التأسي هو الجانب الأغرّ من

جوانب منهج رسالة الإسلام؛ لأنه الدعامة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لإعلاء كلمة الله ونشرها في آفاق الأرض، وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي ﷺ في هذه الدنيا.

قال ابن القيم رحمه الله: «إن غزوة أحد كانت مقدمة وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ، أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، وهو لا يموت فلو مات محمد أو قتل، لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينهم، وما جاء به فكل نفسٍ ذائقة الموت، وما نُعت محمد ﷺ ليخلد، لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بد منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي، ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان، إن محمدًا قد قتل فقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَّضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(آل عمران: ١٤٤).

والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتد من ارتد على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله، وأعزهم وظفرهم وجعل العاقبة لهم»(١).

---

(١)انظر: زاد المعاد (٣/٢٢٤).

في غزوة أُحد نزل التشريع الإلهي بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة أحد، وعند موت الرسول ﷺ جاء التطبيق حيث (لما توفي رسول الله ﷺأقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على فرس من مسكنه بالسنح، حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشي بثوب حبرة)، فكشف عن وجهه ﷺ ثم أكبَّ عليه فقبله وبكى، ثم قال: «**بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد متها**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر رضي الله عنه فقال أبو بكر رضي الله عنه: أما بعد من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَّضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر رضي الله عنه قال: "والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر رضي الله عنه تلاها فَعَقِرْت حتى ما تقلُّني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات".

---

(١)البخاري، كتاب المغازي، باب مرض رسول الله ووفاته، رقم٤٤٥٤.

٢١- تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أحد:

قال تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (آل عمران: ١٤٠-١٤٣).

بيَّن الله -سبحانه- لهم أن الجروح والقتلى يجب ألا تؤثر في جسدهم واجتهادهم في جهاد العدو؛ وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله من قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى.

قال صاحب الكشاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أُحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى أن لا تضعفوا. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إنه كان يوم أحد بيوم بدر، قتل المؤمنون يوم أحد، اتخذ الله منهم شهداء، وغلب رسول الله ﷺ يوم بدر المشركين فجعل الدولة عليهم. وقد ذكر الله تعالى أربع حكم لما حدث للمؤمنين في غزوة أحد وهي: تحقق علم الله تعالى وإظهاره للمؤمنين، وإكرام بعضهم بالشهادة التي توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات، وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدًا

رويدًا»[١].

٢٢- اللجوء إلى الله:

روى الإمام أحمد قال: لما كان يوم أُحد وانكفأ المشركون قال رسول الله -ﷺ- : «استووا حتى أُثني على ربي عز وجل»، فصاروا خلفه فصفوفًا فقال: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت: اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق».

٢٣- "أحد جبل يحبنا ونحبه":

عن أنس بن مالك ﷺ قال: إن النبي ﷺ طَلَع له أُحدٌ فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه».

---

(١)انظر: تفسير الكشاف (١/٤٦٥).

وهذا يدل على دقة شعور النبي ﷺ حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصن والاحتماء بذلك الجبل، وما أودعه الله تعالى فيه من قابلية لذلك، فعبر عن ذلك بأرقى وشائج الصلة وهي المحبة، أفلا يعتبر هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلا أعلى على التخلق بخلق الوفاء؟. ألا إن الذي يعترف بفضل الحجارة الصماء، ويفضي عليها من الأخلاق السامية ما لا يتصف به إلا أفاضل العقلاء لجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان، وإن كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سما حتى حاز أرقى العبارات وأرقها، فأخلق ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك، فضلا عمن تجمعه بهم الأخوة في الله تعالى .

٢٤- الملائكة في أحـــد:

قال سعد بن أبي وقاص ﷺ: "رأيت عن يمين رسول الله ﷺوعن شماله يوم أحد، رجلين عليهما ثياب يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل، عليهما السلام" [١]. وهذا خاص بالدفاع عن النبي ﷺ؛ لأن الله تكفل بعصمته من الناس، ولم يصح أن الملائكة قاتلت في أُحد سوى هذا القتال، ذلك لأن الله تعالى وعدهم أن يمدهم؛ وجعل وعده معلقًا على ثلاثة أمور: الصبر والتقوى وإتيان الأعداء من فورهم، ولم تتحقق هذه الأمور فلم يحصل الإمداد[٢]، قال تعالى:

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب في قتال جبريل وميكائيل (١٨٠٢/٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٣٩١/٢).

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٤، ١٢٥). .

٢٥- وما النصر إلا من عند الله:

النصر ابتداءً وانتهاءً، بيد الله عز وجل، وليس ملكًا لأحد من الخلق، يهبه الله لمن يشاء ويصرفه عمن يشاء، مثله مثل الرزق، والأجل والعمل:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ١٠).

وحين يقدر الله تعالى النصر، فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يقدر الهزيمة، فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة، قال تعالى:

﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٠).

ولكن هذا النصر له نواميس ثابتة عند الله عز وجل، نحن بحاجة إلى فقهها، فلا بد أن تكون الراية خالصة لله سبحانه عند الذين يمثلون جنده، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧).

ونصر الله في الاستجابة له، والاستقامة على منهجه والجهاد في سبيله.

٢٦- استخراج العبودية في السراء والضراء :

ومن الحكم والـدروس اسـتخراج الله عبوديـة أوليائـه وحزبـه في السـراء والضراء وفيما يحبون وما يكرهون وفي حال ظفرهم وظفر أعـدائهم بهـم فـإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهـون فهـم عبيـده حقـا وليسـوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية .

٢٧- حكمة تبدل الأحوال :

ومن الحكم والدروس أنه سبحانه لو نصرهم دائماً وأظفرهم بعدوهم في كل موطن وجعل لهم التمكـين والقهـر لأعـدائهم أبـدا لطغـت نفوسـهم، وشمخت، وارتفعت؛ فلـو بسـط لهـم النصرـ والظفـر لكـانوا في الحـال التـي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق فلا يصلح عباده إلا السراء والضـراء والشـدة والرخاء والقبض والبسط فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته إنه بهم خبـير بصير .

٢٨- الخضوع لجبروته تعالى :

ومن الحكم والدروس أن الله إذا امتحنهم بالغلبـة والكسرـة والهزيمـة ذلوا وانكسروا وخضعوا فاستوجبوا منه العز والنصرـ فـإن خلعـة النصرـ إنـما تكون مع ولاية الذل والانكسار قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (آل عمران ١٢٣)، وقال:

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾ (التوبة ٢٥) ،فهو –

سبحانه – إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولاً ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره .

٢٩- رفع منازلهم :

الله سبحانه وتعالى هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها(١).

٣٠- تحريضهم على الجد في العبودية للّه:

ومن الحكم والدروس أنَّ النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه فيكون ذلك البلاء والمحنة .

٣١- تربية الأبناء على حب الجهاد:

ذكر الواقدي في المغازي في سياق رواية له " وعرض عليه غلمان عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد والنعمان بن بشير وزيد بن أرقم والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس ، وأبو سعيد الخدري ،

(١)زاد المعاد لابن القيم.

وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، فردهم . قال رافع بن خديج ، فقال ظهير بن رافع يا رسول الله إنه رام وجعلت أتطاول وعلي خفان لي . فأجازني رسول الله ﷺ. فلما أجازني قال سمرة بن جندب لربيبه مري بن سنان الحارثي ، وهو زوج أمه يا أبت أجاز رسول الله رافع بن خديج وردني ، وأنا أصرع رافع بن خديج . فقال مري بن سنان الحارثي : يا رسول الله رددت ابني وأجزت رافع بن خديج وابني يصرعه . فقال رسول الله ﷺ :«**تصارعا**» فصرع سمرة رافعا فأجازه رسول الله ﷺ – وكانت أمه امرأة من بني أسد .

وقال ابن هشام : وأجاز رسول الله ﷺ يومئذ سمرة بن جندب الفزاري ورافع بن خديج ، أخا بني حارثة وهما ابنا خمس عشرة سنة وكان قد ردهما ، فقيل له يا رسول الله إن رافعا رام ، فأجازه فلما أجاز رافعا ، قيل له يا رسول الله فإن سمرة يصرع رافعا ، فأجازه ورد رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت ، أحد بني مالك بن النجار والبراء بن عازب ، أحد بني حارثة ، وعمرو بن حزم ، أحد بني مالك بن النجار وأسيد بن ظهير ، أحد بني حارثة ثم أجازهم يوم الخندق ، وهم أبناء خمس عشرة سنة . في هذا الخبر دليل كافٍ على حب الصحابة للجهاد وارتفاع مستواهم التربوي، حيث حببوا الجهاد لأبنائهم فأصبح غلمانهم يتسابقون في ميادين الجهاد.

٣٢- الحذر من اليهود:

قال ابن هشام : وذكر غير زياد عن محمد بن إسحاق عن الزهري : أن

الأنصار يوم أحد ، قالوا لرسول الله ﷺ يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود ؟ فقال:« لا حاجة لنا فيهم».

وفي هذا الموقف الحذر من النبي ﷺ من اليهود يدلنا على بعد نظره فهو يعلم من عداوة اليهود للمسلمين ما لا يعلمه الأنصار الذين يظنون أن حلف اليهود لهم وهم في الجاهلية قد بقي على ما هو عليه بعد إسلامهم لكن الحال أن اليهود أشد عداوة من المشركين .ولكنهم يبطنون العداوة .

٣٣- الجهاد يلزم بالشروع فيه ويتعين إذا طرق العدو ديار المسلمين :

يقول ابن القيم في الزاد:" أن الجهاد يلزم بالشروع فيه حتى إن من لبس لامته وشرع في أسبابه وتأهب للخروج ليس له أن يرجع عن الخروج حتى يقاتل عدوه كما فعل النبي ﷺ ذلك وكذلك لا يجب على المسلمين إذا طرقهم عدوهم في ديارهم الخروج إليه بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم ويقاتلوهم فيها إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم كما أشار به رسول الله ﷺ عليهم يوم أحد.

٣٤- يُدفن الشهداء في مصارعهم :

ومن الدروس أن السنة في الشهداء أن يُدفنوا في مصارعهم ولا ينقلوا إلى مكان آخر فإن قوماً من الصحابة نقلوا قتلاهم إلى المدينة فنادى منادي رسول الله ﷺ بالأمر برد القتلى إلى مصارعهم قال جابر: بينا أنا في النظارة إذ جاءت

عمتي بأبي وخالي عادلتهما على ناضح فدخلت بهما المدينة لندفنهما في مقابرنا وجاء رجل ينادي : "ألا إن رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت . قال فرجعنا بهما فدفناهما في القتلى حيث قتلا فبينا أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ جاءني رجل فقال: يا جابر والله لقد أثار أباك عمال معاوية فبدا فخرج طائفة منه قال فأتيته فوجدته على النحو الذي تركته لم يتغير منه شيء . قال فواريته فصارت سنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم[1].

٣٥- يجوز دفن الثلاثة في القبر الواحد :

ومن الدروس جواز دفن الرجلين أو الثلاثة في القبر الواحد فإن رسول الله ﷺكان يدفن الرجلين والثلاثة في القبر ويقول أيهم أكثر أخذا للقرآن فإذا أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة فقال ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد.

٣٦- كرامات ومعجزات في أحد:

رد عين قتادة بن النعمان:

روى أبو يعلى وأبو نعيم من طريق عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه عن جده: أنه أصيبت عينه يوم أحد فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا قطعها،

---

(١)زاد المعاد، باب ما جاء في الحكم والدروس من أحد.

فسألوا رسول الله ﷺ ، فقال: « لا »، فدعا به فغمز عينه براحته، فكان لا يدري أي عينيه أصيبت، وله طرق تأتي في المعجزات.

ومنها إخباره عن رجل قاتل الكفار قتالا شديداً إنه من أهل النار قتل نفسه.

وتقدم بيان ذلك.

انقلاب العسيب سيفاً:

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن سعيد بن عبد الرحمن الجحشي ـ: أخبرنا أشياخنا أن عبد الله بن جحش جاء إلى النبي ﷺ، يوم أُحد، وقد ذهب سيفه فأعطاه النبي ﷺ عسيباً من نخل، فرجع في يد عبد الله سيفا.

قال الزبير بن بكار في " الموفقيات ": إن قائمة منه، وكان يسمى العرجون، ولم يزل يتناقل حتى بيع من بغاء التركي بمائتي دينار.

عدم استطاعة هند أكل شيء من كبد حمزة:

قال ابن سعد: أخبرنا هوذة بن خليفة، حدثنا عوف بن محمد قال: بلغني أن هنداً بنت عتبة بن ربيعة جاءت يوم أحد، وكانت نذرت لئن قدرت على حمزة لتأكلن من كبده، فجاءوا بجزة من كبد حمزة أخذتها تمضغها لتأكلها، فلم تستطع أن تبتلعها فلفظتها فبلغ ذلك رسول الله ﷺ: فقال: «إن الله تعالى حرم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئاً أبدا».

ومنها: أن رجلا قال: اللهم إن كان محمد على الحق فاخسف به، يعني نفسه، فخسف به، كما رواه البزار بسند حسن، عن بريدة.

ومنها: وجدان أنس بن النضر وسعد بن الربيع رائحة الجنـة، كـما تقـدم في القصة.

ومنها: تغسيل الملائكة لحمزة وحنظلة، كما تقدم.

ومنها: تظليل الملائكة لعبد الله والد جابر، كما رواه الشيخان.

٣٧- قول فداك أبي وأمي لسعد منه ﷺ:

قال علي رضي الله عنه: « ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد: فداك أبي وأمـي إلا لسعد يوم أحد ».

رواه البخاري وغيره، وروى أيضا عنه: « ما جمع رسـول الله ﷺبـين أبويـه لأحد إلا لسعد »[١].

قال في الروض: والرواية الأولى أصح، والله أعلم، لأنه أخبر أنه لم يسـمع، وقد قال الزبير بن العوام: إنه ﷺ جمع له أيضا أبويه، كما رواه الزبير بن بكـار في كتاب النسب.

قال السهيلي: وفقه هذا الحديث أن هذا الكلام جـائز لمـن كـان أبـواه غـير مؤمنين، وأما إذا كانا مؤمنين فلا، لأنه كالعقوق لهـما، كـذلك سـمعت شـيخنا أبا بكر بن العربي يقول في هذه المسألة.

قلت: قال الإمام النووي في كتابـه " حليـة الأبـرار ": المـذهب الصـحيح المختار أنه لا يكره قول الإنسان لغيره: فداك أبي وأمي، أو جعلني الله فداك.

وقـد تظـاهرت عـلى جـواز ذلـك الأحاديـث المشـهورة في الصـحيحين

---

(١)أخرجه البخاري في كتاب الأدب (٦١٨٤) (٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي (٤٠٥٩).

وغيرهما، وسواء كان الأبوان مسلمين أو كافرين، وكره ذلك بعض العلماء إذا كان مسلمين.

قال النحاس: وكره مالك بن أنس: « جعلني الله فداك »، وأجازه بعضهم.

قال القاضي عياض رحمه الله: ذهب جمهور العلماء إلى جواز ذلك، سواء كان المفدى به مسلما أو كافرا.

قال النووي: قد جاء من الأحاديث الصحيحة في جواز ذلك ما لا يحصى[1].

٣٨- جواز التداوي:

في مداواته ﷺ جرحه إشارة إلى جواز التداوي، وأن الأنبياء ﷺ قد يصابون ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام والأسقام، ليعظم لهم بذلك الأجر، وتزداد درجاتهم، وليتأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره، والعاقبة للمتقين.

٣٩- سنة اللّه في رسله:

إنّ من عادة الرسل أنهم يبتلون وتكون العاقبة لهم، تكون الحرب بينهم وبين أعدائهم سجالاً، ولا ينتصرون مرة واحدة، لأنهم لو انتصروا مرة واحدة لدخل في الدين من لم يكن من أهله، وما عرف المؤمن من المنافق، يقول تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ

---

(١) أنظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي الشامي ،طبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .

مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (العنكبوت:٢-٣)، فميز الله بهذا بين المؤمن والمنافق، فلو كانت المسألة مسألة نصر وعافية ونعمة لدخل في الدين من ليس من أهل الدين، ولكنه ﷺ ابتلي مرة وانتصر مرة، ولو هزم الرسول ﷺ دائماً لما تمت الرسالة الخالدة، ولما أخرج الله الناس من الظلمات إلى النور، ولما تم المقصود من الرسالة، ولو انتصر دائماً لدخل في الدين غير أهل الدين، ولكن غُلب مرة؛ وانتصر مرة، ليميز الله الخبيث من الطيب، والعاقبة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين والمتقين، وانتصر الإسلام، وارتفعت مآذن الإسلام في كل مكان، وبقي صوت الحق مدوياً ودمغ الباطل وزهق إنه كان زهوقاً.

٤٠- في تأخير النصر عبرة:

إن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس وكسراً لشموخها وجماحها، لأن النفس إذا أنعم عليها جمحت وشمخت إلا من رحم الله، فلو أن الرسول ﷺ انتصر في كل معركة، وانتصر في كل موقف هو وأصحابه لدخل بعض الصحابة شيء من العجب والتيه، وشيء من الزهو، لكن أراد الله أن يربيهم بالمعارك، مرة نصر ومرة هزيمة، وفي الخاتمة نصر لا هزيمة بعده للإسلام، لذلك لما أتت في معركة حنين قال بعض الصحابة: لن نغلب اليوم من قلة، فانهزموا في أول المعركة ثم انتصروا بعد أن تلقوا تأديباً، وأنت إذا بقي جسمك معافى بلا أمراض ولا ابتلاءات دخلك من العجب ما الله به عليم، والله عز وجل يعرف النفوس فيداويها.

لعل عتبك محمودٌ عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

ربما يكون في صحة جسمك المرض، وفي صحة قلبك الفقر والابتلاء، فالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم.

٤١- جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن في الجهاد :

ومن دروس هذه الغزوة جواز الغزو للنساء؛ فقد كانت غزوة أحد أول معركة في الإسلام تشارك فيها نساء المسلمين، وكان لهذا أثر بالغ في سقي المحاربين وتضميد الجرحى، وقد ظهرت بطولات النساء وصدق إيمانهن في هذه المعركة، فقد خرجن لكي يسقين العطشى ويداوين الجرحى، ومنهن من قامت برد ضربات المشركين الموجهة للرسول ﷺ فإن النساء شاركن في معركة أحد ، وأفضل من شارك في المعركة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء فقد شاركت فاطمة وأتت إلى أبيها ﷺ فأعطته ماء، وغسلت الجراح عنه، وأحرقت بعض السعف ثم حشته في الجراح.

وحضرت نسيبة الأنصارية وقاتلت حتى يقول عليه الصلاة والسلام: « ما التفت في جهة إلا وجدتها تقاتل عني »، فرضي الله عنها ، وممن شاركن في غزوة أحد أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، وأم عمارة، وحمنة بنت جحش الأسدية، وأم سليط، وأم سُليم، ونسوة من الأنصار[1].

وكانت النساء يوم أحد يزفرن القرب، ويملأنها للمقاتلين؛ ولذلك حين أتي إلى عمر رضي الله عنه في خلافته بشيء من الذهب والفضة فأعطى أم سليط وترك نساءه، فقلن له رضي الله عنه : تعطي أم سليط وتتركنا؟ قال: إن أم سليط لا أنسى

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب غزو النساء، رقم ١٧٧٩.

موقفها يوم أحد ، كانت تملأ القرب للمسلين، فانظر كيف قدمها ﷺ بهذا وترك نساءه، فرحم الله تلك العظام، وأسكنها فسيح الجنان.

٤٢- جواز الاستماتة:

قال أهل العلم ومنهم ابن القيم بجواز الاستماتة ، أي: الإقدام على الهلاك والاقتحام في القتل، كما فعل أنس بن النضر ، فإنه ألقى درعه وكسر غمد سيفه، واقتحم حتى لقي العدو حاسراً وفي بعض الآثار: « إن ربك سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يضحك للعبد يلقى العدو حاسراً » أي: لا درع عليه حتى يقاتل ويقتل، وليس ذلك من الهلكة.

ولذلك لما حضر أبو أيوب الأنصاري ﷺ بمعركة جهة القسطنطينية في بلاد الروم فألقى أحد المجاهدين بنفسه واستمات في المعركة، فقال بعض الناس المتأخرين في الإسلام: أما يقول الله عز وجل:

﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾(البقرة:١٩٥)، قال: لا.

إن التهلكة هي أن يمسك المال أو ألا يقاتل في سبيل الله.

وطلب أبو أيوب ﷺ من الصحابة أن يدفنوه في آخر بقعة من بقاع المسلمين وأول بقعة من بقاع الكفار، قال: حتى أبعث يوم القيامة من قبري وأنا مسلم بين كفار.

٤٣- صلاة الإمام إذا أصابته جراحة:

إن الإمام إذا أصابته جراحة صلى قاعداً وصلى الناس وراءه قعوداً،

وهذه الفائدة أخذها ابن القيم ؛ لأن الرسول ﷺ صح عنه أنه في أحد صلى الفريضة إما الظهر وإما العصر قاعداً من كثرة الجراح، وصلى الناس وراءه قعوداً، فإذا كان الإمام الراتب إمام الحي العالم يصلي قاعداً لعذر، فللناس أن يصلوا وراءه قعوداً، وفرَّق بعض أهل العلم فقالوا: إن ابتدأ قاعداً فيبتدئون معه قعوداً، وإن طرأ عليه القعود في أثناء الصلاة فيواصلون قياماً وبسط هذه المسألة في مجال آخر.

٤٤- قاتل نفسه في النار:

إنَّ المسلم إذا قتل مسلماً أو قتل نفسه فهو من أهل النار، إذا قتل المسلم نفسه فهو من أهل النار؛ لأن رجلاً اسمه قزمان حضر معركة أحد ، وقاتل فلما أصابته جراحة، لم يصبر ولم يحتسب، فأخذ سيفه وسله واتكأ عليه حتى خرج سيفه من ظهره، فأوحى الله عز وجل إلى رسوله أحاديث: « بادرني عبدي بنفسه حرّمت عليه الجنة »، فحرامٌ على المسلم أن يقتل نفسه مهما أصابته الابتلاءات.

٤٥- الشهيد لا يُغسل والجنب يُغسل:

إنَّ السنة ألا يغسَّل ولا يصلى على شهيد المعركة، أما التغسيل فمعروف، وأما الصلاة عليه فإنه ورد في آثار عند الطحاوي و النسائي أن الرسول ﷺ صلى على بعض الشهداء، وورد في حديث صحيح أنه ترك الصلاة على بعضهم، قال ابن القيم في تهذيب السنن : الإمام مخير إن شاء صلى وإن

شاء ترك، وفي صحيح البخاري أن الرسول ﷺ وقف على شهداء أُحد يُصلي عليهم كالمودع لهم، قيل: هذا الدعاء، وإلا فإنه لم يصل عليهم في الحال، فالإمام مخير في شهداء المعركة؛ أن يصلي أو يترك، وأكثر أحواله ﷺ أنه ما صلى على شهداء المعركة، لأن الصلاة تزكية والله قد زكاهم.

والشهيد إذا كان جُنباً غسل قاله ابن القيم ، لأن حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه كان مع زوجته فلما سمع داعي الله خرج جنباً وباع نفسه، فقتل في المعركة، فقال عليه الصلاة والسلام: « سلوا أهله ماله؟ قالوا: خرج جنباً ولم يغتسل، قال: والذي نفسي بيده، لقد رأيت الملائكة تغسله بين السماء والأرض في صحاف من ذهب بماء المزن »، فاستدل بذلك بعض أهل العلم على أن الجنب إذا عُلم أنه مات جنباً وهو من الشهداء أنه يغسل وقد رجح ذلك ابن القيم.

٤٦- النُّعاس في الخوف والحرب نعمة جليلة:

إنَّ النعاس في الخوف والحرب نعمة، وفي الصلاة ومجالس الذكر غفلة، ففي معركة أحد لما أراد الله أن يمن على الرسول ﷺ وعلى الصحابة، أصابهم نعاس حتى سقط سيف أبي طلحة من يده كما قال أنس قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾(الأنفال:١١) أي: سكينة وهدوءاً، وراحة لقلوبكم، فهو في الخوف والحرب أمنةٌ وهدوءٌ من الله، ولكنه في الصلاة وفي مجالس الذكر من الشيطان.

ومن تمام ثبات قلب المؤمن أن ينعس في المعركة، ومشاهير الشجعان في الإسلام كانوا ينعسون وسط المعركة علامة على قوة قلوبهم، وقد ذكر ابن كثير

عن شبيب بن يزيد الخارجي البطل الكبير وهو من قوادهم ما سمع بأشجع منه بعد الصحابة، يقول ابن كثير في البداية والنهاية : كان في ستين رجلاً يلقى ثلاثة آلاف فيهزمهم، وكان ينعس قبيل المعركة على بغلته، وهذا من شجاعة قلبه ومن حماسته ينعس والصفوف أمامه، حتى إن زوجته واسمها غزالة ، دخلت الكوفة ، فأرهبت الكوفة كلها، و الحجاج كان أمير الكوفة في عهدها، فلما دخلت من باب الكوفة الشرقي خرج هو من الغربي، فدخلت بعمود في يديها تضرب باب الإمارة وتقول للحجاج : اخرج يا عدو الله، ثم ارتقت المنبر منبر الجامع، فخطبت خطبة، فيقول أحد المسلمين للحجاج : يا ذليل تقتل علماء المسلمين وتقتل ضعفاء المسلمين، ولما أتت غزالة الخارجية هربت منها.

أسدٌ علي وفي الحروب نعامة   فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى   أم كان قلبك في جناحي طائر

٤٧- متابعة حركة العدو وكتمان الأخبار:

كان العباس بن عبد المطلب ﵁ يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة وجد في السير، حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة، التي تبلغ مساحتها خمسمائة كيلومتر، في ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء[١].

---

(١) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري، ص٢٥٠.

كان النبي ﷺ يتابع أخبار قريش بدقة بواسطة عمه العباس، قال ابن عبد البر: "وكان ﷺ يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ ، وكان المسلمون يتقوون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله فكتب إليه رسول الله ﷺ : أن مقامك في مكة خير"[(١)].

كانت المعلومات التي قدمها العباس لرسول الله ﷺ دقيقة فقد جاء في رسالته: "أن قريشًا قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعًا إذا حلوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة ذراع وثلاثة آلاف بعير، وأوعبوا[(٢)] من السلاح" [(٣)].

لم يكتف النبي ﷺ بمعلومات المخابرات المكية، بل حرص على أن تكون معلوماته عن هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفي هذا إرشاد لقادة المسلمين بأهمية متابعة الأخبار التي يتولد عنها وضع خطط واستراتيجيات نافعة، ولذلك أرسل ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح إلى قريش يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَده وعُدَده ورجع، فسأله رسول الله ﷺ : «ما رأيت؟» قال: رأيت أي رسول الله عددًا، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعًا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع، قال: «هل رأيت ظعنًا؟» قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار[(٤)]...

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/٨١٢).

(٢) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السلاح.

(٣)انظر: مغازي الواقدي (١/٢٠٤).

(٤) الأكبار: جمع كبر: والكبر هو: الطبل الذي له وجه واحد وهو فارسي معرب.

فقال رسول الله ﷺ: «أردن أن يحرضـن القـوم ويـذكرونهم قـتلى بـدر، هكـذا جاءني خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفًا، حسبنا الله ونعم الوكيـل، اللهـم بـك أجول وبك أصول»[1].

كما أرسل ﷺ أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة يتنصتان أخبار قـريش، فألفياهـا قـد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطـة بهـا، وعـادا فأخبراه بخبر القوم(٢).

وبعد أن تأكد من المعلومات حرص ﷺ عـلى حصر ـ تلـك المعلومـات عـلى المستوى القيادي، خوفًا من أن يؤثر هذا الخـبر عـلى معنويـات المسـلمين قبـل إعداد العدة، ولذلك حين قرأ أبي بـن كعـب رسـالة العبـاس أمـره ﷺ بكـتمان الأمر، وعاد مسرعًا إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهـاجرين والأنصـار في كيفية مواجهة الموقف، وكان ﷺ قد أطلع سيد الأنصار سـعد بـن الربيـع عـلى خبر رسالة العباس فقال: والله إني لأرجو أن يكون خيرًا، فاستكتمه إيـاه، فلـما خرج رسول الله ﷺ من عند سعد، قالت له امرأتـه: مـا قـال لـك رسـول الله؟ فقال لها: لا أم لك، أنت وذاك، فقالت: قد سمعت ما قـال لـك، فأخبرتـه بـما أسر به الرسول ﷺ فاسترجع سعد، وقال: يـا رسـول الله، إني خفـت أن يفشـو الخبر فترى أني أنا المفشي له وقد استكتمتني إيـاه، فقـال رسـول الله ﷺ: «خـلِّ عنها»[٣].

(١) انظر: مغازي الواقدي (١/٢٠٧، ٢٠٨). (٥)

(٢)انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/١٨٧).

(٣) انظر: السيرة الحلبية (٢/٤٨٩). (2)

وفي هذه الحادثة درس بالغ للعسكريين وتحذيرهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم العسكرية، وخططهم وأوامرهم، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار لأن إفشاءها يهدد الأمة ومستقبلها بكارثة كبرى.

إن تاريخ الأمم والشعوب في القديم والحديث يحدثنا أن كثيرًا من الهزائم والمآسي والآلام قد حلت بكثير من الأمم نتيجة لتسرب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجة خائنة، أو خائن في ثوب صديق، أو قريب في الظاهر عدو في الحقيقة والواقع[1].

٤٨- دروس في الصبر تقدمها الصحابيات للأمة:

أ- صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها:

لما استُشهد أخوها حمزة بن عبد المطلب ﷺ في أحد وجاءت لتنظر إليه وقد مثل به المشركون؛ فجدعوا أنفه وبقروا بطنه، وقطعوا أذنيه ومذاكيره، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «القها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أمه إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم؟ وقد بلغني أنه قد مُثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فلما جاء الزبير بن العوام ﷺ إلى رسول الله فأخبره بذلك، قال: «خلِّ

(١)انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص٢٢.

سبيلها» فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت[١]، واستغفرت له[٢].

ب- حمنة بنت جحش رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه -رضي الله عنهم- ركب فرسه وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش، فقال لها رسول الله ﷺ: يا حمنة: «احتسبي» قالت: من يا رسول الله؟ قال: «أخوك عبد الله بن جحش» قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئًا له الشهادة، ثم قال لها: «احتسبي» قالت: من يا رسول الله؟ قال: «خالك حمزة بن عبد المطلب» قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئا له الشهادة، ثم قال لها: «احتسبي» قالت: من يا رسول الله؟ قال: «زوجك مصعب بن عمير»، قالت: واحزناه، وصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبمكان» لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها، وصياحها على زوجها ثم قال لها: «ولم قلت هذا؟» قالت: يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعني، فدعا لها رسول الله ﷺ، ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخلف[٣]. فتزوجت طلحة بن عبيد الله فولدت منه محمدًا وعمران وكان محمد بن طلحة أوصل الناس لولدها[٤].

ج- المرأة الدينارية رضي الله عنها:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد

---

(١) استرجعت، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٨).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/٤٧)، غزوة أحد دراسة دعوية، ص٢٣٦.
(٤) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص١٠٩.

أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قال: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[1]، تريد صغيرة، وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين.

د- أم سعد بن معاذ وهي كبشة بنت عبيد الخزرجية رضي الله عنها:

خرجت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ واقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أمي، فقال رسول الله: «**مرحبًا بها**» فدنت حتى تأملت رسول الله فقالت: أما إذا رأيتك سالمًا، فقد أشوت[2] المصيبة، فعزاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال: «**يا أم سعد، أبشري وبشري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعًا، وهم اثنا عشر رجلاً، وقد شفعوا في أهليهم**» قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادع يا رسول الله لمن خُلفوا. فقال رسول الله ﷺ : «**اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خُلفوا**»[3].

٤٩- أهمية الشورى:

بعد أن جمع ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش كفار قريش جمع أصحابه رضي الله عنهم وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/٤٨).
(٢) أشوت: صارت صغيرة خفيفة.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (١/٣١٥، ٣١٦).

المشركين، وكان رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة، وقال: «إنا في جنة حصينة»[1] فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول[2] مع رأي رسول الله ﷺ إلا أن رجالاً من المسلمين ممن كان فاته بدر قالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا.

من الواضح أن الرسول ﷺ عوَّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويدًا لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحدًا؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام، فلابد أن يطبق الرسول ﷺ التوجيه القرآني: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران: ١٥٩)، لتعتاد على ممارسة الشورى وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة رضوان الله عليهم، فرغم أن لهم إبداء الرأي، فإنه ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا

---

(١) انظر: تاريخ الطبري، (٢/٦٠).

(٢) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص٨٢.

فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علمهم درسًا آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع[1].

٥٠- تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة :

عند خروجه ﷺ إلى الغزوة قال لأصحابه: «من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟» فأبدى أبو خيثمة رضي الله عنه استعداده قائلا: أنا يا رسول الله، فنفذ به في حرة بني حارثة وبين أموالهم، حتى سلك به في مال لربعي بن قيظي، وفي رواية ابن هشام: لمربع بن قيظي وكان رجلاً منافقًا ضرير البصر، فلما أحس برسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، قام يحثو في وجوههم التراب، وهو يقول: إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطي، وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب بيده، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد، لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال لهم: «لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر»، وقد بدر إليه سعد بن زيد أخو بني الأشهل[2] قبل نهي رسول الله عنه، فضربه بالقوس في رأسه فشجه[3].

ولا شك في أن مروره ﷺ بين الأشجار والبساتين يدلنا على حرصه ﷺ على الأخذ بالاحتياطات الأمنية المناسبة في أثناء السير؛ لأن الطرق العامة تكشف

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٣٨٠).

(٢) بنو الأشهل: حي من الأنصار.

(٣)انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٧٣).

للأعداء على مقدار قوات المسلمين، وهذا أمر محذور، فالرسول ﷺ علم الأمة الأخذ بالسرية من حيث المكان، ومن حيث الزمان، لئلا يستطيع الأعداء معرفة قواتهم فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم لجيوشهم في مهب الرياح.

وفي هذا الخبر تطبيق عملي لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إذا تعارضت المصلحتان فالرسول ﷺ حينما مر بالجيش في أرض المنافق مربع بن قيظي، وترتب على ذلك إفساد المزرعة، لكن فيه مصلحة للجيش باختصار الطريق لهم إلى أحد، فبين ﷺ أن ما يكون به مصلحة للدين مقدم على ما سواه من المصالح الأخرى، فهنا تعارضت مصلحتان مصلحة عامة ومصلحة خاصة، ومصلحة الدين في هذا الموقف مصلحة عامة وهي مقدمة على المصلحة الخاصة، وهي مصلحة المال[1]. وقد رتب الشارع الحكيم مقاصد الشرع في تحقيق المنافع لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم طبق ترتيب معين فيما بينها[2]، فإذا نظرنا إلى كليات الدين الخمس وأهميتها وجدنا أن هذه الكليات متدرجة حسب الأهمية: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، فما يكون به حفظ الدين مقدم على ما يكون به حفظ النفس عند تعارضهما، وما يكون به حفظ النفس مقدم على ما به يكون حفظ العقل، وما به يكون حفظ النسل مقدم على ما به حفظ المال، والترتيب بهذا

(١) انظر: غزوة أحد، دراسة دعوية، ص١٦٨.
(٢) انظر: ضوابط المصلحة، محمد رمضان البوطي، ص٢٣.

الشكل من هذه الكليات يحظى باتفاق العلماء[١].

٥١- سُنّة الابتلاء:

من العبر والدروس في غزوة أحد ذلك الدرس الـذي تجـده ظـاهرًا في جميع فصول هذه الغزوة وأحـداثها، ألا وهـو الابـتلاء، فـإن ابـتلاء الله تعـالى للمؤمنين سنة ماضية وراسخة، فيه من الفوائد والحكم مـا لا يحصـل بالعافيـة والأمن، فعلى رغم أن البلاء في هذه الغزوة كان مريرًا قاسيًا، إلا أن الله عاتـب بعض من استنكر ذلك فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٢)، فمن ظن أن الجنة تحصل له بأبخس الأثمان وأضعف الأعمال فقد أخطأ الحسـاب؛ إذ لا بـد للجنـة مـن مهر يقدمه العبد في هذه الدنيا، به يتميز الأوليـاء مـن الأدعيـاء، فـالبلاء يميـز الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق، والبلاء يكشف عن معـادن الرجـال، كما قال الأول:

جــزى الله الشــدائد كــل خــير ... عرفت بها عدوي من صـديقي

فإن الله لما ابتلى المسلمين بهذه النازلة أبدى المنافقون رؤوسهم، وتكلموا بـما كانوا يكتمون، وظهرت مخبأتهم، وعاد تلـويحهم تصريحًا، وانقسـم النـاس في هذه الغزوة إلى كافر ومؤمن ومنافق، وعرف المؤمنون أن لهم عدوًا في أنفسهم، فماز الله بذلك الخبيث من الطيب، قال الله تعالى: ﴿ مَـا كَـانَ اللَّهُ لِيَـذَرَ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران:١٧٩).

---

(١) انظر: المقاصد العامة للشريعة، يوسف حامد العالم، ص١٦٦.

فعرف المؤمنون في هذه الغزوة ضعفهم، وبها عرفوا أعداءهم، وهذبهم بها، ومحص قلوبهم، وجعلها سببًا لبلوغ منازل ودرجات قضى في سابق حكمه أنها لهم، قصرت عنها أعمالهم فاتخذ منهم شهداء كتب لهم أعلى المنازل ورفعهم أعلى الدرجات.

كما أن الله سبحانه وتعالى هيأ بما حدث في هذه الغزوة من البغي والعدوان على أولياء الله تعالى وأحبابه وأصفيائه، هيأ بذلك أسباب محق أعدائه؛ فإن الله إذا أراد أن يهلك أعداءه قيض لهم الأسباب التي يستحقون بها الهلاك والمحق، ومن أعظم هذه الأسباب بعد الكفر بالله بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه، وتفننهم في محاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «من آذى لي وليًا فقد آذنته بالحرب». فإذا عتا أعداء الله على أوليائه وحزبه فإن ذلك من أمارات وعلامات قرب محق الله لهم، قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾(آل عمران: ١٤٠، ١٤١).

وما تشهده الأمة اليوم من تسلط الكفار وأشياعهم على حزب الله وأوليائه ما هو إلا إحدى علامات قرب محق الله لهؤلاء المعتدين. فالحمد لله الحكيم العليم الخبير.

وعلى ورثة الأنبياء من أهل العلم والدعوة وأهل الخير والصحوة أن يتقوا الله ويصبروا؛ فإن أجل الله قريب، وعليهم أن لا يضجروا إذا أصابهم أذى أو

نزل بهم مكروه؛ فإن الله قد قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(المجادلة:٢١)، وقد صدق القائل:

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

والابتلاء مهما طالت مدته وامتد وقته واشتدت كربته وتوالت أحداثه وكثرت ضحاياه فإن عاقبته أن يرتفع وينكشف فإنه

مهما دجى الليل فالتاريخ أخبرنا أن النهار بأحشاء الدجى يثب

وينبغي لأولياء الله أن لا يهنوا ولا يذلوا لما نزل بهم من كرب أو حل بهم من ضيم؛ فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، لا يرفعها انكسار عسكري ولا يزيلها ضعفه، بل الأمر كما قال الله تعالى لأوليائه بعد انقضاء هذه المعركة: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٩)، فإن ما أصابهم إنما هو في ذات الله تعالى، فعليهم أن يتجلدوا لأعدائهم والشامتين بهم، كما قيل:

وتجلُّدي للشامتين أُريهمُ أني لريب الدهر لا أتضعضع

وعلى أولياء الله أن يعلموا أنه إذا كان البلاء يصيب الرسل ومن معهم مع صحة إيمانهم وصدق بذلهم وعظيم جاههم عند الله تعالى فإصابته لمن دونهم أولى وأحرى.

والى هنا أكتفي وأسأل الله عز وجل بمنه وكرمه أن ينفعنا بما نقول ونسمع ونكتب وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

غزوة الأحزاب دروس وعبر

الحمد لله قاصم الجبابرة قهراً ،كاسر الأكاسرة كسراً ،واعـد مـن نصرـه من لدنه نصراً، خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهرا شهدت جميع الكائنـات بربوبيته وهي على وحدانيته آيةٌ كبرى .فسبحانه من الـه سـميع لا يعـزب عـم سمعه دبيب النملة الصغرى ولا يخفى على بصره جريان الغذاء في دقيق عروق البعوض إذا يُجرى .

احمده سبحانه على نعم لم تزل تترى واشكره على مـنن ترجـع الألسـن عـن عدها حسرى واشهد أنَّ لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يحـط بهـا عـن شاهدها وزرا وتكون له عند الله ذخرا .

واشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله الذي اعز به بعد الذلـة وأغنـى بـه بعـد العَيلة وجمع به بعد الفرقة وكثّر به بعد القلة إحسانا منه تعالى وبرا اللهـم صـل وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى اله وأصحابه الذين رفـع الله لهـم ذكـرا وأعلى لهم قدرا.

وبعد ..

ها نحن نستمر وإيـاك أخـي القـارئ ضـمن هـذه الموسـوعة المباركـة "**غزوات النبي المصطفى دروسٌ وعبر**"،وها نحـن نحـط رحالنـا مـع المحطـة الثالثة من هذه الموسوعة "**غزوة الأحزاب دروسٌ وعبر**"وأقول وبـالله التوفيـق والسداد..

كلما رأينا استمرارا الكيد للإسلام والمسلمين، وتجمع قوى الكفر بشتى الملل والنحل فالكفر كله ملةٌ واحده ،كلما رأينا ذلك نذكر غزوة الأحزاب يوم جمع الكفار وحشدوا أكبر قوة ممكنة، فتحالف اليهود مع قريش وأحابيشهم، وبني كنانة ومن تبعهم من أهل تهامة، وقبائل غطفان ومن تبعهم من أهل نجد؛ للقضاء على الإسلام في مهده.

لكن الله جل وعلا أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ولنا في هذه الغزوة دروس وعبر . إنها دروس في الجهاد، و دروس في الصبر، ودروس في الإيمان، ودروس في السياسة، و دروس في الذكاء والحنكة.

إنها دروسٌ من أعظم الدروس فهي قبسٌ من سيرة نبينا ﷺ .

غزوة الأحزاب :

التي سببها : خروجُ كُبَرَاءِ اليهودِ بعدَ إجلاءِ النبيِّ ﷺ لبني النضيرِ بسبب ما كان منهم من غدرٍ وتآمرٍ خرجَ كبراؤهم كَحُيَيِّ بنِ أَخْطَب وسَلاّم بن أبي الحقيق وغيرهما إلى قريش بمكة يُحَرّضُونَهُمْ عَلَى غَزْوِ رَسُولِ اللهِّ ﷺ ووعدهم مِنْ أنفسهم النصر لهم. فأجابتهم قريش ، ثُمّ خَرَجُوا إلَى غَطَفَانَ : فاستجابوا لهم ثُمّ طَافُوا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ يَدْعُونَهُمْ إلَى ذَلِكَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ مَنْ اسْتَجَابَ .

فخرجت قريش – وقائدهم أبو سفيان – فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ ، وَوَافَقَهُمْ بنو سُليم بمرِّ الظّهْرَانِ ، وبنو أسد ، وفزارة وأشجع وغيرهم ، وكان من وافى الخندق من المشركين عشرة آلاف .

غزوة الأحزاب :

تلك الغزوة التي ذهب جمهور أهل السير والمغازي إلى أنها كانت في شهر شوال من السنة الخامسة[1]، وقال الواقدي[2]: إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد[3]: إن الله استجاب لدعاء الرسول فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤٣.
(٢) انظر: المغازي (٢/٤٤٠) بدون إسناد.
(٣) الطبقات (٢/٦٥، ٧٣) بإسناد متصل.

هجرته ﷺ ، ونقل عن الزهري، ومالـك بـن أنـس، وموسـى بـن عقبـة، أنهـا وقعت سنة أربع هجرية(١).

ورأي الجمهور هو الراجح ،واليه مال ابن القيم حيث قـال: وكانـت سـنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين، إذ لا خـلاف أن أُحـدًا كانـت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله في العام المقبل وهو سنة أربـع، ثم أخلفوه من أجل جدب تلك السنة، فرجعوا فلما كانـت سـنة خمـس جـاءوا لحربه(٢).

۞ غزوة الأحزاب :

سورة كاملة نزلت باسـمها ففـي قلـبِ الأحـداثِ وعَقْبِهَـا تتنـزَّلُ الآيـات بالمنهج الربانيِّ الذي يُقوِّم المعْوَجَّ ، ويسُـدُّ الخلـل ، ويُـداوِي العِلَـلَ ، ويُطبِّـبُ القُلُوبَ ، ويُطيِّبُ الخواطرَ ، ويُنقِّي الصفوفَ ، ويُزكِّي النفوسَ ، ويُحفِّزُ الهِمَم ، وينهضُ بالشخصيةِ المسلمةِ ، ويصل بها إلى أعلى مراتب النُّضجِ ، وَيرْقَى بِهَـا إلى مُستَوى المسئوليةِ في إِدَارَةِ الأزمات ، ويربِطُ ماضِيَها بحاضرها ، ويضعُ لهـا القواعد والأصول لاستشرافِ مستقبلِهَا ، فيجعل من هذه الأحداثِ المنصرـمة : رصيدًا زاخرًا ، وكتابا مسطورًا ومشاهد حيَّةً وصورًا نابضةً(٣).

۞ غزوة الأحزاب:

إنها معركة ليست معركة خسائر، وإنما هي معركة عقيـدة وإيـمان، فقـتلى

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠٥/٤).
(٢) انظر: زاد المعاد (٢٨٨/٢)
(٣)أنظر التَّوْثِيقُ القُرآنِيُّ لِغَزْوَةِ الأحزابِ- بحثٌ من إعدادِ أحمد محمد الشرقاوي

الفريقين من المؤمنين والكفار يعدّون على الأصابع، ومع هذه الحقيقة فهي من أهم المعارك في تاريخ الإسلام فلقد كانت ابتلاءً كاملاً وامتحاناً دقيقاً وتمييزاً بين المؤمنين والمنافقين، فلقد اشترك الجميع في الشعور بالكرب، ولم يختلف الشعور من قلب إلى قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، ويقينها بالنصر، واطمئنانها وقت الزلزال، فلقد نافق أقوام وظنوا بالله الظنونا وحاولوا في ثني المؤمنين عن الجهاد والتسليم للكافرين لكي يذلوهم ويخنقوا الإسلام معهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ﴾[الأحزاب:١٣].

غزوة الأحزاب:

أعلنت أن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر، يدفعها في الطريق المرسوم، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة . والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه ، في موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر.

غزوة الأحزاب : تبرز أمامنا صفحة من تاريخ اليهود وتكشف عن أسلوبهم الدنيء في إثارة الأحقاد وتسخير قيمهم لخدمة مصالحهم ومآربهم .

غزوة الأحزاب :

تكشف عن قوة الإسلام وكيف أنَّ أصحاب العقيدة يصبرون على البلاء والجوع.

غزوة الأحزاب :

تكشف لنا عن شخصية الرسول ﷺ في قيادته الحكيمة وفي صموده أمام

طواغيت الشر.

۞غزوة الأحزاب:

تحتاج منا كمسلمين أن نُحلِّل تفاصيلها وأحداثها وما جرى فيها ليكـون المسلم على بينة بان نبي الإسلام محمد ﷺ لم يكن يحب الحرب وإنما كان يضطر لخوضها دفاعاً عن نفسه وعن الكيان الإسلامي ،إنه كـان يحمـل رايـة السـلام بيمينه وينادي على الناس في كل مكان أن يدخلوا تحت راية السلام لأنه وسيلة التقدم والازدهار .

۞غزوة الأحزاب :

حيث : " الامتحان لهذه الجماعة الناشئة ، ولكـلِّ قيمهـا وتصـوراتها ، ومَن تدبَّرَ النصَّ القـرآنيَّ (سـورة الأحـزاب)، وطريقـةَ عرضِـهِ للحـادِثِ ، وأسلوبَه في الوصفِ والتعقيبِ ووقوفَـه أمـام بعـض المشـاهدِ والحـوادثِ ، والحركاتِ والخوالجِ ، وإبرازَه للقيمِ والسننِ : يدركُ كيف كان اللهُ يربي هذه الأمةَ بالأحداثِ والقرآنِ في آنٍ واحدٍ ." [1] .

۞غزوة الأحزاب :

غزوةٌ علَّق عليها القرآن أعظم تعليق، يصور نماذج البشر وأنماط الطباع، يصور القيم الثابتة والسنن الباقية التي لا تنتهي بانتهاء الحادث.

فهلم أخي القارئ لنأخذ شيئاً من الوقفات التي أشار إلى وصـفها القـرآن

---

١ - في ظلال القرآن ٦ / ٤٩ ، ٥٠ بتصرف .

وذكرت بعضها السنة، نستلهم الدروس والعبر والفوائد .

دعونا نُبحر وإياكم مع دروس وعبر هذه الغزوة المباركة وأسال الله بمنه وكرمه أن يُعجل بالنصر القريب لأمة الإسلام إنه ولي ذلك والقادر عليه.

١- الأمل والثقة بالله تعالى:

تأمل! بالرغم من كل تلك الظروف العصيبة الشديدة التي أحاطت بالمسلمين من حصار جماعي من مختلف قبائل العرب واليهود، وبجيش يبلغ عشرة آلاف مقاتل، ومن جوع وخوف وهلع وشدة برد..، لم ييأس المسلمون، ولم يفقدوا ثقتهم بالله تعالى، بل إن الرسول ﷺ كان في ظل تلك الظروف يعدهم بفتح الشام، وفارس، واليمن، وهي الدول العظمى في ذلك الوقت. وتأمل موقف المنافقين إزاء تلك الوعود، وتزعزع قلوبهم حينما رأوا كثرة جيوش الأحزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾[الأحزاب: ١٢]. ثم تأمل موقف المؤمنين لما رأوا الأحزاب:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب: ٢٢].

وفي أحلك المواقف كان النبي ﷺ يربي أصحابه على الثقة بموعود الله وعلى التفاؤل وعدم اليأس والاستكانة للكافرين، فيجتمع الكفر على المؤمنين معادياً لهم ينوي استئصالهم، ومع ذلك والصحابة يعانون في حفر الخندق تعترض لهم صخرة في الخندق، أعيتهم ، فجاء النبي ﷺ وأخذ المعول فقال:

بسم الله ثم ضرب ضربة، وقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة»، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال:

«الله أكبر، أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن»، ثم ضرب الثالثة، فقال:

«بسم الله فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني»[1].

يقول ذلك في هذه المرحلة الحرجة ليبشر المؤمنين ويعلِّمَهُم درساً في التفاؤل والثقة بنصر الله، ثم يأتيه الخبر بنقض بني قريظة للعهد فيقول: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين».

وفي قلب هذه المحنة وشدة هذا الهول يقول: «إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن أموالهم في سبيل الله» وصدَّق المؤمنون بهذه البشارات لإيمانٍ في قلوبهم.

واليوم.. في ظل تحزب قوى الكفر على الأمة الإسلامية، وتضييقها على المسلمين في كل مكان، وتنكيلها بدعاتهم، واغتصابها أراضيهم، واستنزافها ثرواتهم..؛ كم نحن بحاجة إلى مراجعة حساباتنا، وتقوية صلتنا بديننا، وأن ما يحصل للمسلمين من الهوان وتسليط الأعداء إنما هو لحكم عديدة، وأسباب كثيرة.. كما أننا بحاجة ماسّة إلى النظر إلى المستقبل، والثقة بالله تعالى، ووعده للأمة بالعز والتمكين إن هي استمسكت بالإسلام، وما يدعو إليه من وجوب

---

(١) رواه أحمد والنسائي وحسنه ابن حجر.

إعداد العدة، وأنَّ الأمة إن بكت مرة فقد بكت قبل ذلك مرات، وكانت تعود في كل مرة كأقوى ما تكون، وأن ما تمر به أمتنا اليوم من الضربات المتتابعة والصفعات الموجعة ما هي إلا إرهاصات مبشرة لنهضة الأمة، وصحوتها من غفلتها، وعودتها مرة أخرى إلى دينها، ومصدر عزها ومجدها؛ فإن الظلام كلما أحلولك وادلهمّ فإن وراء الأفق نوراً، وفي حضن الكون شمس ساطعة، وكلما اشتد غلس الليل اقترب ميلاد النهار.

ومهما كان واقع الأمة مؤلماً يفرض على كثير من المسلمين أقسى الظنون، إلا أنها في طريق التغيير الإيجابي تسير، وهي الآن أفضل بكثير من سنوات مضت، فلا ينبغي استبطاء النصر، واستعجال الظفر. ولنتأمل كيف أن الشام، وفارس، واليمن التي وعد الرسول ﷺ بفتحها، لم يظفر بها المسلمون إلا بعد وفاته ﷺ بسنين؛ وفي ذلك.

٢- الكفرُ ملةٌ واحدة:

نرى في هذه الغزوة بوضوح تكالب الكفر على المسلمين، لقد تمالأ العرب واليهود في الجزيرة، وقاد أبو سفيان أضخمَ جيش شهدته جزيرة العرب الذي كان عشرةَ أضعافِ جيشِ بدرٍ وقرابة أربعة أضعاف جيش أحد ،إضافة إلى العدو الداخلي يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد وانضموا إلى الأحزاب.

لقد جاء الكفر جملة واحدة وكما وصفهم ﷺ: «لقد رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب» وإذن فلا بد أن يقرَّ في حس

المسلمين أن الكفر كلَّه قد يلتقي في مرحلة من المراحل على إبادة الإسلام والمسلمين ويتناسى ما بينه من عداوات؛ لأن الكفر ملة واحدة في الحقيقة؛ ولأنهم جميعاً حرب على الإسلام؛ لأنهم يشتركون في الخطر المحدق بهم من ظهور الدين الحق الذي يقطع مصالحهم في استعباد الناس وتسخيرهم لأهوائهم.

٣- المنافقون وخطرهم:

المنافقون أصحاب المصالح والأهواء ليس لهم قرار واضح ولا قاعدة ثابتة تراهم مع المؤمنين تارة ومع الكافرين تارات رسل فساد وأصل كل بلية وهزيمة: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِّ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُّ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُّ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

ولاء المنافقين للكافرين، ولو عاشوا بين ظهراني المسلمين، وقلوبهم مع أعداء الدين، وإن كانوا بألسنتهم وأجسامهم وعدادهم في المسلمين، يخشون الدوائر فيسارعون للولاء والمودة للكافرين، ويسيئون الظن بأمتهم فيرتمون في أحضان أعدائهم ويزعمون إبقاء أياد عند الكافرين تحسباً لظفرهم بالمسلمين:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُّ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[المائدة:٥٢]، المنافقون هم الأعداء الحقيقيون للمسلمين

وهم الذين خططوا لأعظم نكبات المسلمين، هم رسل الفساد وعقارب النفاق ،قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

لقد كان موقف المنافقين عندما تكالب الكافرون وتحزبوا على المسلمين متسماً بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإرجاف والتخذيل، ولكن القرآن الكريم تكفل بتصوير ذلك أدق التصوير فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل ، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم، وهم آمنون من أن يلومهم أحد ؛ وفرصةً للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ١٢].

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل عصر ومصر، وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم المنافقين هؤلاء؛ فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان !

﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ ياأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ﴾ [الأحزاب: ١٣]، فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودة إلى بيوتهم ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو . متروكة بلا حماية، وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة ، ويجردهم من العذر والحجة: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾

ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾.

وهؤلاء المنافقون من أنشط الناس عند الفتن وأكثرهم استعداداً لنقض العهود مما يوضح وهَنَ العقيدة، وخَوَرَ القلوب، والاستعدادَ للانسلاخ من الإسلام بمجرد مصادفة غير مبقين على شيء، ولا متجملين لشيء:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾ [الأحزاب: ١٤] ذلك كان شأنهم، والأعداء بعدُ خارجَ المدينة؛ ولم تقتحم عليهم بعد، فأما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من أطرافها . . ثم سئلوا الفتنة وطلبت إليهم الردة عن دينهم لآتوها سراعاً غير متلبثين، ولا مترددين إلا قليلا من الوقت. ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللهَّ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهَّ مَسْئُولاً﴾ [الأحزاب: ١٥].

ثم يبين لهم سبحانه أن الفرار لا يدفع أمر الله ولا يطيل العمر قال تعالى:﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهَّ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهَّ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ [الأحزاب: ١٦، ١٧]

ويرسم القرآن للمنافقين صورة تثير الاحتقار لهم، صورة للجبن والانزواء، والفزع والهلع. (في ساعة الشدة) . والانتفاشِ وسلاطة اللسان (عند الرخاء) . والشحِ على الخير والضن ببذل أي جهد فيه . والجزع والاضطراب (عند توهم الخطر من بعيد).

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذالِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِى الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُمْ مَّا قَاتَلُواْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: ١٨ ـ ٢٠].

مثيرة للسخرية تلك الصورة المنافقين بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمن:

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ خرجوا من الجحور، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفخت أوداجهم بالعظمة، وانتفشوا بعد الانزواء، وادعوا في غير حياء، ماشاء لهم الادعاء، من البلاء في القتال والفضل في الأعمال، والشجاعة والاستبسال.

﴿أوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذالِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾.

لقد نافق أقوام بسبب إرجافهم وتخذيلهم ونعى القرآنُ عليهم ذلك فكيف لو ناصروا قريشاً وأحلافها . . . . إنها الردة ولو كان صاحبها متعلقاً بأستار الكعبة.

٤- درسٌ في الشورى:

في زحمة الأحداث، وعندما نقضت قريظة العهد، واشتد على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم الحال، رأى النبي ﷺ أن يخفف عن أصحابه رحمة

بهم، صلى الله عليك يا نبي الرحمة.

بعث إلى قائدي غطفان يعرض عليهما صلحاً، وهو أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهم من قومهم، وتم الصلح ثم استشار النبي ﷺ السعدين، سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فقالا له: يارسول الله أمراً تحبه فتصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب. فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما**».

فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا حاجة، والله العظيم لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ: «**فأنت وذاك**».

و الحكمة في استشاراتهﷺ لبعض أصحابه في هذا الصلح لكي يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله وتوفيقه على الرغم من ذلك الذي فوجئوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم في كثرة ساحقة، إلى جانب خذلان بني قريظة للمسلمين ونقض مواثيقهم معهم.

وأما الدلالة التشريعية في هذه الاستشارة، فهي محصورة في مجرد مشروعية مبدأ الشورى في كل ما لا نص فيه. وهي بعد ذلك لا تحمل أي

دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم إذا ما اقتحموها، باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم لهم. إذ إن مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الإسلامية أن الذي يحتج به من تصرفاته ﷺ إنما هو أقواله، وأفعاله التي قام بها، ثم لم يرد اعتراض عليها من الله في كتابة العزيز.

وفي قبول الرسول ﷺ رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه، ومصالحة النبي ﷺ مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعي فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة[1].

وليس في هذه الاستشارة دليل على جواز دفع المسلمين الجزية إلى أعدائهم. أما إذ ألجئوا إلى اقتطاع جزء من أموالهم فعليهم التربص بأعدائهم لاسترداد حقهم المسلوب.

٥- الحكمة في اختيار غطفان بالذات للصلح:

ظهرت حنكته ﷺ وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذات لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم ﷺ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه، أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على

(١) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤١٤.

المـال بالاسـتيلاء عليـه مـن خـيرات المدينـة عنـد احتلالهـا؛ ولهـذا لم يحـاول الرسول ﷺ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حـرب، لأن هـدف أولئـك الرئيسي لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفًا سياسيًّا وعقائديًّا يتوقف تحقيقـه والوصـول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقـادة غطفان، الذين (فعلاً) لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي ﷺ [١]، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عـوف) لطلب النبي ﷺ وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبـي ﷺ واجتمعـا بـه وراء الخنـدق مسـتخفين دون أن يعلـم بهـما أحـد، وشرع رسـول الله ﷺ في مفاوضتهم.

ولقد أبرز ﷺ في هذه المفاوضات جانبًا من جوانب منهج النبـوة في التحـرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزمها، لتكون لأجيال المجتمع المسلم درسًـا تربويًّا من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء[٢].

٦- رسالة للمسلمين عبر التاريخ:

في قوله ﷺ : «إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحـدة» دليـل على أن رسول الله ﷺ كان يستهدف مـن عملـه ألا يجتمـع الأعـداء عليـه صـفًّا واحدًا، وهذا يرشد المسلمين إلى عدة أمور منها:

(١) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، ص٢٠١.
(٢) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (١٧٦/٤).

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

* أن يكون الهدف الإستراتيجي للقيادة المسلمة تحييد من تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام(١).

٧- في موقف الصحابة من الصلح دروس:

إن موقف الصحابة من الصلح مع غطفان يوم قال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا حاجة، والله العظيم لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك» وهذا يحمل في طياته ثلاثة معانٍ:

أ- أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب- أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله وبالإسلام.

ت- أنه يبين ما تمتلئ به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر، والرغبة القوية في قهر العدو، مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه(٢).

---

(٣) انظر: الأساس في السنة (٢/٦٨٧).

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١٥، ٤١٦.

٨- شدة التضرع سبب من أسباب النصر:

كان رسول الله ﷺ كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله، وخصوصا في مغازيه، وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديدًا، فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: نعم. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا [١]. وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»[٢]، فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ﷺ ، فأقبلت بشائر الفرج فقد صرفهم الله بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم، وأنزل جنودًا من عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب: ٩].

قال القرطبي -رحمه الله-: وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ والمسلمين كانوا قريبًا منهم، ولم يكن بينهم إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية

(١) مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (١٨/٤).
(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب (٥٩/٥) رقم ٤١١٤.

منها ولا خبر عندهم بها... وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط[1]، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضها في بعض، وأرسل عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر حتى كان سيد كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إليَّ فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم الرعب[2].

وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤكد لصحبه ثم للمسلمين في الأرض، أن هذه الأحزاب التي تجاوزت عشرة آلاف مقاتل لم تهزم بالقتال من المسلمين، رغم تضحياتهم، ولم تهزم بعبقرية المواجهة، إنما هزمت بالله وحده:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»[3].

ودعاء رسول الله ﷺ ربه، واعتماده عليه وحده، لا يتناقض أبدا مع التماس الأسباب البشرية للنصر، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سنة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصار، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها[4].

(١) الفساطيط: جمع فسطاط نوع من الأبنية في السفر وهو دون السرادق.
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/١٤٤).
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥-٥٩) رقم ٤١١٤.
(٤) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٥٠٣.

إن رسول الله ﷺ يعلمنا سنة الأخذ بالأسباب، وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له؛ لأنه لا تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوافر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التي فزع إليها رسول الله ﷺ في حياته كلها[١].

دروس وعبر من قصة حذيفة:

كان رسول الله ﷺ يتابع أمر الأحزاب، وأحب أن يتحرى عما حدث عن قرب فقال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة[٢]. فاستعمل ﷺ أسلوب الترغيب، وكرره ثلاث مرات، وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعين واحدًا بنفسه فقال: «قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم، ولا تذعرهم عليَّ» [٣].

وفي هذا معنى تربوي وهو أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة.

قال حذيفة ﷺ: فمضيت كأنما أمشي في حمام، فإذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس، وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: لا تذعرهم عليَّ، ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت

(١) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٢٢.
(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣/١٤١٤) رقم ١٧٨٨.
(٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب رقم ١٧٨٨.

رسول الله ﷺ وأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائمًا حتى الصبح فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان»(١).

ولنا من قصة حذيفة دروس وعبر:

٩- معرفة رسول الله ﷺ بمعادن الرجال:

حيث اختار حذيفة ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب، وأن معدن حذيفة معدن ثمين فهو شجاع، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، وهو بالإضافة إلى ذلك لبق ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المآزق الحرجة.

١٠- الانضباط العسكري الذي يتحلى به حذيفة:

لقد مرت فرصة سانحة يقتل فيها قائد الأحزاب وهمَّ بذلك، ولكنه ذكر أمر الرسول ﷺ ألا يذعرهم، وأن مهمته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه(٢).

١١- كرامات الأولياء:

إنَ ما حدث لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جو بارد ماطر شديد الريح، وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمام، وتلازمه هذه الحالة مدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى معسكر

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، (٣/١٤١٤) رقم ١٧٨٨.
(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٥٠٥، السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٦٧.

المسلمين؛ لا شك هذه كرامة يمنُّ الله بها على عباده المؤمنين[١].

١٢- لطف النبي ﷺ مع حذيفة عند رجوعه:

فقد كان ﷺ يترفق بأصحابه، ولم تمنعه صلاة الليل وحلاوة المناجاة من التلطف بحذيفة الذي جاء بأحسن الأنباء وأصدق الأخبار وأهمها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه، ليدفئه، وتركه ملفوفًا به حتى أتم صلاته، بل حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطف وخفة ودعابة قائلا: «قم يا نومان»، دعابة تقطر حلاوة، وتفيض بالحنان، وتسيل رقة، إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة اللتين تحلى بهما فؤاد الرسول ﷺ، وتطبيق فريد رفيع لهما في أصحابه الكرام[٢]، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

١٣- سرعة البديهة:

وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابي الكريم، وقد دخل في القوم، كما في رواية الزرقاني، وقال أبو سفيان: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي على يميني فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص[٣]. وهكذا بدرهم بالمسألة حتى لا يتيح لهم فرصة ليسألوه، وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج الذي ربما كان أودى بحياته[٤].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٦٧.
(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢٤٦.
(٣) انظر: شرح الزرقاني (٢/١٢٠).
(٤)انظر: من معين السيرة، ص٢٩٣.

١٤- الحكمة ضالة المؤمن يتلمسها أنَّى وجدها:

ففي قبوله ﷺ إشارة سلمان بحفر الخندق، وهو أمر لم تكن تعرفه العرب من قبل، دليل على أن الإسلام لا يضيق ذرعاً بالاستفادة مما عند الأمم الأخرى من تجارب تفيد الأمة وتنفع المجتمع فلا شك أن حفر الخندق أفاد إفادة كبرى في دفع خطر الأحزاب عن المدينة، وقبول رسول الله هذه المشورة، دليل على مرونته ﷺ، واستعداده لقبول ما يكون عند الأمم الأخرى من أمور حسنة، وقد فعل الرسول مثل ذلك أكثر من مرة، فلما أراد إنفاذ كتبه إلى الملوك والأمراء والرؤساء قيل له: إن من عادة الملوك ألاَّ يقبلوا كتاباً إلا إذا كان مختوماً باسم مرسله، فأمر على الفور بنقش خاتم له كتب عليه: محمد رسول الله، وصار يختم به كتبه، ولما جاءته الوفود من أنحاء العرب بعد فتح مكة تعلن إسلامها، قيل له: يا رسول الله إن من عادة الملوك والرؤساء أن يستقبلوا الوفود بثياب جميلة فخمة، فأمر رسول الله ﷺ أن تشترى له حلة، قيل: إن ثمنها بلغ أربعمائة درهم، وقيل: أربعمائة بعير، وغداً يستقبل بها الوفود، وهذا هو صنيع الرسول الذي أرسل بآخر الأديان وأبقاها إلى أبد الدهر، فان مما تحتمه مصلحة أتباعه في كل زمان وفي كل بيئة أن يأخذوا بأحسن ما عند الأمم الأخرى، مما يفيدهم، ولا يتعارض مع أحكام شريعتهم وقواعدها العامة، والامتناع عن ذلك جمود لا تقبله طبيعة الإسلام الذي يقول في دستوره الخالد: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧

و١٨] ولا طبيعة رسوله الذي رأينا أمثلة عما أخذ من الأمم الأخرى، وهو القائل: «الحكمة ضالة المؤمن يتلمسها أنَّى وجدها» ويوم غفل المسلمون في العصور الأخيرة، وخاصة بعد عصر النهضة الأوروبية عن هذا المبدأ العظيم في الإسلام، وقاوموا كل إصلاح مأخوذ عن غيرهم مما هم في أشد الحاجة إليه، أصيبوا بالانهيار، وتأخروا من حيث تقدم غيرهم ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

١٥- درسٌ للحكام والمحكومين:

لقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى للحكام والمحكومين في العدالة والمساواة وعدم الاستئثار بالراحة يوم وقف جنبا إلى جنب مع أفراد جيشه ليعمل بيده في حفر الخندق. وهذه هي صفة العبودية الحقة التي تجلت في شخصية الرسول ﷺ .

والعدالة والمساواة ليستا في الإسلام مجرد شعارات يزين بها ظاهر المجتمع ،وإنما العدالة والمساواة هما الأساس الواقعي الذي تنبثق منه القيم والمبادئ الإسلامية عامة ظاهراً وباطنا .

١٦- الرؤوف الرحيم ﷺ :

أعطى الرسول ﷺ مثلاً آخر على رأفته بالمؤمنين، يوم شاركهم في حفر الخندق ويوم أشركهم معه في طعام جابر، ولم يستأثر به مع قلة من الصحابة. وفي ضوء هذه المعاني يفهم قول الله – تعالى -: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

وفي هذا الموقف أيضاً رسالة في أهمية الإيثار عند المسلم فمهما كان الفقر شديداً نتعلم ألا نأكل وغيرنا جائع.

١٧- واعدوا لهم:

إنَّ حفر الخندق يدخل في مفهوم المسلمين لقوله – تعالى –: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠]فينبغي على المسلمين اتخاذ وسائل القوة المتاحة مهما كان مصدرها، لأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها.

١٨- أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رفيدة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي الحربي، وبذلك أصبحت أول ممرضة عسكرية في الإسلام(١)، وجاء في السيرة النبوية لابن هشام:... وكا ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من به ضيعة من المسلمين، وكان ﷺ قد قال لقومه حين أصاب سعد بن معاذ السهم بالخندق: «**اجعلوه في خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب**»(٢).

ويفهم من النص السابق أنَّ من أصيب من المسلمين إن كان له أهل اعتنى

---

(١) انظر: المستشفيات الإسلامية، الدكتور عبد الله السعيد، ص٤٣.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٦٣).

به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين، وسعد بن معاذ الأوسي، ليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول ﷺ الاطمئنان عليه باستمرار، جعله في تلك الخيمة التي أعدت لمن به ضيعة وليس له أهل، ذلك أن هؤلاء هم في رعاية رسول الله ﷺ وإلا فلم ضربت الخيمة في المسجد، وكان بالإمكان ضربها في أي مكان آخر؟

إن سعد بن معاذ رضي الله عنه يكرم لمآثره وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التكريم أن يجعل في خيمة أعدت لمن به ضيعة، وهكذا حينما يرتفع السادة يجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى فاستحقوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ [1]، وهذا منهج نبوي كريم أصبح دستورًا للمسلمين على مدى الزمن.

١٩- النصر من عند الله وحده:

ظهرت معجزاتٌ للنبي ﷺ في حفر الخندق لتؤكد أن الله تعالى هو الذي يهزم العدو وينصر حزبه ((**لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر جنده، وهزم الأحزاب وحده**)) وحرص الرسول ﷺ أن يؤكد لصحبه ثم للمسلمين في الأرض أن الأحزاب التي تتجاوز عشرة آلاف مقاتل لم تهزم بالقتال من المسلمين رغم تضحياتهم ولم تهزم بعبقرية المواجهة وإنما هزمت بالله وحده، وما يسرَّه من أسباب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾

(١) انظر: من معين السيرة، ص٢٩٤.

[الأحزاب:٩].

إن النصر بيد الله، فإذا نصر المؤمنين فلا ضرر عليهم إذا خذلتهم الأقطار الإسلامية كلها، بل وحتى لو نصرت الكافرين، فلن يغلبوا من نصرـ اللهُ يقيناً {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [آل عمران:١٦٠].

٢٠- المسلم يقع في الإثم ولكنه يسارع في التوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر -وكانوا حلفاءه- فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله ﷺ ،فأشار إلى حلقه يعني الذبح، ثم ندم فتوجه إلى مسجد النبي ﷺ فارتبط به حتى تاب الله عليه، وقد ظل مرتبطًا بالجذع في المسجد ست ليالٍ تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط في الجذع [1]، وقد قال أبو لبابه: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت: قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك فقلت: مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك. قال: تيب على أبي لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئتِ، فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك قالت: فثار الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده. فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح

(١)انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٢٨٦).

أطلقه[1]. وذلك في الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح، وإن موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزلة التي أفشى بها سرًّا حربيًّا خطيرًا، فأبو لبابة لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح، وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر حيث لم يطلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، ولكنه تذكر رقابة الله عليه وعلمه بما يسر ويعلن، وتذكر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر، ففزع لهذه الزلة فزعًا عظيمًا[2]، وأقر بذنبه واعترف به وبادر إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون انتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة، إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

إنها صورة فريدة لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسه على نفسه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثم أو فسوق. وقد فرح الصحابة وفرح النبي ﷺ نفسه، بتوبة الله على أبي لبابة، وتسابقوا إلى تهنئته حتى كانت أم سلمة زوجة النبي ﷺ هي التي بادرت بالتهنئة بعد الإذن فبشرته بقبول الله توبته[3]. وقد أنزل

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٦٢).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/١٦٥).

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢٦١.

الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]. ونزل في توبته قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢](١).

٢١- مشروعية قضاء الفائتة:

عندما شغل المشركون الرسول ﷺ وأصحابه عن صلاة، صلوها قضاءً بعد المغرب، وفي هذا دليل على مشروعية قضاء الفائتة .

٢٢- ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله:

روى عبد الرزاق في مصنفه بالسند إلى سعيد بن المسيب، فذكر بعض خبر الأحزاب وقريظة إلى أن قال: فلما فضَّ الله جموع الأحزاب انطلق -يعني حيي بن أخطب- حتى إذا كان بالروحاء ذكر العهد والميثاق الذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلما أقبلت بنو قريظة أتي به مكتوفًا بعد، فقال حيي للنبي ﷺ أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذل، فأمر به النبي ﷺ فضربت عنقه(٢). ثم أنه أقبل على الناس قبل تنفيذ حكم الإعدام وقال لهم: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه(٣).

٢٣- جلَد الكافر في مواطن الشدة:

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (٣/٢٦٢).
(٢) انظر: مصنف عبد الرزاق (٥/٣٧١) رقم ٩٧٢٧.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٦٥).

لقد تجلّد حيي بن أخطب وتقدم لتضرب عنقه حتى لا يشمت فيه شامت، وهو يعرف أنه على باطل، ظالم لنفسه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير؛ لأنه يعبد هواه، ولا يعبد ربه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٢٤- من يخذل الله يُخذل:

إن الله تعالى إذا خذل أحدًا ليس له نصير يمنعه أو يدفع عنه، قال سبحانه: ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

كما أن عداوة حيي بن أخطب للرسول ﷺ باعثها الحسد والحقد؛ ولذلك عبر حيي صراحة أن الله لم يكن معه يومًا من الأيام، بل كان حيي في شق الشيطان عدوًّا لأولياء الرحمن، يشاقق الله، فالله خاذله ومُسْلِمه لكل ما يؤذيه ويتعبه، ولا توجد قوة في الأرض ولا في السماء تنصره وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأن إرادة الله هي النافذة، وقدره هو الكائن، لا رادَّ لقضائه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء[1]. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

(١) انظر: الصراع مع اليهود (٢/١١٣، ١١٤).

٢٥- فضائل لسعد بن معاذ رضي الله عنه:

منها:

١ – **استجابة الله تعالى لدعائه** عندما قال: (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه، اللهم فإن بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك)، وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه، وتماثل للشفاء[١] حتى كانت غزوة بني قريظة، وكان سعد قد دعا أيضًا: (ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[٢]، وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحق ولم تأخذه في الله لومة لائم، وهذا دليل على تجرد قلبه لله تعالى[٣].

وعندما نفذ حكم الله في يهود بني قريظة رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشًا والمشركين)، فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها[٤]، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رحمه الله[٥].
ومن خلال دعائه الأول والثاني، نلحظ هذا الدعاء العجيب، دعاء العظماء

---

(١) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٢٨.
(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (١٣٨٩/٣) رقم ١٧٦٩.
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١٧٠/٦).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢٧٥/٣).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٢٨.

الذين يعرفون أن رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه وأمته(١).

٢- **إكرام رسول الله له**،ونجد ذلك في قوله ﷺ للأنصار عندما جاء سعد للحكم في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم»(٢). وهذا تكريم لسعد، وتقدير لشجاعته حيث سماه سيدًا، وأمر بالقيام له(٣).

٣- **لو أقسم على الله لأبره :**

ونرى ذلك في سيرته أنه لو أقسم على الله لأبره، فهو وجيه في السماوات والأرض، فقد شاءت إرادة المولى تعالى أن يعيد الأمر في بني قريظة كله إليه، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ.

٤- **زهده في الحياة ورغبته في لقاء الله :**

فهو لم يحرص كثيرًا على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وانتهاء المسئولية وتأدية الأمانة المناطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحروب ووضعت بين المسلمين وقريش، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة، وبدا قطف الثمار للإسلام فلا ثمرة أشهى من الشهادة (فافجر جرحى واجعل موتي فيه)(٤).وقد تحققت آماله، فقد أصدر حكمه في بني قريظة وشهد

---

(١)انظر: التربية القيادية (٣/٧٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٦٣).

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢٦٥.

(٤) انظر: التربية القيادية (٤/٧١).

مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم، وها هو جرحه ينفجر[1].

٥- **الملائكة تشيع سعد بن معاذ:** عندما انفجر جرحه ﷺ نقله قومه فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم.

وجاء رسول الله ﷺ فقيل: انطلقوا فخرج وخرج معه الصحابة، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالهم، وسقطت أرديتهم، فقال: إني أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة، فانتهى إلى البيت وهو يغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويل أم سعد سعدًا حزامة وجدًّا

فقال: **كل نائحة تكذب إلا أم سعد**، ثم خرج به، وقال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخف علينا منه قال: «**وما يمنعه أن يخف؟ وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم**»[2].

وقد جاء في النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عدد الملائكة الذين شاركوا في تشييع جنازة سعد فقد قال ﷺ: «**هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضم ضمة ثم أفرج عنه**»[3] يعني سعدًا.

وها هو رسول الله ﷺ يودع سعدًا كما روى عبد الله بن شداد: دخل رسول

(١) المصدر نفسه (٤/٧٤).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١/٢٨٧) إسناده حسن.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/٢٩٥) إسناد صحيح، أخرجه النسائي (٤/١٠٠) في الجنائز.

الله ﷺ وهو يكيد نفسه فقال: «جزاك الله خيرًا من سيد قوم، فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزك الله ما وعدك»[١].

٦- يهتز لموته عرش الرحمن:

لقد أثنى النبي ﷺ على هذا العبد الصالح بعد موته كثيرًا أمام الصحابة ليتعرف الناس على أعماله الصالحة فيتأسوا به[٢]، فقد قال ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»[٣] وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يلمسونه ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»(٤).

٢٦- ضمة القبر نسأل الله العافية:

ومع المآثر والمحاسن والأعمال الجليلة التي قدمها سعد بن معاذ رضي الله عنه لخدمة دين الله، فقد تعرض لضمة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعد رضي الله عنه نزل فيه أربعة: الحارث بن أوس، وأسيد بن الحضير، وأبو نائلة سلكان، وسلمة بن سلامة بن وقش، ورسول الله ﷺ واقف، فلما وضع في قبره، تغير وجه رسول الله ﷺ وسبح ثلاثًا، فسبح المسلمون حتى ارتج البقيع ثم كبَّر ثلاثًا، وكبَّر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال: «تضايق على صاحبكم القبر، وضم ضمة لو

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/٢٨٨) رجاله ثقات.
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/١٧١).
(٣) مسلم، فضائل الصحابة رقم ٢٤٦٦.
(٤) مسلم، فضائل الصحابة، رقم ٢٤٦٨.

نجا منها أحد لنجا هو، ثم فرج الله عنه»(١).

٢٧- الحرب خدعة:

نجد ذلك في طلبه الرسول ﷺ من نُعيم بن مسعود، أن يخذِّل بين الأحزاب ما استطاع في "غزوة الأحزاب" دليل على أن الخديعة في حرب الأعداء مشروعة إذا كانت تؤدي إلى النصر، وأن كل طريق يؤدي إلى النصر وإلى الإقلال من سفك الدماء مقبول في نظر الإسلام، ما عدا الغدر والخيانة، وهذا من حكمته السياسية والعسكرية ﷺ، وهو لا ينافي مبادئ الأخلاق الإسلامية، فإن المصلحة في الإقلال من عدد ضحايا الحروب مصلحة إنسانية.

والمصلحة في انهزام الشر والكفر والفتنة مصلحة إنسانية وأخلاقية، فاللجوء إلى الخدعة في المعارك يلتقي مع الأخلاق الإنسانية التي ترى في الحروب شراً كبيراً، فإذا اقتضت الضرورة قيامها، كان من الواجب إنهاؤها عن أي طريق كان، لأن الضرورة تقدر بقدرها، والله لم يشرع القتال إلا لحماية دين أو أمة أو أرض، فالخدعة مع الأعداء بما يؤدي إلى هزيمتهم، تعجيل بانتصار الحق الذي يحاربه أولئك المبطلون. ولذلك أثر عن الرسول ﷺ في "غزوة الأحزاب" قوله لعروة ابن مسعود: "**الحرب خدعة**" وهذا مبدأ مسلم به في جميع الشرائع والقوانين.

٢٨- الإسلام يكرم المرأة:

كانت سلمى بنت قيس وكنيتها أم المنذر أخت سليط بن قيس، وكانت

(١) انظر: التربية القيادية (٤/٧٧)، نقلا عن مسند الإمام أحمد (٦/١٤١).

إحدى خالات رسول الله ﷺ، قد صلت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء، سألته رفاعة ابن سمؤال القرظي، وكان رجلاً قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك فقالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، هب لي رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها، فاستحيته(١). وفي هذا الخبر دليل على أن الإسلام يكرم المرأة ويعتبر شفاعتها، هذه هي معاملة المرأة في هذا الدين، إنه يكرمها، ويساعدها ويشجعها على فعل الخير(٢).

٢٩- شجاعة المرأة المسلمة:

فمن ذلك ما حدث من صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها وأرضاها، لما رأت رجلاً من اليهود يطيف بالحصن، وفيه النساء والصبية، وقد حاربت بنو قريظة ونقضوا العهد، وقطعت ما بينها وبين النبي ﷺ، وليس بينهم أحد يدافع عنهم، فخشيت أن يدل اليهودي على عورات المسلمين، وقد شُغل رسول الله ﷺ وأصحابه، فاحتجزت ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت إلى الحصن.

الله أكبر ليت في رجالنا كثير من مثل صفية بنت عبد المطلب.

وكان لهذا الفعل من صفية، وهي عمة رسول الله ﷺ الأثر العظيم في حفظ ذراري المسلمين ونسائهم، فظن اليهود أن الآطام والحصون ممنعة من الجيش، فلم يجترئوا ثانية على القيام بمثل هذا العمل.

---

(١)انظر: الصراع مع اليهود (١١٦/٢).

(٢)انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٢٦.

٣٠- من أدب الخلاف:

في اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»(١)، فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال، فصلى العصر لما دخل وقته، وبعضهم أخذ بالظاهر فلم يصل إلا في بني قريظة، ولم يعنف النبي ﷺ أحدًا منهم أو عاتبه، ففي ذلك دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كل من المتخالفين معذورًا ومثابًا، كما أن فيه تقريرًا لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تتبع من دلالات ظنية أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم(٢).

إن السعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع، معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلهي في تشريعه، عدا أنه ضرب من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنيًّا محتملاً؟... ولو أمكن ذلك أن يتم في عصرنا، لكان أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ، ولكان أولى الناس بألا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت؟(٣) وفي الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، (٥/٦٠) رقم ٤١١٩.

(٢)انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٢٦.

(٣)سنن أبي داود (٣٥٥٧).

يخصه، وفيه أيضا أن المختلفين في الفروع من المجتهدين لا إثم على المخطئ، فقد قال ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد**»(١).

وحاصل ما وقع أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت وقت الصلاة توجيهًا لهذا النهي الخاص على النهي العام عن تأخير الصلاة عن وقتها(٢).

وقد علق الحافظ ابن حجر على هذه القصة فقال: ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه، وحاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النص على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحًا للنهي الثاني على النهي الأول، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة، وأنه كناية على الحث والاستعجال والإسراع إلى بني قريظة، وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد؛ لأنه ﷺ لم يعنف أحدًا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم(٣).

---

(١) المستفاد من قصص القرآن (٢/٢٨٦)

(٢) اختصار من فتح الباري (٧/٤٧٣).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٣٦٥.

٣١- عدم صحة ما يروى عن جبن حسان ﵁:

ففي قصة صفية عمة رسول الله ﷺ وقتلها لليهودي جاء في رواية سندها ضعيف أن صفية -رضي الله عنها- قالت لحسان بن ثابت: إن هذا اليهودي يطيف بالحصن كما ترى، ولا آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت صفية: فلما قال ذلك، احتجزت عمودًا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت الحصن، فقلت: يا حسان انزل فاستلبه، فإنه لم يمنعني أن استلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب[(١)].

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها:

١- من حيث الإسناد فالخبر ليس مسندًا، وهو ساقط لا يصح ولا يجوز أن يروى، فيساء إلى صحابي من صحابة رسول الله ﷺ كان ينافح عن الدعوة وعن رسول الله ﷺ عمره كله.

٢- لو كان حسان بن ثابت ﵁ معروفًا بالجبن الذي ذكر عنه لهجاه أعداؤه ومبغضوه بهذه الخصلة الذميمة، لا سيما الذين كان يهاجيهم، فلم يسلم من هجائه أحد من زعماء الجاهلية، والرسول ﷺكان يؤيده ويدعو له، ويشجعه على هجاء زعماء المشركين[(٢)].

---

(١)انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٣٦٥.

(٢)نفس المصدر ،ص،٣٦٦.

٣٢- التوفيق في اختيار المواقع :

فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله ﷺ ركب فرسًا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب[١] إلى راتج[٢]، وقد استفاد ﷺ من مناعة جبل سلع[٣] في حماية ظهور الصحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفقًا؛ لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت حرة واقم[٤] من جهة الشرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصن طبيعي، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول ﷺ وبني قريظة عهد ألا يمالئوا عليه أحدا، ولا يناصروا عدوًا ضده[٥].

ويستفاد من بحث الرسول ﷺ عن مكان ملائم لنزول الجند أهمية الموقع الذي ينزل فيه الجند، وأنه ينبغي أن يتوافر فيه شرط أساسي وهو الحماية التامة للجند؛ لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها[٦].

---

(١) ذباب: أكمة صغيرة في المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.
(٢) راتج: حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود.
(٣) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة، انظر: معجم البلدان (٣/٢٣٦).
(٤) هي حرة المدينة الشرقية: انظر: معجم معالم الحجاز(٢/٢٨٣، ٢٨٥)
(٥) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٤٤٢.
(٦) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤٢٦.

٣٣- إحكام الخطة في المعركة:

لقد كانت خطة الرسول ﷺ في الخندق متطورة، ومتقدمة، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم، بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريبًا عنهم، وبهذا يكون الرسول ﷺ هو أول من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام، وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم.

٣٤- الاهتمام بالجبهة الداخلية:

ونرى ذلك في الآتي:

١ -**تأمين النساء والذراري** : لما علم النبي ﷺ بقدوم جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم في حصن بني حارثة، حتى يكونوا في مأمن من خطر الأعداء، وقد فعل ذلك ﷺ لأن حماية الذراري والنساء والصبيان لها أثر فعال على معنويات المقاتلين؛ لأن الجندي إذا اطمأن على زوجه وأبنائه يكون مرتاح الضمير هادئ الأعصاب، فلا يشغل تفكيره أمر من أمور الحياة، يسخر كل إمكاناته وقدراته العقلية والجسدية للإبداع في القتال، أما إذا كان الأمر بعكس ذلك فإن أمر الجندي يضطرب ومعنوياته تضعف ويستولي عليه القلق، مما يكون له أثر في تراجعه

عن القتال؛ وبذلك تنزل الكارثة بالجميع(١).

٢- مشاركة النبي جنده في الحفر:

ومن الأمور التي ساهمت في تقوية وتماسك الجبهة الداخلية مشاركة النبي ﷺ جنده أعباء العمل، فقد شارك الرسول ﷺ الصحابة في العمل المضني، فأخذ يعمل بيده الشريفة، في حفر الخندق، فعن ابن إسحاق قال: سمعت البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر(٢).

فعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكلل، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

٣- مشاركة النبي ﷺ في الآلام والآمال:

فلقد كان ﷺ يشارك الصحابة -رضي الله عنهم- في آلامهم وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم، ففي غزوة الأحزاب نجد أنه ﷺ كان يعاني من ألم الجوع كغيره، بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجرًا على بطنه الشريف من شدة الجوع(٣)، ثم إنه ﷺ شاركهم في آمالهم فحين وجد ما يسد رمقه بعد هذا الجوع الذي استمر ثلاثًا، لم يستأثر بذلك دونهم، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله ﷺ.

فالنبي ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة فهو

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب، د. محمد عبد القادر أبو فارس، ص٩٨.
(٢) انظر: البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، (٥٧/٥) رقم ٤١٠٦.
(٣) انظر: غزوة الأحزاب، د. محمد أبو فارس، ص١١٦، ١١٧.

الذي يرسم الخطط ويراقب تنفيذها فهو الذي:

أ- أمر بحفر الخندق بعد أن تمت المشاورة في ذلك، فاختار مكانًا مناسبًا لذلك، وهي السهول الواقعة شمال المدينة، إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب- قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصحابة، كل أربعين ذراعًا لعشرة من الصحابة، ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه.

ج- سيطر ﷺ على العمل، فلا يستطيع أحد ترك عمله إلا بإذن منه ﷺ .

د- قسم ﷺ واجبات احتلال الموضع بنفسه، بحيث تستمر الحراسة على كل شبر من الخندق ليلاً ونهارًا، ثم إنه ﷺ كان يقوم بمهمة الإشراف العام على الجند بتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

٤- **رفع معنويات الجنود وإدخال السرور عليهم:**

اقترن حفر الخندق بصعوبات جمة، فقد كان الجو باردًا، والريح شديدة والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة، ويضاف إلى ذلك العمل المضني، حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولا شك في أن هذا الظرف بطبيعة الحال يحتاج إلى قدر كبير من الحزم، والجد، ولكن النبي ﷺ لم ينسَ في هذا الظرف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوس بحاجة إلى الراحة من عناء العمل، كما أنها بحاجة إلى من يدخل السرور حتى تنسى تلك الآلام التي

تعانيها فوق معاناة العمل الرئيسي. ولهذا نجد أن النبي ﷺ كان يرتجز بكلمات ابن رواحه وهو ينقل التراب :

اللهم لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأعادي قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها[١].

وعن أنس رضي الله عنه أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون يوم الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدًا على الإسلام ما بقينا أبدًا

أو قال على الجهاد والنبي يقول:

اللهم إن الخير خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة[٢]

لقد كان لهذا التبسط والمرح في ذلك الوقت أثره في التخفيف عن الصحابة مما يعانونه نتيجة للظروف الصعبة التي يعيشونها، كما كان له أثره في بعث الهمة والنشاط بإنجاز العمل الذي كلفوا بإتمامه، قبل وصول عدوهم[٣].

٥- تقدير ظروف الجند والإذن بالانصراف عند الحاجة:

كان الصحابة رضي الله عنهم على قدر كبير من الأدب مع النبي ﷺ ،فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورة، فيذهبون لقضاء حوائجهم، ثم يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبة في الخير واحتسابًا له،

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥٧/٥) رقم ٤١٠٦.
(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (١٤٣٢/٣) رقم ١٢٩.
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤٨٢.

فأنزل الله فيهم:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٦٢].

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم التي تعرض لهم فأذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها، واستغفر لهم(١)، فكان النبي ﷺ بالخيار، إن شاء أذن له إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن، ولم ير فيه مضرة على الجماعة، فكان يأذن أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة ويقتضيه مقام الحال(٢).

٦- **تقسيم الصحابة إلى دوريات للحراسة:**

قسم النبي ﷺ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسة نبيهم ﷺ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنودًا وقيادة، حتى أنهم استمروا ذات يوم من السحر إلى جوف من الليل في اليوم الثاني، ويفوت المسلمون الصلوات الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الاشتباك المباشر للقتال، واستطاع علي

---

(١) انظر: صفوة التفاسير للصابوني (٢/٣٥١).
(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٤١٠).

بن أبي طالب مع مجموعة من الصحابة أن يصدوا محاولة عكرمة ابن أبي جهل، بل تصدى علي لبطل قريش عمرو بن عبد ود وقتله[١]، وكانت هناك مجموعة من الأنصار تقوم بحراسة النبي ﷺ في كل ليلة على رأسهم عباد بن بشر رضي الله عنه.

٣٥- معجزات أيّد الله بها نبيه ﷺ:

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزات للنبي ﷺ، منها تكثير الطعام الذي أعده جابر بن عبد الله، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق نُحفِّر[٢]، فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أهيل[٣] أو أهيم[٤].

قال جابر: فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق[٥]، فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة[٦]، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي[٧]. قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «كم

---

(١) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان، ص٥٠٤.
(٢) محفر: اسم فاعل من حفّر.
(٣) أهيل: رملاً سائلاً. انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/٢٨٩).
(٤) أهيم: الرمل الذي لا يتمالك، انظر: لسان العرب (٣/٨٥٨).
(٥) العناق: الأنثى من أولاد الماعز، انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/٣١٠).
(٦) البرمة: هي القدر مطلقًا، انظر: النهاية في غريب الحديث (١/١٢١).
(٧) الأثافي: الحجارة التي تنصب ويجعل القدر عليها، انظر: القاموس المحيط (٣/١٢٠)

هو؟» فذكرت له، فقال «**كثير طيب**»، قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي. فقال: «**قوموا**»، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحكِ جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال «**ادخلوا ولا تضاغطوا**»(١) فجعل يكثر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: «**كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة**»(٢).

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمي عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بنية، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: تعالي يا بنية ما هذا معك؟ فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد، وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيانه، قال: هاتيه، قالت: فصببته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دعا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: **اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء**، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب(٣).

ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق إخباره ﷺ عمار بن ياسر - وهو يحفر

---

(١) ولا تضاغطوا: أي لا تزاحموا. انظر: لسان العرب (٢/٥٣٧).
(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/٥٥) رقم ٤١٠١.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٤١).

معهم الخندق- بأن ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين وكان في جيش علي[١]، وعندما اعترضت صخرة الصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتتت قال إثر الضربة الأولى: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة**»، ثم ضربها الثانية فقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض**»، ثم ضرب الثالثة، وقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة**»[٢]. وقد تحققت هذه البشارة التي أخبرت عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها في وقت كان المسلمون فيه محصورين في المدينة يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارس(٣).

٣٦- بث الخذلان في صفوف الأعداء:

استخدام النبي ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فلقد كان يعلم ﷺ أن هناك تصدعًا خفيًا بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها، والآن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه، وقال له: يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: «**إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن**

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤٨.
(٢)المصدر نفسه، ص٤٤٩.
(٣)انظر: المرأة في العهد النبوي، ص١٧٥.

استطعت فإن الحرب خدعة»[١].

فقام نعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمنًا لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية، فالحرب خدعة[٢].

وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب؛ مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم.

وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ- أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

ب- أنه ذكر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول ﷺ، فكان هذا الأساس سببًا في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ج- أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته. وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب[٣].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/١١٣).
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٣٠).
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤٧٧.

٣٧- أهمية الصلاة الوسطى:

قال ﷺ : «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»(١).

وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الحديث على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوص عليه، وألزم القاضي الماوردي مذهب الشافعي بهذا لصحة الحديث، وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الصنيع على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال كما هو مذهب مكحول والأوزاعي(٢).

قال الدكتور البوطي(٣): لقد فاتت النبي ﷺ صلاة العصر- كما رأيت في هذه الموقعة، لشدة انشغاله، حتى صلاها قضاء بعدما غربت الشمس. وفي روايات أخرى غير الصحيحين أن الذي فاته أكثر من صلاة واحدة، صلاها تباعًا بعدما خرج وقتها وفرغ لأدائها، وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزًا إذ ذاك ثم نسخ حينما شرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً وركبانًا عند التحام القتال بينهم وبين المشركين، إذ النسخ على فرض صحته ليس واردًا على مشروعية القضاء، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الانشغال، أي أن نسخ صحة التأخير ليس نسخًا لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضًا، بل هي مسكوت عنها، فتبقى على مشروعيتها

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق رقم ٤١١١.
(٢) انظر: الأساس في السنة (٢/٦٨٢).
(٩٩) أنظر:فقه السيرة للبوطي ص ٢٤٠-٢٤١

السابقة[١].

٣٨- بين التصور والواقع:

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله وصحبتموه؟ قال: نعم، يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ، بالخندق ، ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين.

هذا تابعي يلتقي بالصحابي حذيفة ويتخيل أنه لو وجد مع رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام، والخيال شيء والواقع شيء آخر، والصحابة - رضي الله عنهم - بشر، لهم طاقات البشر، وقدراتهم، وقد قدموا كل من يستطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس فضلا عن المال والجهد، وقد وضع ﷺ الأمور في نصابها بقوله: «**خير القرون قرني**» فبين أن عملهم لا يعدله عمل.

إن الذين جاءوا من بعد، فوجدوا سلطان الإسلام ممتدًا، وعاشوا في ظل الأمن والرخاء والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر، وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة حتى قام الإسلام

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، ص٢٢٣.

في الأرض .

٣٩- ولينصرن الله من ينصره:

إنَّ المؤمنين إذا اجتهدوا في الدفاع عن دينهم وجهاد أعداء الله وأعداء رسوله وفعلوا قصارى طاقتهم في نصر الله ورسالته فإن الله - سبحانه و تعالى - يكرمهم بعون منه وتأييد فيصنع لهم ويهيئ لهم من أسباب الغلبة والنصر ويبعث لهم من جنود العز والتمكين ما لم يكن لهم على حساب ويؤيدهم بجند من عنده وما يعلم جنود ربك إلا هو فإذا صدقنا إيماننا وتمسكنا بديننا والتزمنا بنهج نبينا في كل أمورنا فلا يضرنا كيد الكائدين ولا مكر الماكرين..

فالله جل جلاله يدافع عن الذين آمنوا كما قال جل ذكره: ﴿إِنَّ اللهَّ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالله سبحانه نعم المولى ونعم النصير يبتلي أولياءه ليميز الخبيث من الطيب فإذا تبين أهل محبته وأهل دينه وتميزت الصفوف جاءهم وعده ووقع خبره ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

٤٠- شدة عداوة اليهود للإسلام وأهله:

إنهم قومٌ عادوا الإسلام وعادوا نبي الإسلام ووقفوا في طريق تبليغ دعوة الله حجر عثرة ومنْع دون وصوله إلى الناس، ولم يُجدِ معهم أي قانون ولم يحترموا أيَّ عهد فكان ما كان من تعامل النبي الأكرم معهم، بحكمة السياسي المحنك، وقوة المسلم الأبيّ وتوفيق الله لنبيه ﷺ ،لا سيما مع قوم شيمتهم اللؤم وطبعهم الغدر ونعتهم الخيانة والجبن..

وفي هذه المعركة نرى بنو قريظة نقضوا العهد ،جاء في الصحيحين" أنَّ النبي ﷺ لَمَّا رجع من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم قال: فإلى أين؟ قال: ههنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم."

ونادى ﷺ في المسلمين" :ألا لا يُصلين أحدٌ العصرَ-إلا في بني قريظة"، فسار الناس، فأدرك بعضهم في الطريق، فقال بعضهم: لا نُصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم بل نُصلي، ولم يرد منا بذلك، فذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فلم يُعنف أحدًا منهم."

ثم أنهم نزلوا على حُكْمِ رسول الله ﷺ فيهم، وقد كانت بنو قريظة حُلفاء للأوس- فأحبَّ رسول الله ﷺ أن يَكِلَ الحُكم عليهم إلى واحدٍ من رؤساءِ الأوسيين، فجعل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ، وكان قد أُصيب بسهمٍ في الخندقِ في خيمةٍ هناك، فلمَّا حكَّمه رسولُ الله ﷺ في بني قريظة وأرسل إليه بذلك، أتى على حِمارٍ، فلمَّا دَنَا من المسجد، قال للأنصار" :قُوموا إلى سيدكم أو خيركم"، ثم قال" :إنَّ هؤلاء نزلوا على حكمك"، قال: "تقتل مقاتلهم وتسبي ذريتهم"، فقال: له النبي ﷺ" :-قضيت بحكمِ الله تعالى."

وحاصر رسول الله ﷺ بني قريظة (وهم متحصنون في حصونهم) خمسًا وعشرين ليلة وقيل خمسة عشر-يومًا، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب .

ودعونا نواصل الدروس والعبر من هذه الغزوة ومن قصة بني قريضة

فلقد استنبط علماء الحديث والسيرة من قصةِ بني قريظة هـذه أحكامًا مُهمِّة نُجملها فيما يلي:

٤١- جواز قتالِ مَن نقض العهد :

وقد جعل الإمام مسلم- رحمه الله- هذا الحكم عنوانًا لغزوةِ بني قريظة، فالصلحُ والمعاهدة والاستئمان بين المسلمين وغيرهم، كُلُّ ذلك ينبغي احترامه على المسلمين ما لم ينقض الآخرون العهدَ أو الصلحَ أو الأمان، وحينئذٍ يجوز للمسلمين قتالهم إنْ رأوا المصلحةَ في ذلك.

٤٢- جواز التحكيم في أمور المسلمين ومهامهم:

قال النووي- رحمه الله-: فيه جواز التحكيم في أمورِ المسلمين وفي مهامهم العظام والرجوع في ذلك إلى حُكْمِ مسلمٍ عادلٍ صالحِ الحكم، وقد أجمع العلماء عليه في شأن الخوارج، فإنهم أنكروا على عليٍّ التحكيم، وأقام الحجةَ عليهم، وفيه جواز مصالحة أهل قرية أو حصنٍ على حكمِ حاكمٍ مسلمٍ عادلٍ صالح للحكم أمين على هذا الأمر، وعليه الحكم بما فيه مصلحة المسلمين، وإذا حكم بشيء لزم حكمه، ولا يجوز الإمام ولا لهم الرجوع، ولهم الرجوع قبل الحكم.

٤٣- مشروعية الاجتهاد في الفروع وضرورة وقوع الخلاف فيها:

وفي اختلاف الصحابة في فهمِ كلام رسول" ﷺ «ألا لا يُصلين أحدٌ العصرَ

إلا في بني قريظة» على النحو الذي روينا، مع عدمِ تعنيف النبي ﷺ أحدًا منهم أو معاتبته، دلالة مهمة على أصلٍ من الأصولِ الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع واعتبار كل المتخالفين معذورًا ومثابًا، سواء قلنا إنَّ المصيب واحد أو متعدد، كما أنَّ فيه تقريرًا لمبدأ الاجتهادِ في استنباطِ الأحكام الشرعية، وفيه ما يدلُّ على أنَّ استئصال الخلاف في مسائلِ الفروع التي تنبع من دلالاتٍ ظنيةٍ، أمرٌ لا يمكن أن يُتصوَّر أو يتم، فالله سبحانه وتعالى تعبَّد عباده بنوعين من التكاليف:

أولهما: تطبيق أوامر معينة واضحة تتعلق بالعقيدة أو السلوك.

ثانيهما: البحث وبذل الجهد ابتغاء فهم المبادئ والأحكام الفرعية من أدلتها العامة المختلفة، وليس المطلوب ممن أدركته الصلاة في بادية التبست عليه جهة القبلة فيها، أكثر من أن تتجلى عبوديته لله تعالى في أنْ يبذلَ كل ما لديه من وسعٍ لمعرفةِ جهة القبلة حسب فهمه وما يبدو له من أدلة، حتى إذا سكنت نفسه إلى جهةٍ ما، استقبلها فصلَّى إليها.

ثم إنَّ هنالك حِكَمًا باهرةً لمجيء كثير من الأدلة والنصوص الشرعية الظنية الدلالة غير قطعية من أبرزها، أن تكون الاجتهادات المختلفة في مسألةٍ ما، كلها وثيقة الصلة بالأدلة المعتبرة شرعًا، حتى يكون للمسلمين متسع في الأخذ بأيها شاءوا حسبما تقتضيه ظروفهم ومصالحهم المعتبرة، وتلك من أجلى مظاهر رحمة الله بعباده، في كل عصرٍ وزمن.

وإذا تأمَّلت هذا، وعلمت أنَّ السعي في محاولةِ القضاء على الخلافِ في

مسائل الفروع، معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلهي في تشريعه، عدا أنه ضرب من العبث الباطل، إذْ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألةٍ ما دام دليلها ظنيًّا محتملاً، لو أمكن ذلك أن يتم في عصرنا، لكان أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ، ولكان أولى الناس بأن لا يختلفوا هم الصحابة، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما قد رأيت؟!

٤٤- يعرفونه كما يعرفون أبناءهم :

جيء برئيس بني قريظة كعب بن أسد، وقبل أن يضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنقه جرى بينه وبين كعب الحوار التالي: قال رسول الله ﷺ: «كعب بن أسد؟». قال كعب بن أسد: نعم يا أبا القاسم. قال رسول الله ﷺ: «ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم، وكان مصدقًا بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟». قال كعب: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين يهود. فأمر رسول الله ﷺبضرب عنقه فضربت.

لقد رأيت من مجرى كلام كعب بن أسد مع إخوانه اليهود أنهم كانوا على يقينٍ من نبوةِ محمد ﷺ وعلى اطلاعٍ تامٍّ على ما أثبتته التوراة من الحديثِ عنه وعن علاماته وبعثته، ولكنهم كانوا عبيدًا لعصبيتهم وتكبرهم، وذلك هو سبب الكفر عند كثيرٍ ممن يتظاهر بعدمِ الإيمان والفهم، وذلك هو الدليل البين على أنَّ الإسلامَ في عقيدته وعامة أحكامه إنما هو دين الفطرة البشرية الصافية، ينسجم في عقيدتِهِ مع العقلِ وينسجم في تشريعاته وأحكامه مع حاجاتِ

الإنسان ومصالحه، فلن تجد من عاقلٍ سمع باسم الإسلام وألمَّ بحقيقتِهِ وجوهره ثم كفر به كفرًا عقليًّا صادقًا، إنما هو أحد شيئين، إما أنه لم يسمع بالإسلامِ على حقيقته وإنما قيل له عنه كلامٌ زائفٌ باطل، وإما أنه وقف على حقيقته واطلع على جوهره، فهو يأباه إباءً نفسيًّا لحقدٍ على المسلمين أو غرضٍ أو هوى يخشى فواته.

٤٥- حكم القيام إكرامًا للقادم :

أمرَ النبيُّ ﷺ الأنصارَ حينما أقبل نحوهم سعد بن معاذ راكبًا دابته أن يقوموا إليه تكريمًا له، ودلَّ على هذا التعليل قوله: لسيدكم أو خيركم، وقد استدلَّ عامة العلماء بهذا وغيره على مشروعية إكرام الصالحين والعلماء بالقيام إليهم في المناسباتِ الداعية إلى ذلك عرفًا.

يقول الإمام النووي في تعليقٍ على هذا الحديث: "فيه إكرام أهل الفضل وتلقيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا.. هكذا احتجَّ به جماهير العلماء لاستحباب القيام، قال القاضي: وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمَن يقومون إليه وهو جالس ويمثلون قيامًا طول جلوسه.. قلتُ: القيام للقادم من أهل الفضل مستحب، وقد جاء فيه أحاديث ولم يصح في النهي عنه شيء صريح.

ومن الأحاديث الثابتة الدالة أيضًا على ذلك ما جاء في حديث كعب بن مالك المتفق عليه، وهو يقصُّ خبر تخلفه عن غزوة تبوك، قال: فانطلقتُ أتأمم رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة، ويقولون لي: لتهنك توبة الله عليك، حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسول الله جالس حوله الناس،

فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله ﷺ يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره- فكان كعب لا ينساها لطلحة.

ومن ذلك أيضًا ما رواه الترمذي وأبو داود والبخاري في الأدبِ المفرد عن عائشة- ﷺ- قالت" :**ما رأيتُ أحدًا من الناسِ كان أشبه بالنبي ﷺ كلامًا ولا حديثًا ولا جلسةً من فاطمة، قالت: وكان النبي ﷺ إذا رآها أقبلت رحَّب بها ثم قام فقبَّلها، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يُجلسها في مكانِهِ، وكانت إذا أتاها النبي ﷺ رحَّبت به ثُمَّ قامت إليه فقبَّلته.**"

واعلم أنَّ هذا كله لا يتنافى مع ما صحَّ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «**مَن أحبَّ أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**»، لأنَّ مشروعيةَ إكرام الفضلاء وتوقيرهم لا تستدعي السعي منهم إلى ذلك أو تعلق قلوبهم بمحبته؛ بل إنَّ من أبرز صفاتِ الصالحين والفضلاء أن يكونوا متواضعين لإخوانهم زُهادًا في طلبِ هذا الشيء، أرأيت إلى الفقير المحتاج؟ إنَّ الأدب الإسلامي يُوصيه ويُعلمه الترفع عن المسألةِ وإظهار الفاقة والحاجة للناس، ولكن هذا الأدب الإسلامي نفسه يُوصي الأغنياء بالبحثِ عن هؤلاء الفقراء المتعففين ويأمرهم وإعطائهم من فضولِ أموالهم.

غير أنَّ من أهم ما ينبغي أن تعلمه في هذا الصدد أنَّ لهذا الإكرام حدودًا إذا تجاوزها، انقلب الأمر محرمًا، واشترك في الإثم كلٌّ من مقترفه والساكت عليه.

فمن ذلك ما قد تجده في مجالس بعض المتصوفة من وقوف المريدين عليهم وهم جلوس، يقف الواحد منهم أمام شيخه في انكسارٍ وذلٍّ مطرقًا لا يطرف

إلى أن يأذن له بالجلوس، ومنه ما يفعله بعضهم من السجودِ على رُكبةِ الشيخ أو يده عند قدومه أو ما يفعله من الحبو إليه عندما يغشى المجلس، ولا يخدعنَّك ما قد يُقال في تسويغِ ذلك من أنه أسلوب من التربيةِ للمريد!

فالإسلامُ قد شرَّع مناهجَ وأساليبَ للتربيةِ وحظر على المسلمين الخروج عليها، وليس بعد الأسلوبِ النبوي في التربيةِ أسلوبٌ.

٤٦- البلاء والصبر:

ظهر في هذه المعركة حسن بلاء النبي ﷺ وأصحابه حيث إنهم صبروا على ما قدره الله – تعالى – عليهم بقلوب ثابتة وعزائم راسخة فلم تستفزهم الكروب ولم تقعدهم الخطوب بل كانوا كلما اشتدت الكروب وادلهمت الخطوب زادهم ذلك إيماناً وتسليماً وتصديق ذلك في هذه الغزوة قوله – تعالى –: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب:٢٢].

٤٧- الحلال والحرام:

عرضت قريش فداء مقابل جثة عمرو بن ود، فقال ﷺ : «ادفعوا إليهم جيفته، فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدية فلم يقبل منهم شيئًا».

حدث هذا والمسلمون في ضنك من العيش، ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من الناس المحسوبين على المسلمين الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا وما شابهه؟.

٤٨- جزاء عادل:

إن الحكم الذي نزل ببني قريظة صدر لأنهم من الناحية القانونية خونة فلقد أثبتت التجارب والأحداث منذ وصول النبي ﷺ المدينة أنَّ اليهود عاشوا وهم يعملون بكل طاقاتهم لاستئصال الإسلام والقضاء عليه والكيد للنبي ﷺ ونشر الإشاعات ضده والغدر والخيانة كلما سنحت لهم الفرصة ،فكان ما نزل بهم عين العدل ويتفق مع نصوص القوانين الحديثة.

٤٩- تخطيط محكم:

القائد الحكيم دائماً يتصرف حسبما تمليه الحاجة ويتطلب الموقف لذلك وجه النبي ﷺ على:

١- طول الخندق لأنه كان يتوقع الهجوم في كل لحظة ويخشى أن يهاجمه المشركون على حين غرة ،لذلك احتاط للأمر وأقام الحراسة الدائمة على طول الخندق ،وقد علم أصحابه كلمة السر كي يتعارفون بها في ظلمات الليل ولا يقتل بعضهم بعضا وهذه الكلمة هي "هم لا ينصرون "أرئيت الدقة والمهارة والتنظيم.

٢- طائفة أخرى من المسلمين تحرس المدينة خوفا من أن يقوم بني قريظة بفتح ثغرة للمسلمين فأرسل جند ليؤمنوا هذا الجانب وكانت كلمة سرهم "الله اكبر".

٣- فرقة أخرى تحرس النبي ﷺ مع العلم أنَّ العرب كانت تنفر من القتل

غيلة وغدرا وتعده دناءة وعارا ،لكن اليهود يعدون الغدر شرفا وهـو يتخـوف منهم .

٥٠ -جنود الله تأتي بعد العمل بالأسباب:

المسلمين صبروا صبرا جميلا ومع هذا الابتلاء الشديد كان الصبر لهم ضياء ،فما ضعفوا وما استكانوا لإيمانهم القوي أنَّ الله يحقق لعباده الصالحين ما وعدهم به من النصر والتمكين والرسول ص كان يلح في الدعاء ومن دعاءه كما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم(١).و من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: نعم. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا (٢)فأرسل الله جنده:

١- **الريح**: وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ والمسلمين كانوا قريبًا منهم، ولم يكن بينهم إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها ولا خبر عندهم بها... ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

٢- **الملائكة**: وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط(٣)، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضها في بعض، وأرسل عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر حتى

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب (٥/٥٩) رقم ٤١١٤.
(٢) مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (١٨/٤).
(٣) الفساطيط: جمع فسطاط نوع من الأبنية في السفر وهو دون السرادق.

كان سيد كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إليَّ فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم الرعب(١).

وفي الأخير أسال الله جل وعلا بمنه وكرمه أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله لوجهه خالصاً .

اللهم إنا نسألك الشهادة في سبيلك بعد طول عمرٍ وحسن عمل يا أرحم الراحمين .

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٤٤/٤).

غزوة خيبر دروس وعبر

الحمد لله رب العالمين، نحمده تعالى ونستغفره ونستعينه ونستهديه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء:١].

وبعد

ما أجمل أن نداوي الجراح المكلومة الغائرة بالسيرة العطرة المعطرة لرسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، فسيرته بلسم للجراح وملاذ للخائف وحصٌن للراجي ، والعوذ عندما تدلهم المصائب والأزمات.

أن على الأمة اليوم أن تستنير بأنوار السيرة النبوية التي تضيء القلوب والنفوس والعقول ، كما تضيء العالم والمنهج والسير والمقصد .

ومن هذا الباب لا زلنا وإياكم في هذه الموسوعة المباركة بإذن الله :

(غزوات النبي المصطفى دروس وعبر).

ومع :(غزوة خيبر دروس وعبر)

وأسال الله الكريم الوهاب العزيز التواب أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه إنه ولي ذلك والقادر عليه .

غزوة خيبر:

ومدينة خيبر هي مدينة مليئة بالحصون و بها ماء من تحت الأرض و طعام يكفيها سنوات و بها عشرة آلاف مقاتل من اليهود منهم آلاف يجيدون الرمي، و كانت خيبر ممتلئة بالمال و كان اليهود يعملون بالربا مع جميع البلدان.

غزوة خيبر:

ذكر ابن إسحاق(١) أنها كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وذكر الواقدي(٢) أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة، بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد(٣) إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبعٍ، وقال الإمامان الزهري ومالك: إنها في محرم من السنة السادسة(٤)، وقد رجح ابن حجر(٥) قول ابن إسحاق على قول الواقدي(٦).

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٤٥٥)، معلقًا.
(٢) انظر: المغازي (٢/٦٣٤).
(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/١٠٦).
(٤) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١/٣٣)
(٥) انظر: الفتح (١٦/٤١)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠٠.
(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠٠.

۞غزوة خيبر :

كانت الغزوة بعد عشرون يوماً من صلح الحديبية، و كان عدد المقاتلين المسلمين وقتها ألف و ثمان مائة مقاتل فقط لأن الرسول قرر أن يقاتل معه في هذه المعركة كل من كان في صلح الحديبية فقط وهم الذين سوف يُقسم عليهم الغنائم أما من زاد عليهم فله ثواب الجهاد فقط و ليس له غنائم.

۞غزوة خيبر:

التي فيها قال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُ الله ورسوله ويُحبُّه الله ورسوله يفتح الله عليه وليس بفرار» ،فلما كان من الغد دعا علياً وهو أرمد شديد الرمد فقال :" سر " ، فقال : يا رسول الله ما أبصر موضع قدمي ، فتفل عليه الصلاة والسلام في عينيه وعقد له اللواء ودفع إليه الراية وقال :« خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك »، فقال : على ما أقاتلهم يا رسول الله قال :« على أن يشهدوا أن لا اله إلا الله واني رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم عند الله تعالى».

۞غزوة خيبر:

التي تحوي كثيراً من العبر والحكم والدروس التي يمكن أن يستفيد منها المسلمون على مر التاريخ والعصور، ومن ذلك أن اليهود كانوا على مر التاريخ ومنذ عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا، بل قبل ذلك مصدر خطر داهم على العرب والمسلمين، فهم قوم غدر وخيانة يحقدون على الإسلام والمسلمين، وينقضون العهود والمواثيق، وهم دائما يخونون ولا يؤمنون، وهم الذين بسبب

كفرهم وحقدهم قتلوا عددا من الأنبياء وما زالوا إلى أيامنا هذه مصدر خطر كبير وشر مستطير.

غزوة خيبر:

إن هذه الغزوة توضح معلمًا عامًا لخطة المصطفى ﷺ لتوحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام، وتحويلها إلى قاعدة لنشر الإسلام في العالمين، فقد خطط عليه السلام ألا يسير إلى مكة إلا بعد أن يكون قد مهد شمال الحجاز إلى حدود الشام، وأن تكون الخطوة الأخيرة هي الاستيلاء على خيبر وغيرها من المراكز اليهودية شمال الحجاز وخاصة خيبر وفدك ووادي القرى؛ ليحرم القبائل المحيطة به من أي مركز يمكن أن يعتمدوا عليه في مهاجمة الدولة الإسلامية الناشئة .

غزوة خيبر :

كانت خيبر هي وكر الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين _ الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي _ وبغطفان وأعراب البادية، وكانوا هم أنفسهم يستعدون للقتال، وقد عاش المسلمون بسببهم محنا متواصلة، اضطرت المسلمين إلى الفتك ببعض رؤوسهم أمثال سلام بن أبي الحقيق وأسير بن زارم، ولكن كان لابد من عمل أكبر من ذلك إزاء هؤلاء اليهود، وما كان يمنع النبي ﷺ من مجابهتهم إلا وجود عدو أكبر

وأقوى وألد ألا وهو قريش .

غزوة خيبر :

لقد كانت الغزوات السابقة كلها قائمة على أسباب دفاعية اقتضت المسلمين أن يدافعوا بها عن وجودهم وأن يردوا بها هجمات أعدائهم كما قد رأيت لدى بيان سبب كل غزوة منها .

أما هذه الغزوة وهى أول غزوة تأتى بعد وقعة بني قريظة وصلح الحديبية، فإن لها وضع آخر وإنها لتختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك التي كانت من قبلها وهى تدل بذلك على أن الدعوة الإسلامية قد دخلت مرحلة جديدة من بعد صلح الحديبية .

غزوة خيبر :

التي خاضها النبي ﷺ بنفسه والتي كان فيها عز ونصر للمؤمنين وذل وهوان لليهود الذين عاندوا واستكبروا عن قبول دعوة الحق والدخول في دين الإسلام وغدروا وخانوا، هؤلاء اليهود الذين لم يدخلوا في دين الإسلام بعدما بلغهم أصل الدعوة الإسلامية التي دعا إليها النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت قلوبهم وصدورهم مليئة بأحقادهم ضد الإسلام والمسلمين منذ عهد النبي ﷺ وإلى أيامنا هذه.

غزوة خيبر :

التي سببها: لما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقوي أجنحة الأحزاب الثلاثة، وهو قريش، وأمن منه تماماً بعد صلح الحديبية أراد أن

يحاسب الجناحين الباقين ـ اليهود وقبائل نجد ـ حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولاً.

غزوة خيبر :

والجديد فيها وما يختلف عن الغزوات السابقة، هي حصونهم وقلاعهم التي أقاموا بها، فمحاولة الهجوم عليهم تتطلب جهداً ضخماً وتعبئة مناسبة ومؤونة كافية للجيش لفترة طويلة، والمسلمون لا يملكون هذه الطاقات في مقابل اليهود الذي قيل عنهم: (وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير، ولو حصروا لسنين لكفاهم، وماء متوفر يشربونه في حصونهم، وما أرى لأحد بهم من طاقة).

والمسلمون لم يسبق لهم من قبل خبرة في قتال أهل الحصون إلا ما كان من بني قريظة يوم حربهم.

١- النصر من عند اللّه :

إن من أهم ما ينبغي أن نعتبر به في غزوة خيبر أن النصر من عند الله عزّ وجلّ، ينصر من يشاء كما قال في الكتاب العزيز :﴿وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحُكِيمِ﴾[آل عمران:١٢٦]، فالله تبارك وتعالى ينصر عباده المؤمنين الذين يجاهدون في سبيله وينصرون دينه ويطبقون شرعه بأداء الواجبات واجتناب المحرمات. قال الله تبارك وتعالى:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمُعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[الحج:٤١]

٢- الإخلاص في الجهاد:

جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ ، فآمن به، واتبعه، فقال: أهاجر معك؟ فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ شيئًا فقسمه، وقسم للأعرابي فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به للنبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «قسم قسمته لك» قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمي هاهنا، وأشار إلى حلقه، بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق الله يصدقك، ثم نهض

إلى قتال العدو، فأُتي به إلى النبي ﷺ، وهو مقتـول، فقـال: «أهـو هـو؟» قـالوا: نعم. قال: «صدق الله فصدقه». فكفنه النبي ﷺ في جبته، ثم قدمه، فصلى عليه، وكان من دعائه له: «اللهم هذا عبدك خرج مهـاجرًا في سـبيلك، قُتـل شـهيدًا، وأنا عليه شهيد»[1].

٣- دخل الجنة وما سجد لله سجدة:

جاء عبدٌ أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم لسـيده، فلـما رأى أهـل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يـزعم أنـه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ وما تـدعو إليـه؟ قـال: «أدعـو إلى الإسـلام، وأن تشـهد أن لا إلـه إلا الله وأني رسول الله، وألا تعبد إلا الله» قال العبـد: فـما لي إن شـهدت وآمنـت بـالله عـز وجل، قال: «لك الجنة إن مت على ذلك».

فأسلم ثم قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال رسـول الله ﷺ: «أخرجها من عندك وارمها بـ (الحصباء) فإن الله سيؤدي عنك أمانتك» ففعـل فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقـام رسـول الله ﷺ في الناس، فوعظهم وحضهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهود قتـل فيمن قتل العبد الأسود واحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل في الفسطاط فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفسطاط، ثـم أقبـل عـلى أصـحابه، وقـال: «لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خيبر، ولقد رأيـت عنـد رأسـه اثنتـين مـن

---

(١) أخرجه النسائي (٤/٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/٢٩١)، والحاكم (٣/٥٩٥)، والبيهقـي (٤/١٥، ١٦)، وإسناده صحيح نقلا عن زاد المعاد (٣/٣٢٤).

الحور العين، ولم يصل لله سجدة قط»[1].

٤- بطل لكنه إلى النار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجل لا يدع للمشركين شاذة ولا فاذة[2] إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه من أهل النار» فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان من أهل النار؟ فقال رجل: والله لا يموت على هذه الحال أبدًا، فاتبعه حتى جرح، فاشتدت جراحته واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فجاء رجل إلى رسول الله فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «وما ذاك» فأخبره، فقال النبي ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وإنه لمن أهل الجنة»[3].

٥- صفية بنت حيي وزواجها من النبي ﷺ:

زواج رسول الله ﷺ من صفية بنت حيي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص –حصن بني أبي الحقيق– كانت صفية في السبي فأعطاها دحية الكلبي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ: فقال يا رسول الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قومها، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النبي ﷺ ما أشار به الرجل، وقال لدحية، «خذ جارية من السبي غيرها»[4]، ثم

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٣٢٣، ٣٢٤)، السيرة الحلبية (٣/٣٩).
(٢) الشاذ: الذي يفارق الجماعة، الفاذ: الذي لم يختلط بالجماعة.
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ٤٢٠٧.
(٤، ٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٣٨٣).

أخذها رسول الله ﷺ وأعتقها وجعل عتقها صداقها، ثم تزوجها بعد أن طهرت من حيضتها[١]، وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النبي ﷺ من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها، فحملها وراءه فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها، فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم، وعطرتها، وزفتها إلى النبي ﷺ وبنى بها، فسألها: «**ما حملك على الامتناع من النزول أولا**» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه، ومكث رسول الله بالصهباء ثلاثة أيام، وأولم عليها ودعا المسلمين، وما كان فيها من لحم وإنما التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ له خلفه ومد عليها الحجاب، فأيقنوا أنها إحدى أمهات المؤمنين[٢].

وقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي قد رأت رؤية، فقد روى البيهقي - رحمه الله- بإسنادٍ صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة، فقال: «**يا صفية ما هذه الخضرة؟**» فقالت: كان رأسي في حجر ابن حقيق، وأنا نائمة، فرأيت كأن قمرًا وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني، وقال: تمنين ملك يثرب[٣].

وهكذا صدق الله رؤيا صفية رضي الله عنها، وأكرمها بالزواج من رسول

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١٠١/٣).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٣٨٤/٢).
(٣) انظر: السنن الكبرى (١٣٨/٩) نقلا عن الصراع مع اليهود (١٠٣/٣).

الله ﷺ، وأعتقها من النار، وجعلها أمًّا للمؤمنين، وزوجًا في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين[١]، وقد أكرمها رسول الله ﷺ غاية الإكرام، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، وقد بلغ من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب [٢].

وهذه صفية رضي الله عنها تحدثنا عن خلق رسول الله ﷺ فتقول: ما رأيت أحدًا قط أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ، لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجر ناقته ليلاً، فجعلت أنعس، فتضرب رأسي مؤخرة الرحل، فيمسني بيده، ويقول: «يا هذه مهلاً»[٣]. وعن صفية رضي الله عنها أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ من صفية، نحن أزواجه وبنات عمه، فدخل عليها ﷺ فأخبرته فقال: «**ألا قلتِ: وكيف تكونان خير مني وزوجي محمد وأبي هارون، وعمي موسى**»[٤].

لقد تأثرت صفية بأخلاق رسول الله ﷺ، وأصبح ﷺ أحب إليها من أبيها وزوجها والناس أجمعين، بل أصبح أحب إليها من نفسها، تفديه بكل ما تملك حتى نفسها، وإذا ألم به مرض تمنت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله ﷺ سليمًا معافى، فقد أخرج ابن سعد -رحمه الله- بإسناد حسن عن زيد بن أسلم

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١٢٢/٣). (٢)

(٢)انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٣٨٤/٢).

(٣) انظر: السيرة الحلبية (٤٥/٣).

(٤)انظر: شرح المواهب اللدنية (٢٣٣/٢).

ﭬ قال: اجتمع نساؤه ﷺ في مرضه الـذي تـوفي فيـه، فقالـت صـفية رضي الله عنها: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمز بها أزواجه، فأبصر ـهن رسول الله ﷺ فقال: «مضمضن»، فقلن: من أي شيء فقال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة»(١).

وكان زواج رسول الله ﷺ بصفية فيه حكمة عظيمة، فهو لم يرد بزواجه منها قضـاء شـهوة، أو إشـباعًا لغريـزة، كـما يـزعم الأفـاكون، وإنـما أراد إعزازهـا وتكريمها، وصيانتها من أن تفـترش لرجـل لا يعـرف لهـا شرفهـا ونسـبها في قومها، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها، قد قتل أبوها من قبل، وزوجها وكثير من قومها، ولم يكن هناك أجمل مما صنعه الرسول معها، كما أن فيه ربـاط المصـاهرة بـين النبـي واليهـود عسـى أن يكـون هـذا مـا يخفـف مـن عـدائهم للإسـلام والانضواء تحت لوائه والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد، وكانت أم المـؤمنين صفية عاقلة وحليمة، وصادقة، يروى أن جارية لها أتت عمر بـن الخطـاب ﭬ فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها فسـألها عـن ذلـك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأمـا اليهـود فـإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها، فقبل منها، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، فقالت لها: اذهبي فأنت حرة.

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية، وقيـل سـنة

---

(١)انظر: زاد المعاد (٣/٣٢٨).

اثنتين وخمسين رضي الله عنها وأرضاها[١].

٦- تحريم أكل لحوم الحمر الإنسية:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية[٢]. وصح عنه تعليل التحريم بأنها رجس وهذا مقدم على قول من قال من الصحابة إنما حرمها لأنها كانت ظهر القوم وحمولتهم فلما قيل له فني الظهر وأكلت الحمر حرمها وعلى قول من قال إنما حرمها لأنها لم تخمس وعلى قول من قال إنما حرمها لأنها كانت حول القرية وكانت تأكل العذرة وكل هذا في " الصحيح " لكن قول رسول الله ﷺ «إنها رجس» مقدم على هذا كله لأنه من ظن الراوي وقوله بخلاف التعليل بكونها رجساً .

﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾[الأنعام: ١٤٥]، فإنه لم يكن قد حُرم حين نزول هذه الآية من المطاعم إلا هذه الأربعة والتحريم كان يتجدد شيئا فشيئا فتحريم الحمر بعد ذلك تحريم مبتدأ لما سكت عنه النص لا أنه رافع لما أباحه القرآن ولا مخصص لعمومه فضلا عن أن يكون ناسخا . والله أعلم .

(٢، ١) المصدر نفسه (٣٨٥/٢).

(٢) انظر: زاد المعاد (١٢٢/٤، ١٢٣) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٢١٥.

٧- حرمة وطء السبايا الحوامل:

ومن أقواله ﷺ في غزوة خيبر: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه زرع غيره» (١).

٨- حُرمة وطء السبايا غير الحوامل قبل استبراء الرحم:

ومن دروس هذه الغزوة قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها» (٢).

والاستبراء إنما يكون بأن تطهر من حيضة واحدة فقط، ولا تجب عليها العدة وإن كانت متزوجة من كافر سواء مات أو بقي حيًّا؛ لأن العدة وفاء الزوج الميت وحداد عليه، ولا يحد على الكافر كما علمت(٣).

٩- حُرمة ربا الفضل:

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا على خيبر، فجاءه بتمر جنيب فقال رسول الله ﷺ: «كل تمر خيبر هكذا؟» فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والثلاثة، فقال: «لا تفعل بِعِ الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا»(٤). فالتفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل، إذ اشترى صاعًا بأكثر من صاع، فالزيادة هنا هي الربا،

---

(١) انظر: الطبقات (٢/١١٣).

(٢)انظر: الروض الأنف (٤/٤١).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٣/١٣٤).

(٤) البخاري كتاب المغازي رقم ٤٢٤٤.

وهذا محرم، كما رأيت إذ نهى النبي ﷺ عن ذلك وأرشد إلى الحل السليم بأن يبيع ما لديه من تمر ثم يشتري بما لديه من نقود ما يشتهي من تمر؛ لأن الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الربا(١).

١٠- حُرمة بيع الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين:

روى عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: نهانا رسول الله يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال «ابتاعوا تبر الذهب بالورق والعين، وتبر الفضة بالذهب والعين»(٢). والمراد من الحديث: أن يباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل والفضة بالفضة مثلاً بمثل، بلا زيادة ولا نقص، وعندما يقابل الذهب بالفضة لا تشترط المماثلة، كما هو معلوم وثابت في الصحاح(٣).

١١- مشروعية المساقاة والمزارعة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها(٤).

وهي أن يعامل مالك الأرض غيره على ما فيها من شجر ليتعهده بالسقاية و التربية على أن الثمار تكون بينهما وقد ذهب مالك و الشافعي وأحمد رضي

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١٣٤/٣).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف (٤١/٤).
(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٣٢١.
(٤) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٢٤٨.

الله عنهم إلى صحة هذا العقد مستدلين على ذلك بمعاملته ﷺ أهالي خيبر وانفرد أبو حنيفة رضي الله عنه فلم يجوّز ذلك قال : ولا دليل في الحديث لأن خيبر فتحت عنوة فكان أهلها عبيداً لرسول الله ﷺ فما أخذه فهو له وما تركه فهو له وخالفه الصاحبان فاتفقا مع الجمهور على صحته، ثم اختلف العلماء : هل ينبغي أن يقال بصحة هذا العقد على كل أنواع الشجر أم هو خاص بالنخيل و العنب وقوفاً عند مورد الدليل إذا كانت عامة أشجار خيبر نخيلاً وعنباً والذي ذهب إليه كثير من الفقهاء هو التعميم في كل أنواع الشجر ، أما المزارعة فقد منعها قسم كبير ممن صحح عقد المساقاة ، منهم الشافعية ، وهى أن يعامل مالك الأرض شخصاً آخر على أن يعمل فيها بالزراعة و الاستنبات بجزء مما ستخرجه الأرض ، قال جمهور الشافعية هو غير صحيح ، لما ثبت فى صحيح مسلم أن النبي ﷺ نهى عن المزارعة وأمر بالمؤاجرة ، قالوا : إلا أن يكون عقد المزارعة تبعاً للمساقاة أي بأن يكون بين الشجر بياض اتفق الطرفان على زراعته ضمن اتفاقهما على عقد المساقاة .

والراجح لدى التأمل في مجموع الأدلة صحة كل من عقد المساقاة و المزارعة فقد قالوا في بيانه أن النهى كان في أول الأمر لحاجة الناس وكون المهاجرين ليست لهم أرض ، فأمر النبي ﷺ الأنصار بالتكرم بالمواساة ، ويدل له ما أخرجه مسلم من حديث جابر قال : كان لرجال من الأنصار فضول أرض وكانوا يكرونها بالثلث و الربع فقال النبي ﷺ : «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسكها» ،ثم بعد توسع حال المسلمين

زال الاحتياج فأبيحت لهم المزارعة وأن يتصرف المالك في ملكه كما يشاء ويدل على ذلك ما وقع من المزارعة و المؤاجرة في عهده ﷺ وعهد الخلفاء من بعده .

وقد تساءل بعض الباحثين: لِمَ جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر وما الحكمة من ذلك؟ وأجاب الشيخ محمد أبو زهرة على هذا فقال: إن فتح خيبر كان فتحًا جديدًا بالنسبة للعلاقات المالية التي يجري في ظلها التبادل المالي، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجري كثيرًا في يثرب(١).

١٢- حل أكل لحوم الخيل:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر، ورخص في الخيل(٢).

١٣- تحريم المتعة:

عن علي رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الأنسية(٣).

وقد رجح ابن القيم أنه لم تحرم المتعة يوم خيبر وإنما كان تحريمها عام الفتح بقوله في زاد المعاد "هذا هو الصواب وقد ظن طائفة من أهل العلم أنه حرمها يوم خيبر واحتجوا بما في " الصحيحين " من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه " أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية

---

(١) انظر: خاتم النبيين (١١٠٤/٢)، الصراع مع اليهود (١٣٦/٣).
(٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٢١٩.
(٣) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٢١٦.

. وفي " الصحيحين " أيضا : أن علياً رضي الله عنه سمع ابن عباس يلين في متعة النساء فقال مهلا يا ابن عباس فإن رسول الله ﷺ " نهى عنها يوم خيبر وعن لحوم الحمر الإنسية وفي لفظ للبخاري عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية . ﷺ أباحها عام الفتح ثم حرمها قالوا : حرمت ثم أبيحت ثم حرمت . قال الشافعي : لا أعلم شيئاً حُرّم ثم أُبيح ثم حُرّم إلا المتعة قالوا : نسخت مرتين وخالفهم في ذلك آخرون وقالوا : لم تحرم إلا عام الفتح وقبل ذلك كانت مباحة . قالوا : وإنما جمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بين الإخبار بتحريمها وتحريم الحمر الأهلية لأن ابن عباس كان يبيحهما فروى له علي تحريمهما عن النبي ﷺ ردا عليه وكان تحريم الحمر يوم خيبر بلا شك وقد ذكر يوم خيبر ظرفا لتحريم الحمر وأطلق تحريم المتعة ولم يقيده بزمن كما جاء ذلك في " مسند الإمام أحمد " بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ حرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر وحرم متعة النساء وفي لفظ حرم متعة النساء وحرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر هكذا رواه سفيان بن عيينة مفصلاً مميزاً فظن بعض الرواة أن يوم خيبر زمن للتحريمين فقيدهما به ثم جاء بعضهم فاقتصر على أحد المحرمين وهو تحريم الحمر وقيده بالظرف فمن ها هنا نشأ الوهم . وقصة خيبر لم يكن فيها الصحابة يتمتعون باليهوديات ولا استأذنوا في ذلك رسول الله ﷺ ولا نقله أحد قط في هذه الغزوة ولا كان للمتعة فيها ذكر البتة لا فعلا ولا تحريما بخلاف غزاة الفتح فإن قصة المتعة كانت فيها فعلا وتحريما مشهورة وهذه الطريقة أصح الطريقتين . وفيها طريقة ثالثة وهي أن رسول الله

ﷺ لم يحرمها تحريما عاما البتة بل حرمها عند الاستغناء عنها وأباحها عند الحاجة إليها وهذه كانت طريقة ابن عباس حتى كان يفتي بها ويقول هي كالميتة والدم ولحم الخنزير تباح عند الضرورة وخشية العنت فلم يفهم عنه أكثر الناس ذلك وظنوا أنه أباحها إباحة مطلقة وشببوا في ذلك بالأشعار فلما رأى ابن عباس ذلك رجع إلى القول بالتحريم .

١٤- مشاركة المرأة في غزوة خيبر:

روت أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غفار قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار فقلن: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا -وهو السير إلى خيبر- فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: على بركة الله، قالت: فخرجنا معه، قالت: فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله، قالت: وإذا بها دم مني وكانت أول حيضة حضتها، قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم قال: «ما لك؟ لعلك نفست؟» قالت: قلت: نعم؟ قال: «فأصلحي من نفسك ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحا ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك» قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبدًا[1]، وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها، قالت: وكانت لا تطهر من حيضها، إلا جعلت في طهرها ملحًا،

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/٢٠٥).

وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت(١). وهي صورة حية أمام كل فتاة مسلمة، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين(٢).

١٥- جواز القتال في الأشهر الحرم :

من دروس وحكم هذه الغزوة جواز محاربة الكفار ومقاتلتهم في الأشهر الحرم فإن رسول الله ﷺ رجع من الحديبية في ذي الحجة فمكث بها أياما ثم سار إلى خيبر في المحرم كذلك قال الزهري عن عروة عن مروان والمسور بن مخرمة وكذلك قال الواقدي : خرج في أول سنة سبع من الهجرة ولكن في الاستدلال بذلك نظر فإن خروجه كان في أواخر المحرم لا في أوله وفتحها إنما كان في صفر . وأقوى من هذا الاستدلال بيعة النبي ﷺ أصحابه عند الشجرة بيعة الرضوان على القتال وألا يفروا وكانت في ذي القعدة ولكن لا دليل في ذلك لأنه إنما بايعهم على ذلك لما بلغه أنهم قد قتلوا عثمان وهم يريدون قتاله فحينئذ بايع الصحابة ولا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو إنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداء فالجمهور جوزوه وقالوا : تحريم القتال فيه منسوخ وهو مذهب الأئمة الأربعة رحمهم الله . وذهب عطاء وغيره إلى أنه ثابت غير منسوخ وكان عطاء يحلف بالله ما يحل القتال في الشهر الحرام ولا نسخ تحريمه شيء . وأقوى من هذين الاستدلالين الاستدلال بحصار النبي ﷺ للطائف فإنه خرج إليها في أواخر شوال فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة فبعضها كان في ذي فتح مكة لعشر بقين من رمضان وأقام بها بعد الفتح تسع

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٧٢، ٣٧٣).
(٢) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان، ص٥٣٤.

عشرة يقصر الصلاة فخرج إلى هوازن وقد بقي من شوال عشرون يوما ففتح الله عليه هوازن وقسم غنائمها ثم ذهب منها إلى الطائف فحاصرها بضعا وعشرين ليلة وهذا يقتضي أن بعضها في ذي القعدة بلا شك .

١٦- عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض :

ومن الدروس أنه دفع ﷺ إلي اليهود الأرض على أن يعملوها من أموالهم ولم يدفع إليهم البذر ولا كان يحمل إليهم البذر من المدينة قطعا فدل على أن هديه عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض وأنه يجوز أن يكون من العامل وهذا كان هدي خلفائه الراشدين من بعده وكما أنه هو المنقول فهو الموافق للقياس فإن الأرض بمنزلة رأس المال في القراض والبذر يجري مجرى سقي الماء ولهذا يموت في الأرض ولا يرجع إلى صاحبه ولو كان بمنزلة رأس مال المضاربة لاشترط عوده إلى صاحبه وهذا يفسد المزارعة فعلم أن القياس الصحيح هو الموافق لهدي رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين في ذلك . والله أعلم .

١٧- إذا خالف أهل الذمة شيئا مما شرط عليهم لم يبق لهم ذمة :

ومنها : أن أهل الذمة إذا خالفوا شيئا مما شرط عليهم لم يبق لهم ذمة وحلت دماؤهم وأموالهم لأن رسول الله ﷺ عقد لهؤلاء الهدنة وشرط عليهم أن لا يغيبوا ولا يكتموا فإن فعلوا حلت دماؤهم وأموالهم فلما لم يفوا بالشرط استباح دماءهم وأموالهم وبهذا اقتدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في

الشروط التي اشترطها على أهل الذمة فشرط عليهم أنهم متى خالفوا شيئا منها فقد حل له منهم ما يحل من أهل الشقاق والعداوة .

١٨- حب الصحابة للنبي ﷺ :

ومما له صلة بزواج رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي، حراسة أبي أيوب الأنصاري لرسول الله ﷺ يوم أن دخل بصفية، فعن ابن إسحاق أنه قال: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر، أو ببعض الطريق.. فبات بها رسول الله في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد أخو بني النجار متوشحًا سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ، فلما رأى مكانه قال: «ما لك يا أبا أيوب؟» قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك(١)، فسر رسول الله ﷺ بعمله الذي ينبئ على غاية الحب، والإيمان، وقال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني» .

١٩- الغلول قبل القسم لا يملك وإن كان دون الحق:

ومنها : أن من أخذ من الغنيمة شيئا قبل قسمتها لم يملكه وإن كان دون حقه وأنه إنما يملكه بالقسمة ولهذا قال في صاحب الشملة التي غلها : إنها تشتعل عليه نارا وقال لصاحب الشراك الذي غله شراك من نار أرض العنوة بين قسمتها وتركها وقسم بعضها وترك بعضها .

---

(١)انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٣٨٥).

٢٠- استحباب التفاؤل :

ومنها : جواز التفاؤل بل استحبابه بما يراه أو يسمعه مما هو من أسباب ظهور الإسلام وإعلامه كما تفاءل النبي ﷺ برؤية المساحي والفؤوس والمكاتل مع أهل خيبر فإن ذلك فأل في خرابها .

٢١- جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغني عنهم :

ومن الدروس جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغني عنهم كما قال النبي ﷺ نقركم ما أقركم الله وقال لكبيرهم كيف بك إذا رقصت بك راحلتك نحو الشام يوما ثم يوما وأجلاهم عمر بعد موته ﷺ وهذا مذهب محمد بن جرير الطبري وهو قول قوي يسوغ العمل به إذا رأى الإمام فيه المصلحة . ولا يقال أهل خيبر لم تكن لهم ذمة بل كانوا أهل هدنة فهذا كلام لا حاصل تحته فإنهم كانوا أهل ذمة قد أمنوا بها على دمائهم وأموالهم أمانا مستمرا نعم لم تكن الجزية قد شُرعت ونزل فرضها وكانوا أهل ذمة بغير جزية فلما نزل فرض الجزية استؤنف ضربها على من يعقد له الذمة من أهل الكتاب والمجوس فلم يكن عدم أخذ الجزية منهم لكونهم ليسوا أهل ذمة بل لأنها لم تكن نزل فرضها بعد .

٢٢- جواز جعل عتق الرجل أمته صداقا لها بغير إذنها وبلا شهود ولا ولي غيره :

ومنها : جواز عتق الرجل أمته وجعل عتقها صداقا لها ويجعلها زوجته

بغير إذنها ولا شهود ولا ولي غيره ولا لفظ إنكاح ولا تزويج كما فعل ﷺ بصفية ولم يقل قط هذا خاص بي ولا أشار إلى ذلك مع علمه باقتداء أمته به ولم يقل أحد من الصحابة إن هذا لا يصلح لغيره بل رووا القصة ونقلوها إلى الأمة ولم يمنعوهم ولا رسول الله ﷺ من الاقتداء به في ذلك والله سبحانه لما خصه في النكاح بالموهوبة قال: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]؛ فلو كانت هذه خالصة له من دون أمته لكان هذا التخصيص أولى بالذكر لكثرة ذلك من السادات مع إمائهم بخلاف المرأة التي تهب نفسها للرجل لندرته وقلته أو مثله في الحاجة إلى البيان ولا سيما والأصل مشاركة الأمة له واقتداؤها به فكيف يسكت عن منع الاقتداء به في ذلك الموضع الذي لا يجوز مع قيام مقتضى الجواز هذا شبه المحال ولم تجتمع الأمة على عدم الاقتداء به في ذلك فيجب المصير إلى إجماعهم وبالله التوفيق .

٢٣- تربية المجاهدين:

وحين يكون القتال منطلقاً من شهوة القتال، بعيداً عن الهدف، فسيكون وبالاً على صاحبه، وما أحوج أبناء الدعوة والحركة أن يفقهوا هذه المعاني، وأن يفقهوا أن حمل السلاح وإلقاءه، ليس اندفاعاً ذاتياً، ليس حمله تهوراً وشجاعة فائقة، وليس إلقاؤه جبناً أو ضعفاً أو تخاذلاً. إن حمل السلاح وإلقاءه مهمة شرعية تنفذ بقرار الأمير بالقناعة الشخصية: (وكان رسول الله - ﷺ - حين انتهى إلى حصن ناعم وصف أصحابه نهى عن القتال حتى يأذن لهم، فعمد رجل من أشجع فحمل على يهودي، وحمل عليه مرحب فقتله، فقال الناس: يا

رسول الله استشهد فلان! فقال رسول الله - ﷺ -: «أبعد ما نهيت عن القتال؟» فقالوا: نعم. فأمر رسول الله - ﷺ - منادياً ينادي: «لا تحل الجنة لعاص». ثم أذن الرسول - ﷺ - في القتال وحث عليه).

فهذا قاتل في ظاهر الأمر وقتله اليهودي، ولكنه قاتل بعد النهي عن القتال فحرمت الجنة عليه وهو مسلم عريق في الإسلام.

إن التزام أمر القائد المسلم دين يلقى الله - تعالى - الجندي المسلم عليه: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى الأمير فقد عصاني».

٢٤- التزام الأمر في كل شيء وليس في القتال فقط أو الكف عنه:

روى الحارث بن أبي أسامة عن أبي أُمامة والبيهقي عن ثوبان -رضي الله عنهما- أن رسول الله - ﷺ - قال في غزوة خيبر: «من كان مضعفاً [أي: كان جمله ضعيفاً] أو مصعباً [أي: من كان جمله صغيراً لم يدرب بعد] فليرجع) وأمر بلالاً فنادى بذلك، فرجع الناس وفي القوم رجل على صعب فمر الناس وفي القوم رجل على صعب فمر من الليل على سواد فنفر به فصرعه، فلما جاؤوا به رسول الله - ﷺ - قال: «ما شأن صاحبكم؟»، فأخبروه فقال: «يا بلال ما كنت أذنت في الناس من كان مضعفاً أو مصعباً فليرجع»، قال: نعم، فأبى أن يصلى عليه. زاد البيهقي: وأمر بلالاً فنادى في الناس: «الجنة لا تحل لعاص» ثلاثاً.

فالأمر يطاع في الكف عن القتال أو في استعمال آلته. أو في الإذن فيه، أو في

مواجهة العدو، وأي مخالفة شخصية هي معصية قد تحول بين الجنة وبين المجاهد.

واستجاب المسلمون لنداء رسول الله - ﷺ - رغم ما بهم من الجوع والفاقة، فهم لا يجدون ما يأكلونه، وعليهم أن يمضوا لحرب ضروس، لا يعلم إلا الله مداها، وهم ماضون إلى موعود الله في أن يعطيهم غنائم خيبر، لكن متى؟ وكيف؟ فعلمها عند الله.

* وها هم يحاصرون، ويشتد جوعهم، ويشتد تعبهم وإرهاقهم حتى ليضطروا إلى إعلام الرسول - ﷺ -، وكان الإعلام من أسلم، وأسلم على الجيش الإسلامي، وما يملك لهم رسول الله - ﷺ - إلا الدعاء: «والله ما بيدي ما أقويهم به، قد علمت حالهم وأنهم ليست لهم قوة» ثم قال: «اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيها، أكثرها طعاماً، وأكثرها ودكاً».

٢٥- جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه ما لم يتضمن ضرر ذلك الغير:

ومنها: جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن فمفسدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب ولا سيما تكميل الفرح والسرور وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب فكان الكذب سبباً في

حصول هذه المصلحة الراجحة ونظير هذا الإمام والحاكم يوهم الخصم خلاف الحق ليتوصل بذلك إلى استعلام الحق كما أوهم سليمان بن داود إحدى المرأتين بشق الولد نصفين حتى توصل بذلك إلى معرفة عين الأم .

٢٦- جواز إشراك غير المقاتلين في الغنيمة ممن حضر مكان القتال :

وذلك بعد استئذان أصحاب الحق فيها ، فقد أشرك النبي ﷺ جعفر ابن أبى طالب ومن معه في الغنائم ،بإذن من الصحابة حينما عادوا من الحبشة واليمن .

٢٧- مشروعية تقبيل القادم والتزامه :

وهو مما لا نعلم فيه خلافاً معتداً به إذا كان قادما من سفر أو طال العهد به ، واستدل العلماء في ذلك بتقبيل رسول الله ﷺ جعفر ابن أبى طالب رضي الله عنه بين عينيه والتزامه إياه عند قدومه من الحبشة ، والحديث رواه أبو داود بسند صحيح، وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم زيد ابن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي فأتاه فقرع الباب ، فقام إليه النبي ﷺ يجر ثوبه ،فاعتنقه وقبله .

ويشكل عليه في الظاهر ما رواه الترمذي أيضاً عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله ، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له ؟ قال : لا قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : لا قال : فيأخذ بيده و يصافحه ؟ قال : نعم .

وجواب الإشكال أن سؤال الرجل في هذا الحديث عن اللقاءات العادية

المتكررة بين الرجل و صاحبه، والتقبيل و الالتزام أمر غير مرغوب فيه في مثل هذه الحال ' أما ما فعله رسول الله ﷺ من ذلك بالنسبة إلى جعفر وزيد فإنما كان ذلك - كما قد علمت - أثر قدوم من سفر فالحالتان مختلفتان .

٢٨- معجزات للنبي ﷺ في خيبر:

إن في هذه الغزوة حادثتين، كل منهما ثابت بالحديث الصحيح تعدان من الخوارق العظيمة التي أيّد الله بها محمد ﷺ :

أولاهما:- أنه ﷺ تفل في عين عليّ ابن أبى طالب رضي الله عنه وقد كان يشتكى منها فبرأت في الوقت نفسه حتى كأن لم يكن به وجع .

الثانية :- ما أوحى الله إليه من أمر الشاة المسمومة عندما أراد الأكل منها، ولأمر ما سبق قضاء الله تعالى فابتلع بشر ابن البراء لقمته قبل أن ينطق رسول الله ﷺ بأنها مسمومة فكان قضاؤه في ذلك ، ولعل فى ذلك مزيداً من بيان ما اختص الله تعالى به نبيه ﷺ من الحفظ و العصمة من أيدي الناس و كيدهم تنفيذاً لوعده جل جلاله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[المائدة:٦٧] .

ولقد ذكرنا أن الرواة اختلفوا : هل أسلمت المرأة اليهودية أم لا ؟ ' و الذي يغلب - على ما جزم به الزهري - أنها أسلمت ،ولذلك لم يقتلها النبي ﷺ على ما ذكره مسلم .

لا يقال إن القصاص كان يقتضي قتلها، لأن القاعدة المتفق عليها : أن الإسلام يجب ما قبله ' فالقتل الذي يستوجب القصاص هو ما كان واقعاً بعد إسلام القاتل أما ما قبله فالأمر في ذلك راجع إلى الحرابة ومعلوم أن

الحرابة تنتهي بالدخول في الإسلام .

٢٩- فضل الدعوة الى اللّه تعالى :

وهذا نأخذه من وصيته ﷺ لعلي رضي الله عنه بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن تكون لك حمر النعم» وعندما سأله علي: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منكم دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله»(١).

٣٠- حادي القوم:

وكان سيره ﷺ بالجنود ليلا، فقد قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً(٢)، وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك(٣) ما اتقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع.

قال: «يرحمه الله».

---

(١) مسلم (١٨٧٢/٢) رقم ٢٤٠٥.

قال رجل -وهو عمر بن الخطاب(١)- من القوم: وجبت يـا نبـي الله، لـولا متعتنا به(٢).

٣١- الشورى في غزوة خيبر:

تقدم رسول الله ﷺحتى اختار لمعسكره منـزلاً، فأتـاه حُبَـاب بـن المنـذر، فقال : يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أنزلكـه الله، أم هـو الـرأي في الحـرب ؟ قال : « بل هو الرأي » فقال : يـا رسـول الله، إن هـذا المنـزل قريـب جـدًا مـن حصن نَطَاة، وجميع مقاتلي خيبر فيها، وهم يـدرون أحوالنـا، ونحـن لا نـدري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا، وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن مـن بيـاتهم، وأيضًا هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكرًا، قال ﷺ: « الـرأي مـا أشرت » ، ثـم تحـول إلى مكان آخر .

٣٢- ومن الأحكام في هذه الغزوة :

*خرص الثمار على رؤوس النخيل وقسمتها كذلك ، وأن القسمة ليسـت بيعاً ، والاكتفاء بخارص واحد وقاسم واحد.

*جواز عقد المهادنة عقداً جائزاً للإمام فسخه متى شاء.

*جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط ، كما عقـد لهـم رسـول الله ﷺ بشرط ألا يغيبوا ولا يكتموا ، كما في قصة مسك حيي.

*جواز كذب الإنسان على نفسـه وعـلى غـيره ، إذا لم يتضـمن ضرر ذلـك

---

(١) انظر: فتح الباري (٤٦٦/٧). (٨) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤١٩٦.

الغير ، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه ، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين والمشركين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت بالمسلمين من ذلك بالكذب.

* إن من قتل غيره بسم يقتل مثله قصاصاً ، كما قتلت اليهودية ببشر بن البراء.

*جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب وحل طعامهم وقبول هديتهم ، كما في حادثة الشاة المسمومة.

*الإمام مخير في الأرض التي تفتح عنوة إن شاء قسمها وإن شاء وقفها وإن شاء قسم البعض ووقف البعض الآخر ، وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة ، فقسم قريظة والنضير ، ولم يقسم مكة ، وقسم شطراً من خيبر وترك شطرها الآخر.

٢٣- اللجوء إلى الله وتعظيم شعائر الإسلام:

وهذا نجده واضحا عندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قفوا. ثم قال: «اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها»، اقدموا باسم الله، وكان يقولها لكل قرية دخلها(١).

---

(١) انظر: المستدرك (٢/١٠٠) قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

وكان النبي ﷺ إذا أتي قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح، فإن سمع اذانا امسك وان لم يسمع أغار وفي هذا تعظيم للصلاة ،فبات رسول الله ولم يسمع أذاناً ،فلما أصبح صلي الفجر بغَلَس، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا : محمد، والله محمد والخَمِيس ، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبي ﷺ : «الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

فالرسولﷺ مع ربه بيقينه وتوكله عليه ،فيسأله عونه ونصره وتأييده جل جلاله.

٣٤- موقف حزم وخبرة من عباد بن بشر:

وكان ﷺ قد بعث عباد بن بشر ﵁ في سرية استطلاعية يتلقط أخبار العدو، ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطريق عينًا لليهود من أشجع فقال: من أنت؟ قال: باغٍ ابتغى أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها، قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماء وأنى يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة،

فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، اصدقني وإلا ضربت عنقك. فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود، وقال لي كنانة: اذهب معترضًا للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا، فإنهم لن يدعوا سؤلك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم.

وهكذا استطاع عباد بحكمته وحزمه استخراج المعلومات الصحيحة من ذلك الجاسوس.

٣٥- شجاعة علي بن أبي طالب ﷺ:

رأى اليهود الجيش فروا إلى مدينتهم وتحصنوا في حصونهم، وكان من الطبيعي أن يستعدوا للقتال .

وأول حصن هاجمه المسلمون من حصونهم الثمانية هو حصن ناعم .

وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودي الذي كان يعد بالألف.

خرج علي بن أبي طالب ﷺ بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة، قال سلمة بن الأكوع : فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول :

قد عَلِمتْ خيبر أني مَرْحَب ** شَاكِي السلاح بطل مُجَرَّب

إذا الحروب أقبلتْ تَلَهَّب

فبرز له عامر فقال :

قـد علمـت خيـبر أني عـامر ** شـاكي السـلاح بطـل مُغَـامِر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عمي عامر، وذهب عامر يسفل له، وكان سيفه قصيرًا، فتناول به ساق اليهودي ليضربه، فيرجع ذُبَاب سيفه فأصاب عين ركبته فمات منه، وقال فيه النبي ﷺ: « **إن له لأجرين ـ وجمع بين إصبعيه ـ إنه لَجَاهِدٌ مُجَاهِد، قَلَّ عربي مَشَي بها مِثْلَه** » .

ويبدو أن مرحبًا دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخري وجعل يرتجز بقوله :

قد علمت خيبر أني مرحب . . . إلخ، فبرز له على بن أبي طالب ﷺ . قال سلمة ابن الأكوع : فقال علي :

أنا الذي سمتني أمي حَيْدَرَهْ ** كلَيْثِ غابات كَرِيه المَنْظَرَهْ

أُوفِيهم بالصَّاع كَيْل السَّنْدَرَهْ

فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه .

ولما دنا علي ﷺمن حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن، وقال : من أنت ؟ فقال : أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي : علوتم وما أنزل على موسى .

ثم خرج ياسر أخو مرحب، وهو يقول : من يبارز ؟ فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أمه : يا رسول الله، يقتل ابني، قال : (بل ابنك يقتله) ، فقتله الزبير .

ودار القتال المرير حول حصن ناعم، قتل فيه عدة سراة من اليهود، انهارت لأجله مقاومة اليهود، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أيامًا لاقي المسلمون فيها مقاومة شديدة، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصَّعْب، واقتحم المسلمون حصن ناعم .

٣٦- نتائج خيبر:

وهكذا كانت حياة الرسول ﷺ تعليمًا وتربية للأمة في السلم والحرب على معاني العقيدة وحقيقة العبادة، وهذا غيض من فيض وجزء من كل.

هذا وقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء دويًّا هائلاً في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم ومؤنتهم ومتاعهم[١]، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر وخذلها انتصار المسلمين الساحق؛ ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعًا لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق له من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي[٢].

---

(١) انظر: نضرة النعيم، (٣٥٣/١).
(٢) المصدر نفسه، (٣٥٣/١).

واستمرت حركة السرايا بعد خيبر، وكانت كثيرة، وأمر عليها ﷺ كبار الصحابة، وكان في بعضها قتال، ولم يكن في بعضها قتال(١).

إلى هنا واكتفي بما جمعت من دروس وعبر هذه الغزوة المباركة، وأتوجه إلى الله عز و جل بأن يقبل هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم .

هذا وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آبه وصحبه وسلم .

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص٢٢١.

غزوة بني المصطلق دروس وعبر

الحمد لله الذي يسمع ويرى، الحمد لله الذي يعلم السر وأخفى، الحمد لله الذي يسمع دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وزد وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وعلى كل من اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١].

وبعد

فلا تزال السيرة النبوية معيناً لا ينضب لكل باحث عن الحق ساعٍ إلى معرفة هدي خير الورى – ﷺ – ، ومهما كثر على هذا المعين الواردون ونهل منه الناهلون فسوف يظل كما هو في صفائه وقوته وغزارة مادته .

ولما كان الجهاد في سبيل الله من أهم سمات حياته المباركة – ﷺ – ، فقد اعتنى أهل العلم بدراسة غزواته وبعوثه، ليس فقط لمعرفة هديه في حربه

وسلمه، بل أيضاً لاستنباط كثير من الأحكام الفقهية التي لا تخلو من الإشارة إليها غزوة، ومحاولة استخلاص بعض الحكم العظيمة من تلك الغزوات، واستجلاء بعض أساليبه - ﷺ - في إعداد أصحابه وتربيتهم، وغير ذلك مما قد يفتح الله به على من يشاء من عباده.

ومن هذا الباب لا زلنا وإياكم في هذه الموسوعة المباركة بإذن الله :

(غزوات النبي المصطفى دروس وعبر)،ومع (غزوة بني المصطلق دروس وعبر).

وأسال الله الكريم الوهاب العزيز التواب أن ينفع بهذا العمل، و يجعله لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، و يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه إنه ولي ذلك والقادر عليه .

۞غزوة بني المصطلق:

ومن هم بنو المصطلق: هم بطن(١) من خزاعة، والمصطلق(٢) جدهم، وهو جذيمة بن سعد ابن عمرو بن ربيعة ابن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء(٣).

۞غزوة بني المصطلق:

التي اختلف العلماء في تاريخها ، وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوال، فمن قائل إنها في شعبان سنة ست، قال بذلك ابن إسحاق وخليفة بن خياط، وابن جرير الطبري. ومن قال بأنها في شعبان من العام الرابع للهجرة، مثل المسعودي.

وذهبت طائفة إلى أنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، منهم موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذهبي، وابن القيم، وابن حجر العسقلاني، وابن كثير -رحمهم الله- ومن المحدثين الخضري بك، والغزالي، والبوطي.

---

(١) فرع.

(٢) المصطلق: بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملتين وكسر اللام.

(٣) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (٣١١/١).

وقد كانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة، وغزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السنة الخامسة على القول الراجح، فيتعين أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها(١).

۞غزوة بني المصطلق :

التي من أهم أسبابها:

أ- تأييد هذه القبيلة لقريش واشتراكها معها في معركة أحد ضد المسلمين، ضمن كتلة الأحابيش التي اشتركت في المعركة تأييدًا لقريش.

ب- سيطرة هذه القبيلة على الخط الرئيسي- المؤدي إلى مكة، فكانت حاجزًا منيعًا من نفوذ المسلمين إلى مكة(٢).

ج- أن الرسول ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فهزمهم شر هزيمة(٣).

۞غزوة بني المصطلق:

التي فيها زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.

---

(١) من أراد مزيدًا من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بني المصطلق، ص٩٧.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية للعلي، ص٣٣٢.

(٣) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٣١٥/١).

❁غزوة بني المصطلق:

التي من أسماءها أيضاً المريسيع فعندما بلغ الرسول ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فهزمهم شر هزيمة(١).

❁غزوة بني المصطلق:

تعتبر هذه الغزوة من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها.

❁غزوة بني المصطلق :

التي كان شعار المسلمين فيها: يَا مَنْصُورُ ، أمت أمت.

❁غزوة بني المصطلق :

التي أعتق فيها المسلمين كل ما كان في أيديهم من بني المصطلق، كرامةً لمصاهرة رسول الله ﷺ وزواجه من جويرية بنت الحارث.

قالت عائشة رضي الله عنها : أعتق مائة أهل بيت بتزوج رسول الله ﷺ إياها، فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها(٢).

❁غزوة بني المصطلق :

في مرجع الناس منها قال أهل الإفك ما قالوا، وأنزل الله تعالى في ذلك براءة عائشة أم المؤمنين رضوان الله عليها ما أنزل.

---

(١) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/٣١٥).

٢) أخرجه أحمد في المسند ٥ / ١٧٩ والبيهقي في السنن ٩ / ٧٥ والحاكم في المستدرك ٤ / ٢٦ وابن حبان (١٥٤٧) وابن سعد في الطبقات ٨ / ٨٣ وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٩٧٠٨).

١- المنافقين و محاولة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصطلق عددٌ كبير من المنافقين مع المسلمين، وكان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، لكنهم لما رأوا اطراد النصر للمسلمين خرجوا طمعًا في الغنيمة(١). وعند ماء المريسيع كشف المنافقون عن الحقد الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلما كسب الإسلام نصرًا جديدًا ازدادوا غيظًا على غيظهم، وقلوبهم تتطلع إلى اليوم الذي يهزم فيه المسلمون لتشفى من الغل، فلما انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصاري ما حدث عند ماء المريسيع، وأدى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية وتمزيق وحدة المسلمين، قال: (كنا في غزاة فكسع(٢) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟».

قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: «دعوها فإنها منتنة» فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٣١٨/١). (٧) انظر: السيرة الصحيحة للعمري (٤٠٨/٢).

رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»(١).

وفي رواية قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، لا، ولكن أذن بالرحيل**»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس(٢).

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا.

وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي، ونزلت السورة التي ذكر فيها المنافقون في ابن أبي ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه(٣).

٢- عبد الله بن أبي والإساءة إلى الرسول ﷺ :

لما أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهل بيته، فشنوا

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٠٩).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣١٩).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣١٩، ٣٢٠).

حربًا نفسية مريرة من خلال حادثة الإفك التي اختلقوها، ولنترك الصحابي زيد بن أرقم وهو شاهد عيان ومشارك في الحادث الأول يحكي خبر ذلك، قال: (كنت في غزاة[١] فسمعت عبد الله بن أُبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي[٢]، فذكره للنبي ﷺ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١] فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأ، فقال: «إن الله قد صدقك يا زيد»[٣].

وقد مشى عبد الله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه. فلما سار رسول الله ﷺ، لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت

---

(١) غزاة: صرحت الروايات الأخرى بأنها بني المصطلق.

(٢) يريد بعمه سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج وليس عمه حقيقة.

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٠٨).

تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو بلغك ما قال صاحبكم؟». قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبي؟» قال: وما قال؟ قال: «زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك استلبت ملكه.

إن هذه الحادثة من السيرة النبوية العطرة مليئة بالدروس والعبر، فمن أهم تلك الدروس:

٣- (أ) الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصف الداخلية:

وهذا الدرس يظهر في قوله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟[١].

إنها المحافظة التامة على السمعة السياسية، والفرق كبير جدًّا بين أن يتحدث الناس عن حب أصحاب محمدٍ محمدًا، ويؤكدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمدًا[٢]، وبين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة ستتم في محاولة الدخول إلى الصف الداخلي في المدينة

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٠٩).

(٢) انظر: التربية القيادية (٣/٤٦٣).

من العدو، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتلك التضحيات(١).

ولم يقف النبي ﷺ موقفًا سلبيًّا حيال تلك المؤامرة التي تزعمها ابن سلول لتصديع الصف المسلم، وإحياء نعرات الجاهلية في وسطه، بل اتخذ إزاءها الخطوة الإيجابية التالية:

أ- سار رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما(٢).

وبهذا التصرف البالغ الغاية في السياسة الرشيدة قضى على الفتنة قضاء مبرمًا، ولم يدع مجالا للحديث فيما قال ابن أبي.

ب- لم يواجه النبي ﷺ ابن سلول ومؤامراته المدبرة بالقوة واستعمال السلاح حرصًا على وحدة الصف المسلم، وذلك لأن لابن أبي أتباعًا وشيعة مسلمين مغرورين، ولو فتك به لأرعدت له أنوف، وغضب له رجال متحمسون له، وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أي مصلحة للمسلمين ولا للإسلام، وإنها لسياسة شرعية حكيمة رشيدة في معالجة المواقف العصبية في حزم وقوة أعصاب وبُعد نظر(٣). وهذه البراعة

---

(١) المصدر نفسه (٣/٤٦٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٢٥٥).

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢٠٢.

في الحكمة والسياسة وتدبير الأمور متفرعة عن كونه ﷺ نبيًا ورسولاً إلى الناس(١) لكي تقتدي به الأمة في تصرفاته العظيمة.

وقد كان لتسامح الرسول ﷺ مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أبي ابن سلول كلما أحدث حدثًا كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه، ويعنفونه، ويعرضون قتله على النبي ﷺ، والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم لقتلته» فقال عمر: قد -والله- علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري(٢).

٤- (ب) (بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا):

كان لابن أبي ابن سلول ولدٌ مؤمن مخلص يسمى عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، فلما علم بالأحداث ونزول السورة، أتى رسول الله ﷺ فقال له: (يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي ابن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٤٠٩.

(٢)انظر: السيرة النبوية لابن شهبة (٢٥٧/٢).

(١). ولما وصل المسلمون مشارف المدينة تصدى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبي، وقال له: قف فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له(٢).

٥- (ج) مثل أعلى في الإيمان:

جسَّده عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول في موقفه من والده، وتقديمه وإخلاصه لله ولرسوله، وتقديم محبتهما ومراضيهما على محبة ومراضي الأبوة(٣). لقد ضرب الابن أروع مثل في الإيمان والتضحية بعاطفة الأبوة، فقابله ﷺ صاحب القلب الكبير والخلق العظيم بمثل رفيع في العفو والرحمة وحسن الصحبة «**بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا**» يا لروعة العفو، ويا لجلال العظمة النبوية(٤)، فقد تلطف النبي ﷺ بهذا الصحابي الجليل، وهدَّأ من روعه، وأذهب هواجسه(٥).

٦- (د) محاربة العصبية الجاهلية:

إن العصبية المقوتة والتي نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية أي الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها، وإنما الاشتراك في معنى أو وصف معين يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٢١).

(٢) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، ص٢٠٩ للقحطاني.

(٣) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (٣/١٦٣).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن شهبة (٢/٢٥٧).

(٥) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/١٦٣).

فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك، فعندما كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، قال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**»(١)، ووجه الدلالة بهذا الخبر، أن النبي ﷺ أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادي استعمل اسمًا استعمله القرآن وهو (المهاجرين) (والأنصار). فالمهاجري استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذي كسع، فكأنه بندائه هذا يريد عونهم، لاشتراكه وإياهم بمعنى واحد وهو (المهاجرة)، وكذلك الأنصاري استنصر بالأنصار؛ لأنه منهم ويشترك وإياهم بوصف واحد ومعنى واحد وهو مدلول كلمة (الأنصار)، وكان حق الاثنين -إذا كان لا بد من الاستنصار بالغير- أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعًا، وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر، من بلد، أو مذهب، أو حزب، أو عرق، أو لون، أو دم، أو جنس، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]. وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصرًا على الحق لا على الباطل بمعنى أن ينصروا المحق، وأن يكونوا معه، لا مع

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٢٠٩).

المعتدي[١].

لقد أوضح الرسول ﷺ أن العصبيات هي من دعاوى الجاهلية، وقال: «لينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره»[٢] فجعل التناصر في طلب الحق والإنصاف وأبطل المفهوم الجاهلي: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا(٣).

إن مهمة الدعاة وطلاب العلم والعلماء والفقهاء في التخلص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ مهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، ولأهميتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا لقلعها من النفوس[٤].

٧- توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق:

نزلت سورة (المنافقون) في أعقاب غزوة بني المصطلق، حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة، وذلك بدليل رواية الإمام الترمذي (فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقون)[٥]. فقد تحدثت السورة بإسهاب عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٣٠١/٢، ٣٠٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٠٩/٢).

(٣)المصدر نفسه (٢٠٩/٢).

(٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٣٠٢/٢).

(٥) انظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة المنافقون» (٤١٥/٥).

عنهم وفضحت أكاذيبهم، إلا أنها في الختام حذرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدنيا ومتاعها، وحثت على الإنفاق، ويمكن لدارس هذه السورة أن يلاحظ عدة محاور مهمة منها:

١- تحدثت السورة الكريمة في البدء عن أخلاق المنافقين، وفضحت كذبهم في أقوالهم ووصفت حالهم[١]؛ فابتدأت هذه السورة بإيراد صفات المنافقين التي من أهمها الكذب في ادعاء الإيمان، وحلف الإيمان الكاذبة، وجبنهم وضعفهم وتآمرهم على النبي ﷺ وعلى المؤمنين، وصدهم الناس عن دين الله[٢]، قال تعالى: ﴿إذا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ۝ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ١-٤].

٢- ثم بينت الآيات عنادهم وتصميمهم على الباطل، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحق وبينت مقالاتهم الشنيعة بالتفصيل خاصة ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنهم سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة، وأن العزة لهم،

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/٣٢٧).

(٢) انظر: التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، (٢٨/٢١٣) .

إلى غير ذلك من الأقوال العظيمة الفظيعة(١).

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٥-٨].

وهكذا كان المجتمع المدني يتربى بالأحداث، والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه وتعليمه، ورسول الله ﷺ يقوم بالإشراف على ذلك.

حادثة الإفك والدروس والعبر منها:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدهم في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية، فقد ألمت بالبيت النبوي هذه النازلة الشديدة والمحنة العظيمة التي كان القصد منها النيل من النبي ﷺ ومن أهل بيته الأطهار. هذا وقد أجمع أهل المغازي والسير(٢) على أن حادثة الإفك كانت في أعقاب غزوة بني المصطلق، وتابعهم في ذلك المفسرون(٣)، والمحدثون(٤).

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٣٢٧).
(٢) كالواقدي، والذهبي، والطبري، وابن سعد، وابن حزم
(٣) كابن كثير، والرازي، والطبري وغيرهم.
(٤) كابن حجر، والنووي.

وقد أخرج البخاري ومسلم حديث الإفك في صحيحيهما، وهذا سياق القصة من صحيح البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها(١) فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺبعدما نزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي(٢) وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جَزْعِ ظَفَارٍ(٣) قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط(٤) الذين كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلهن اللحم، إنما نأكل العُلقة(٥) من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السنة فبعثوا الجمل، وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فأقمت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان

---

(١) هي غزوة بني المصطلق.

(٢) الهودج: محمل له قبة تستر بالثياب يوضع على ظهر البعير تركب فيه النساء.

(٣) جزع ظفار: هو خرز معروف في سواده بياض كالعروق وهي مدينة باليمن.

(٤) الرهط: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة.

(٥) العُلقة: البلغة من الطعام.

صفوان بن المعطل السلمي[١] ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج[٢] فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[٣] حين عرفني، فخمرت(٤) وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[٥] في نحر الظهيرة(٦)، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول.

كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، وكان من لطف الله تعالى بنبيه ﷺ وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها، وسجل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفرية، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس لتكون عبرة وعظة للأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[٧].

---

(١) صحابي جليل كان صاحب ساقة رسول الله ﷺ في غزواته.

(٢) فأدلج: بالتشديد سار آخر الليل.

(٣) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٤) فخمرت: أي غطيت.

(٥) موغرين: الوغرة: شدة الحر.

(٦) نحر الظهر: أولها وهو وقت شدة الحر.

(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤٠

٨- (أ)**تبرئة السيدة عائشة ل**: من الإفك بقرآن يتلى إلى آخر الزمان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ [النور: ١١].

٩- (ب) الخير يبزغ في الشر:

حكمة الله تعالى اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق ﷺ بحديث الإفك خيرًا لهم، حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوة إيمانهم، قال تعالى: ﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور: ١١].

١٠- (ج) الحفاظ على سمعة المؤمنين:

الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظن فيما بينهم، قال تعالى: ﴿ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: ١٢].

١١- (د)تكذيب القائلين بالإفك:

قال تعالى: ﴿ لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣].

١٢- (هـ)بيان فضل الله على المؤمنين ورأفته بهم:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ [النور: ١٤].

١٣- (و)التثبت من الأقوال قبل نشرها:

يجب التثبت من الأقوال قبل نشرها، والتأكد من صحتها، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور:١٦].

١٤- (ز)النهي عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه:

قال تعالى:﴿ يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[النور:١٧،١٨].

١٥- (ح)النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

١٦- (ط) بيان فضل اللّه سبحانه على عباده المؤمنين ورأفته بهم وكرر ذلك تأكيداً له:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٢٠].

١٧- (ي)النهي عن تتبع خطوات الشيطان التي تؤدي للهلاك:

قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١].

١٨- (ك) الحث على النفقة على الأقارب وإن أساءوا[١]:

قال تعالى: ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

١٩- **(ل) غيرة الله تعالى على عباده المؤمنين**(٢): الصادقين، ودفاعه عنهم، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللعن في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٣-٢٥].

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات:

ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع،

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) إن اردت الاستزادة من الدروس والعبر فقد أفردت لها بحثاً علمياً متكاملاً بعنوان(حادثة الإفك دروس وعبر) تجده على الشبكة العنكبوتية .

المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ارتكب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مُفتنة، كل واحد منها كافٍ في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثلاث: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٣-٢٥] لكفى بها حديثًا جعل القذفة معلونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله[١].

٢٠- من سنن الله:

جاء في سياق الآيات بيان سنة من سنن الله الجارية في الكون وهي أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب الطيبات، والطيبات يجعلهن من نصيب الطيبين، قال تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [النور: ٢٦].

٢١- الناس مع الإفك أربعة أقسام:

والناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا على أربعة أقسام[٢]:

قال فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد - عند تعليقه على حديث يتعلق

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (٣٨٦/١) نقلاً عن تفسير الكشاف (٢٢٣/٣).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٣٨٧/١).

بقصة الإفك-: إن الناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسم: وهو أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا، ولم ينطقوا إلا بخير ولم يصدقوا ولم يكذبوا، **وقسم**: سارع إلى التكذيب، وهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب رضي الله عنهما، فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك وبرؤوا عائشة مما نسب إليها في الحال.

أما القسم الثالث: فكانوا جملة من المسلمين لم يصدقوا ولم يكذبوا ولم ينفوه، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإفك، وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمر هين لا يعرضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافر، وحاكي الإفك ليس بقاذف، ومن هؤلاء حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما القسم الرابع: فهم الذين جاءوا بالإفك وعلى رأس هؤلاء عدو الله عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين لعنه الله وهو الذي تولى كبره.

وقد أشار الله عز وجل إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام، وأنه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف، فقال: ﴿ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: ١٢].

أما القسم الثالث: فقد أشار الله عز وجل إلى أنه ما كان ينبغي لهم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث حيث يقول: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ

بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ الله عَظِيمٌ * وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥،١٦].

وقد أثبت الله عز وجل لأهل هذا القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر أنه لن ينفق على مسطح، ولن يتصدق عليه وهو من ذوي قرابته، فقال عز وجل: ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

أما القسم الرابع: وهو جماعة عبد الله بن أبي الذين جاءوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب، فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر، وأنه لن يقبل منهم توبة، وأنه أنزل عليهم لعنته في الدنيا والآخرة(١)، حيث قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ الله دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الله هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٣-٢٥].

٢٢- الصالحون مستهدفون:

من هذه الحادثة نأخذ أن الأنبياء وأتباعهم مستهدفون من قبل أعداء الإسلام من الكافرين والمنافقين وأتباعهم؛ بتلفيق التهم ضدهم، ورميهم في

---

(١) انظر: فقه الإسلام، شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد (٩/٥).

أعراضهم وفي أنفسهم، ولكن الله يدافع عنهم، ويرد كيد الأعداء في نحورهم، ويزيد أنبياءه وأولياءه الصالحين رفعة في الدنيا وثواباً في الآخرة، وأنه مهما لفق الملفقون من التهم ورموا به أولياء الله ؛ فإن الله تعالى كاشف ذلك، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون (٤).

سبحان ربنا عالم السر وأخفى! سبحانك ما أحلمك!

٢٣- بشرية الرسول ﷺ:

جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها، فلو كان الوحي أمرًا ذاتيًّا غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ، لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكل أبعادها شهرًا كاملاً، ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرسول ﷺ ونبوته، فعندما حسم الوحي اللغط الذي دار حول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرسول ﷺ، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدل ذلك على حقيقة الوحي، وأن الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى لبقيت رواسب المحنة في نفس رسول الله ﷺ بصفة خاصة، ولانعكس ذلك على تصرفاته مع زوجته عائشة رضي الله عنها، وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيرًا على نبوة محمد ﷺ[١].

٢٤- منهج مواجهة الشائعات:

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤١.

قد رسم القرآن الكريم لنا منهجاً في مواجهة الشائعات - وما أكثرها في زماننا هذا-!!:

فأولى الخطوات: عرض الأمر على القلب، واستفتاء الضمير؛ فالمؤمن لا ينبغي أن يكون أذنا يمر الكلام عليه بلا تـرو ولا تفهم، إنما بنقد واعتبار، فيتوقف حتى يتبين ﴿أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ [الحجرات:٦]

قال تعالى مبيناً للمؤمنين أهمية هذه الخطوة في قصة الإفك: ﴿لو لا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ [النور:١٢]

نعم، كان هذا هو الأولى: أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في هذه الحمأة، وكذلك فعل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه حينما قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال : نعم، وذلك الكذب؛ أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك.

وهكذا إذا سمع المسلم شائعة أو تهمة ملفقة رمي بها أحد عباد الله الصالحين أو الدعاة المخلصين؛ عليه أن يظن بأخيه خيراً، ويعلم أبعاد حرب الحق والباطل، وليعلم أن رسول الله - ﷺ - قبله رمي في عرضه، لكن الله يدافع عن الذين آمنوا، وليعلم أن هذا هو دأب المنافقين والمأجورين والحاقدين مع عباد الله المؤمنين، الذين يدعون إلى صراط الله المستقيم، وأن هذا هو دأب الجبناء الذين يعملون من خلف الأستار بتلفيق أخس التهم

الباطلة، ولكن؛ إن ربك لبالمرصاد.

والخطوة الثانية من منهج مقابلة الشائعات: طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي:

قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ [النور:١٣]، فعند طلب البينة تتضح الحقيقة، ولن يجد المبطل الأفاك بينة.

ويبين سبحانه وتعالى خطورة الغفلة عن هاتين الخطوتين:

قال تعالى: ﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾ [النور:١٥]

فلقد احتسبها الله للجماعة المسلمة درساً قاسياً، فأدركهم بفضله ورحمته، ولم يمسهم بعقابه أو عذابه.

٢٥- حد القذف وأهميته في المحافظة على أعراض المسلمين:

كان المجتمع الإسلامي يتربى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى -عز وجل- أن يشرع بعض الأحكام التي تساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين، ولذلك نزلت سورة النور، التي تحدثت عن حكم الزاني والزانية وعن قبح فاحشة الزنا، وعما يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزوجين صاحبه، وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام[١].

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/٣٥٧).

إن الإسلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله، فقد حرم أيضًا كل الأسباب المسببة له، وكل الطرق الموصلة إليه، ومنها إشاعة الفاحشة والقذف بها لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة والحديث عنها؛ لأن كثرة الحديث عن فاحشة الزنا وسهولة قولها في كل وقت يهون أمرها لدى سامعيها، ويجرئ ضعفاء النفوس على ارتكابها، لهذا حرمت الشريعة الإسلامية القذف بالزنا، وأوجبت على من قذف عفيفًا أو عفيفة، طاهرًا أو طاهرة، بريئًا أو بريئة من الزنا حد القذف وهو الجلد ثمانين جلدة وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحًا[١].

هذا وقد أقام رسول الله ﷺ حد القذف على مسطح وحسان وحمنة، وروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة: مسطحا وحسانًا وحمنة، وذكره الترمذي[٢] قال القرطبي: والمشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حُدَّ حسان ومسطح وحمنة، ولم يسمع بحد عبد الله بن أبي[٣]. وقد وردت آثار ضعيفة تدل على أن عبد الله بن أبي أقيم عليه الحد، ولكنها كلها ضعيفة لا تقوم بها حجة(٤).

٢٦- الحكمة في عدم حد عبد الله بن أبي:

وقد ذكر ابن القيم وجه الحكمة في عدم حد عبد الله بن أبي فقال:

---

(١) انظر: آثار تطبيق الشريعة، د. محمد الزاحم، ص١١٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢/١٩٧).

(٣) نفس المصدر (١٢/٢٠١).

(٤)انظر: مرويات غزوة بني المصطلق، ص٢٤٢.

أ- قيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ويكفيه عن الحد.

ب- وقيل: كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

ج- وقيل: الحد لا يثبت إلا ببينة أو إقرار وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

د- وقيل: بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مرارًا، وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم من الإسلام.

ثم قال في ختام كلامه ولعله تُرك لهذه الوجوه كلها(١).

٢٧- اعتذار حسان رضي الله عنه للسيدة عائشة رضي الله عنها:

قد بينت الروايات أن مَنْ خاض في الإفك قد تاب ما عدا ابن أُبي، وقد اعتذر حسان رضي الله عنه عما كان منه، وقال يمدح عائشة بما هي أهل له(٢):

رأيتك وليغفر لك الله حرة ... من المحصنات غير ذات غوائل

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

وإن الذي قد قيل ليس بلائق ... بك الدهر بل قيل امرئ متناحل

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٢٦٣، ٢٦٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٢٦٣).

فإن كنت أهجوكم كما بلغوكم فـلا رفعـت سـوطى إلي أنـاملى
فكيـف وودي مـا حييـت لآل رسـول الله زيـن المحافـل
وإن لهم عزًا يرى النـاس دونـه قصارًا، وطال العز كل التطاول[1]

٢٨- جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار:

ومن دروس هذه الغزوة جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسـلام دون إنذار، ومنها صحة جعل العتق صداقًا كما فعل ﷺ مع جويرية بنت الحـارث في هذه الغزوة.

٢٩- مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر:

ومن الدروس مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن.

٣٠- كفر من سب عائشة رضي الله عنها :

وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة رضي الله عنها بعد براءتها بـراءة قطعية بنص القرآن ورماها بما اتهمت به فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن[2].

٣١- حكم العزل عن النساء:

ومن الأحكام التي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النساء حيث

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، ص٢٨١.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٥/٦٤٣).

سأل الصحابة الرسول ﷺ عنه فأذن به وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة»(١). فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزوجة الحرة بإذنها(٢)، ونزلت آية التيمم في هذه الغزوة، تنويهًا بشأن الصلاة، وتنبيهًا على عظيم شأنها، وأنه لا يحول دون أدائها فقد الماء، وهو وسيلة الطهارة التي هي أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف وفقد الأمن من إقامتها(٣).

واكتفي بهذا القدر من الدروس والعبر من هذه الغزوة ،أسأل الله أن ينفع بها، ويكتب الأجر، ويرزقنا الاخلاص في القول والعمل .هذا وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آبه وصحبه وسلم .

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٤١٥/٢).

(٢) انظر: نيل الأوطار للشوكاني (٢٢٢/٦-٢٢٤).

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٢١٠، ٢١١.

الحمد لله الـذي بنعمتـه تـتم الصـالحات، وبفضـله تُضـاعف الحسـنات، وبعفوه تُمحى السيئات، له الحمد جل وعلا يسمع من حمده، ويعطي من سأله، ويزيد من شكره، ويطمئن من ذكره، نحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يليق بجلاله وعظيم سلطانه، حمداً يوافي فضله وإنعامـه، وينيلنـا رحمتـه ورضـوانه، ويقينا سخطه وعذابه، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم واقتفى أثـرهم إلى يوم الدين، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين.

وبعد

فإن الأمة اليوم بحاجة إلى العودة إلى السيرة النبوية تستجلي منهـا معـالم الفتح والنصر ؛ لأن هدي وسـنة النبـي ﷺ وسـيرته هـي المعلـم الـدائم الـذي نستنير به في ظلمات حياتنا، والذي نـرى فيـه معـالم الطريـق إلى مرضـاة ربنـا، والذي نأخذ منه المنهج الصحيح لمواجهة الأخطار ومقارعة الأعـداء في واقـع حياتنا، فإن الله جل وعلا قد منَّ علينا بأن جعل القرآن والإسـلام ممـثلاً تمثـيلاً كاملاً عظيماً في سيرة المصطفى ﷺ ، وأرشدنا إلى ذلك ووجهنا إليه كـما في قولـه سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَـانَ يَرْجُـو اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

ونحن اليوم في هذا الواقع الذي تعيشه أمتنا محاطة بأعدائها مخذولة إلى حد كبير من قبل أبنائها، وفيها من التقصير والتفريط إضافة إلى الضعف والهوان ما فيها نحتاج دائماً وأبداً إلى أن نرجع إلى معين السيرة العذب لننهل منه فنروي ظمأ قلوبنا وفهومنا، ونوجه مسيرة حياتنا بإذن الله عز وجل.

ونحن وإياكم في هذه الموسوعة المباركة بإذن الله (غزوات النبي المصطفى دروس وعبر) نقف مع الفتح الأعظم للنبي ﷺ .

أسأل الله أن يجعلها ذخراً لنا يوم نلقاه وأن ينفع بها كل موحد إنه ولي ذلك والقادر عليه.

غزوة فتح مكة :

هي الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدي للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين.

غزوة فتح مكة :

هي الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عِزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً.

غزوة فتح مكة :

غزوة تتميز بطابع خاص في سجل التاريخ العسكري الإسلامي، فهي مثال كامل لأرقى مراتب الفكر العسكري والسياسي معًا، وأنبل الطرق للتوفيق بين الغاية والوسيلة، وظهرت فيها سماحة الإسلام بأجلى معانيها.

غزوة فتح مكة :

كانت في شهر الانتصارات شهر رمضان المبارك الشهر المليء بالمناسبات الطيبة التي يفتخر بها المسلمون على مر الأيام بالليل والنهار، فهو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن، وهو شهر ليلة القدر.

غزوة فتح مكة :

كانت بداية فتح عظيم للمسلمين، وقد كان الناس تبعاً لقريش في

جاهليتهم، كما أنهم تبع لقريشٍ في إسلامهم، وكانت مكة عاصمة الشِّرك والوثنية، وكانت القبائل تنتظر ما يفعل رسول الله -ﷺ- مع قومه وعشيرته، فإن نصره الله عليهم، دخلوا في دينه، وإن انتصرت قريش، يكونوا بذلك قد كفوهم أمره، فقد روى البخاري عن عمرو بن سلمة، قال: كنَّا بماء ممر الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ ، فيقولون: يزعم أنَّ الله أرسله، أوحى إليه أو أوحى الله بكذا ، فكنت أحفظ ذلك فكأنَّما يقر في صدري وكانت العرب تَلَوَّم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه فإنَّه إن ظهر عليهم فهو نبِي صادق، فلمَّا كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قومٍ بإسلامهم..."

غزوة فتح مكة :

فيها نستطيع أن ندرك تماماً قيمة الجهاد والاستشهاد والمحن التي وقعت من قبله. إن شيئاً من هذا الجهاد والتعب والمحن لم يذهب بدداً، ولم ترق نقطة دم لمسلم هدراً، ولم يتحمَّل المسلمون كلَّ ما لاقوه مما قد علمنا في هجرتهم وغزواتهم وأسفارهم، لأنَّ رياح المصادفة فاجأتهم بها، ولكن كل ذلك كان وفق قانونٍ سماوي، وبحسب سنة الله في خلقه فكل التضحيات المتقدمة كانت تؤدي أقساطاً من ثمن الفتح والنَّصر وتلك هي سنة الله في عباده... لا نصر بدون إسلامٍ صحيحٍ ولا إسلام بدون عبودية لله، ولا عبودية بدون بذل وتضحية وضراعة على بابه وجهاد في سبيله.

غزوة فتح مكة :

كان سببها يوم ارتكبت فيها قريش خطأ فادحًا عندما أعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين بالخيل والسلاح والرجال، وهاجم بنو بكر وحلفاؤهم قبيلة خزاعة عند ماء يقال له الوتير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها[١]، ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن -ولم تكن متجهزة للقتال- لتمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يا نوفل، إنا قد دخلنا حرم إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم[٢]، عندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، فقال النبي ﷺ: «**نُصرت يا عمرو بن سالم!** [٣] **لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب**» ولما عرض السحاب من السماء قال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب[٤].

غزوة فتح مكة :

أظهرت عاقبة نكث العهود وأنه وخيم للغاية، إذ نكثت قريش عهدها فحلت بها الهزيمة، وخسرت كيانها الذي كانت تدافع عنه وتحميه.

غزوة فتح مكة :

فيها تجلِّي النبوة المحمدية والوحي الرباني في الإخبار بالمرأة حاملة خطاب حاطب بن أبي بلتعة؛ إذ أخبر عنها وعن المكان الذي انتهت إليه في

---

(١) انظر: الواقدي (٢/٧٨١- ٧٨٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٣٩).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٤٤).
(٤) المصدر نفسه (٤/٤٤)، البداية والنهاية (٤/٢٧٨).

سيرها وهو (رَوْضة خاخ).

❁غزوة فتح مكة :

ظهر فيها فضيلة إقالة عثرة الكرام، وفضل أهل بدر، وقد تجلَّى ذلك واضحاً في العفو عن حاطب بعد عتابه، واعتذاره عن ذلك، بالتوبة منه.

❁غزوة فتح مكة :

فيها بيان الكمال المحمدي في قيادة الجيوش، وتحقيق الانتصارات الباهرة.

❁غزوة فتح مكة :

فيها بيان الكمال المحمدي في عدله ووفائه، تجلَّى ذلك في رد مفتاح الكعبة لعثمان بن أبي طلحة، ولم يُعطه مَن طلبه منه وهو "علي بن أبي طالب" -رضي الله عنه- وهو صهره الكريم وابن عمه.

وبعد هذا الإجمال إليك أخي القارئ الدروس والعبر من هذا الفتح الأعظم مفصلة ،والله بيده العون والتوفيق والسداد .

دروس وعبر من غزوة فتح مكة

١- على المسلمين أن يمتلكوا المبادأة:

إن المبادأة أو المبادرة تعني باختصار "حرية العمل"، والذي يملـك المبـادأة يحرم خصمه من حرية العمل، ويجعـل أعمالـه محصـورة في نطـاق"رد الفعـل"، وإحراز المبادأة من أهم عوامل النجاح والنصر في السياسة والحـرب عـلى حـدٍ سواء .

ولقد نقضت قريش العهد الذي أقرت بنوده في الحديبية في السنة السادسـة من الهجرة وذلك عمل ينطوي – ولا شـك – عـلى "نوايـا عدوانيـة" تتجـاوز إطار عملية ثأر محـدودة بـين بنـي بكـر حلفـاء قـريش وبنـي خزاعـة حلفـاء المسلمين، ولا بـد أن يفطـن القـارئ المحنـك إلى مـا في ذلـك مـن خطـر عـلى الإسلام والمسلمين، فلا يقف مكتوف الأيدي أمام نوايا العدوان الـذي تأمـل به قريش تحقيق هدفها الإستراتيجي الكبير وهـو القضـاء عـلى الـدين الجديـد بالهجوم على قاعدته بالمدينة.

من أجل ذلك قرر الرسول الكريم -ﷺ- أن يأخذ بزمام المبادرة فيسـير إلى قريش في عقر دارها.

٢- تحقيق المفاجأة وخداع العدو:

إن المفهوم العلمي للمفاجأة أو المباغتة هو" إحداث موقف لا يكون العـدو مستعدًا له". وهناك مستويان للمفاجـأة، فهـي تكـون "مفاجـأة تكتيكيـة" إذا

وقعت في نطاق محدود أو محلي وتـم فيهـا إخفـاء قـوة الهجـوم ومكانـه ووقتـه واتجاهه عن المدافعين، فإذا تمكن المهاجم من إخفاء "نية الهجوم" نفسه تصـبح المفاجأة" مفاجأة إستراتيجية"، وهذا المسـتوى مـن المفاجـأة لـيس أمـراً يسـيراً خاصة في العصر الحاضر الذي تقدمت فيه وسـائل الحصـول عـلى المعلومـات والتجسس تقدماً مذهلاً، لذلك فهو يتطلب تخطيطـاً غايـة في المهـارة والحـذق والسرية والخداع وليس من شك في أن تحقيق المفاجأة لـه آثـاره النفسـية التـي تفعل فعلها في نفوس وعقول من يتعرضون لها وفي كفاءتهم وإرادتهـم القتاليـة بالتالي.

وأهم هذه الآثار أن العدو "يفقد" مزية المبـادأة وحريـة العمـل، فتنحصر أعماله وحركاته في نطاق رد الفعل في مواجهة الطرف الآخر الذي يحاربـه مـن (موقع قوة) بتملكه للمبادأة وحرية العمل.

وقد اتخذ الرسول الكريم -ﷺ- لفتح مكة من تدابير التخطيط والتنفيذ مـا يمكن معه أن نقول: إنه أحرز "المفاجأة الإستراتيجية" على أعدائه، وقـد كـان من آثار ذلك زعزعة إرادة قريش في المقاومة والقتال.

وقد قال كعب بن مالك رضي الله عنه يصف عناية الرسول -ﷺ- بإجراء العمليات الخداعية: "ولم يكـن الرسـول -ﷺ- يريـد غـزوة إلا وارى بغيرهـا "[1]. ، ولا غرابة في ذلك فهو عليه الصلاة والسلام القائل «**الحرب خُدعة**»(٢).

---

(١)[رواه البخاري]

(٢)[رواه مسلم]

٣- الكتمان:

ما أحوج المسلمين اليوم أن يتعلموا الكتمان من هذه الغزوة، فأمورهم كلها مكشوفة، بل مكشفة، وأعداؤهم يعرفون عنهم كل شيء، لا تكاد تخفى عليهم، فلا سر لدى المسلمين يبقى مكتوماً.

لقد حرص النبي ﷺ أشد الحرص على ألا يكشف نياته لفتح مكة لأي إنسان، عندما اعتزم الحركة إلى مكة وكان سبيله إلى ذلك الكتمان الشديد من خلال ما يأتي:

١ - أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه:

فقد أخذ النبي ﷺ بمبدأ السرِّية المطلقة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر رضي الله عنه أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئًا عن أهدافه الحقيقية، ولا باتجاه حركته، ولا بالعدو الذي ينوي قتاله؛ بدليل أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مقصد الرسول ﷺ قالت له: ما سمى لنا شيئًا. وكانت أحيانًا تصمت، وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئًا عن مقصده ﷺ[١].

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهن ربما يذعن شيئًا من هذه الأسرار -عن حسن نية- فتتنقلها الألسن حتى تصير سببًا في حدوث كارثة عظيمة[٢].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/٢٨٢)، الرسول القائد، شيت خطاب، ص٣٣٣، ٣٣٤.
(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٣٩٥، ٣٩٦.

٢- أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضم:

بعث النبي ﷺ قبل مسيرة مكة سرية مكونة من ثمانية رجال؛ وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: (لما همَّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم(١) ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية؛ ولأن تذهب بذلك الأخبار، فمضوا ولم يلقوا جمعًا، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشُب(٢) فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (بيبين) حتى لقوا النبي ﷺ بالسُّقيا(٣))(٤).

وهذا منهج نبوي حكيم في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام التي من شأنها صرف أنظار الناس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتسلم من كيد أعدائها(٥).

٣- أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث ﷺ رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش، وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب(٦)، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيمًا بهم فيقول: لا تدعوا أحدا يمر بكم

---

(١) بطن إضم: وادي المدينة الذي يجتمع فيه الوديان الثلاثة، بطحان، وقناة، والعقيق.
(٢) ذو خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد عن المدينة ٣٥ميلا.
(٣) السقيا: موضع يقع في وادي القرى، معجم البلدان (٣/٢٨٨).
(٤) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/١٣٢).
(٥) انظر: القيادة العسكرية، ص٤٩٨.
(٦) الأنقاب: جمع نقب، وهو كالعريف على القوم.

تنكرونه إلا رددتموه.. إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة(١).

إن جمع المعلومات سلاح ذو حدين، وقد استفاد الرسول ﷺ من حدِّه النافع لصالح المسلمين، وأبطل مفعول الحد الآخر باتباعه السرِّية واتخاذها أساسًا لتحركاته واستعداداته؛ ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوة المناسبة(٢).

والواجب على المسلم إذا أراد أمراً في مصلحة لنفسه في الدنيا والآخرة لا إضرار على المسلمين أن يكتب هذا الأمر.

وهناك أثر يرفعه بعض أهل العلم، يقول: { استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان } وقال عمر ﷺ : [[من كتم أمره كان الخيار في يده]].

فأنت إذا كتمتَ أمرك فالخيار في يدك أن تمضي هذا الأمر أو تسحبه.

فواجب المسلم أن يكتم أموره إلاَّ عن صديق محب يستشيره في ذات الله عز وجل.

٤ – دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب البشرية التي في استطاعته توجه إلى الله عز وجل بالدعاء والتضرع قائلا: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة»(٣).

---

(١) التحفظ: هو الاحتراز والتيقظ، مغازي الواقدي (٢/٧٩٦).
(٢) انظر: القيادة العسكرية، ص٣٦٥.
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/٢٨٢).

وهذا شأن النبي ﷺ في أموره؛ يأخذ بجميع الأسباب البشرية، ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق.

فالله عز وجل خالق الخلق أجمعين، وبيده مقاليد الأمور ومفاتيح الفرج، ولا يقع شيء إلا بعلمه وحكمته وإرادته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وإن ما يحل بالمسلم خاصة وبالمسلمين عامة هو بإرادة الله عز وجل، إما بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وإما تمحيصاً لهم وابتلاء، فمن نزل به هم أو غم أو ابتلاء فليلجأ إلى الله عز وجل، وليرجع إلى ربه ومولاه، وليعلم أنه لا يرفع الضر والبلاء إلا الله سبحانه وتعالى وحده.

٥- إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبي ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي ﷺ إليهم، وأرسله مع امرأة مسافرة إلى مكة، ولكن الله -سبحانه وتعالى- أطلع نبيه ﷺ عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى ﷺ على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النبي ﷺ عليًّا والزبير والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلا من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم، ثم استدعي حاطب رضي الله عنه للتحقيق، فقال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقًا في قريش -يقول: كنت حليفًا- ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله

ارتدادًا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ : «أما إنه قد صدقكم».

إن تدابير النبي ﷺ في الكتمان أمّنت له مباغتة كاملة لقريش، وأجبرتها على الرضوخ للأمر الواقع: الاستسلام.

وهذا الكتمان لا مثيل له في سائر الحروب، ما أحرانا أن نتعلمه ونقتدي به ونسير على منواله.

٤- بُعد النظر:

القائد المتميز هو الذي يتسم ببعد النظر، بالإضافة إلى مزاياه الأخرى، ويتخذ لكل أمر محتمل الوقوع التدابير الضرورية لمعالجته، دون أن يترك مصائر قواته للاحتمالات بدون إعداد كامل.

إن النصر من عند الله، يؤتيه من يشاء، ولكن الله سبحانه وتعالى ينصر من أعدّ عدّته واحتاط لكل احتمال كبير أو صغير قد يصادفه، لذلك يشدد العسكريون على إدخال أسوأ الاحتمالات في حسابهم في أية عملية عسكرية.

لقد أمر النبي ﷺ أن يحبس أبو سفيان في مدخل الجبل إلى مكة، حتى تمر عليه جنود المسلمين، فيحدث قومه عن بينة ويقين، ولكي لا يتكون إسراعه في العودة إلى قريش قبل أن تنهار معنوياته تماماً، سبباً لاحتمال وقوع أية مقاومة من قريش، مهما تكن نوعها ودرجة خطورتها. وفعلاً اقتنع أبو سفيان بعد أن رأى قوات المسلمين كلها، أن قريشاً لا قبل لها بالمقاومة.

وقد أدخل النبي ﷺ في حساباته أسوأ الاحتمالات أيضاً، عند تنظيمه

خطة الفتح، فكانت تلك الخطة تؤمن تطويق البلد من جهاته الأربع بقوات مكتفية بذاتها، بإمكانها العمل مستقلة عن القوات الأخرى عند الحاجة، وبذلك تستطيع القضاء على أية مقاومة في أية جهة من جهات مكة، كما تؤمن توزيع قوات قريش إلى أقسام لمقاومة المسلمين ، فتكون قوات قريش ضعيفة في كل مكان.

واتخذ النبي ﷺ هذه التدابير الفاعلة بالرغم من اعتقاده بأن احتمال مقاومة قريش للمسلمين ضعيف جداً، وذلك ليحول دون مباغتة قواته وإيقاع الخسائر لها، مهما تكن الظروف والأحوال.

فما أحرى أن يتعلم المسلمون هذا الدرس ويطبقوه في إعداد خططهم المصيرية!

٥- العقيدة قوةٌ عظمى:

كان جيش الفتح مؤلفاً من المهاجرين والأنصار ومسلمي أكثر القبائل العربية المعروفة في حينه، لا يوحد بينه غير العقيدة الواحدة، التي يضحي الجميع من أجلها، وتشيع بينهم الانسجام الفكري الذي يجعل التعاون الوثيق بيهم سائداً.

لقد كانت انتصارات المسلمين الأولين انتصارات عقيدة بلا مراء، وكان النصر من أول ثمرات هذه العقيدة على النطاق الجماعي.

أما على النطاق الفردي، فقد رأيت كيف طوت أم حبيبة زوج النبي ﷺ فراش النبي ﷺ عن أبيها أبي سفيان، وقد جاء من سفر قاصد بعد غياب طويل

ذلك لأنها رغبت به عن مشرك نجس، ولو كان هذا المشرك أباها الحبيب.

وعندما جاء أبو سفيان مع العباس ليواجه النبي ﷺ، رآه عمر بن الخطاب، فغادر خيمته واشتد نحو خيمة النبي ﷺ، فلما وصل إليها قال: يا رسول الله! دعني اضرب عنقه. قال العباس: يا رسول الله! إني قد أجرته، فلما أكثر عمر قال العباس: مهلاً يا عمر، ما تصنع هذا إلا لأنه من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي ما قلت هذه المقالة، فقال عمر: مهلا يا عباس، فوالله إسلامك يوم أسلمت كان أحب لي من إسلام الخطاب لو أسلم. لقد كان يمثل عقيدة المسلمين الأولين، بينما كان العباس حديث عهد بالإسلام.

وكيف نعلل إقدام المهاجرين على المشاركة في غزوة الفتح، التي لم يكن من المستبعد أن تصطرع فيها قوات المسلمين وقوات قريش؟

إن عقيدة المسلمين لا تخضع للمصالح الشخصية، بل هي رهن المصالح العامة وحدها، وقد انتصر المسلمون بالعقيدة الراسخة، وهي اليوم غائبة عنهم فذلوا وهزموا، فما أحراهم أن يعودوا إلى عقيدتهم ليستعيدوا مكانتهم بين الأمم، ولينتصروا على أعدائهم، فقد غاب عنهم النصر منذ غاب عنهم الإسلام.

٦- أهمية المعنويات في الجهاد:

لم تكن معنويات المسلمين في وقت من الأوقات أعلى وأقوى مما كانت عليه أيام فتح مكة، البلد المقدس عند المسلمين الذين يتوجهون إليه في صلاتهم كل يوم، ويحجون بيته كل سنة. وكانت أهمية مكة للمهاجرين أكثر من أنها بلد

مقدس، فهي بلدهم الذي هاجروا منه فراراً بدينهم وخلفوا فيها أموالهم وذويهم وكل عزيز عليهم.

لذلك لم يتخلف أحد من المسلمين عن هذه الغزوة إلا القليل من ذوي الأعذار القاهرة الصعبة.

أما معنويات قريش، فقد كانت متردية للغاية، فقد أثرت فيهم عمرة القضاء، كما أثر فيهم انتشار الإسلام في كل بيت من بيوت مكة تقريباً، وبذلك فقدت مكة روح المقاومة وروح القتال. ومما زاد في انهيار معنويات قريش، ما اتخذه النبي ﷺ من إيقاد عشرة آلاف نار في ليلة الفتح، ومرور الجيش كله بأبي سفيان قائد قريش أو أكبر قادتها، ودخول جيوش المسلمين في كل جوانب مكة.

لقد كانت غزوة الفتح معركة معنويات بالدرجة الأولى، ما أحرانا أن نتعلمها لحاضرنا ومستقبلنا.

٧- رسول السلم ﷺ:

حرص النبي ﷺ من خروجه لفتح مكة على نياته السلمية، ليؤلف بذلك قلوب المشركين، ويجعلها تقبل على الإسلام.

وقد عهد عليه الصلاة والسلام إلى قادته حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم. وبقي النبي ﷺ مصراً على نياته السلمية بعد الفتح أيضاً، فقد أصدر العفو العام عن قريش قائلاً: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وكما حرص النبي ﷺ الجماعي، حرص كذلك على السلم الفردي،

فمنع القتل حتى لفرد واحد من المشركين، مهما تكن الأسباب والأعذار.

فقد قتلت خزاعة حلفاء المسلمين رجلاً من هذيل غداة يوم الفتح لثأر سابق لها عنده، فغضب النبي ﷺ أشد الغضب، وقام في الناس خطيباً، ومما قاله: «**يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا قدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله**»، أي ديته، ثم ودي بعد ذلك الرجل الذي قتلت خزاعة.

بل إن النبي ﷺ لم يقتل رجلاً من المشركين أراد اغتياله شخصياً وهو يطوف في البيت، بل تلطف معه. فقد اقترب فضالة بن عمير يريد أن يجد له فرصة ليقتله، فنظر إليه النبي ﷺ نظرة عرف بها طويته، فاستدعاه وسأله: «**ماذا كنت تحدث به نفسك؟**» قال: لا شيء، كنتُ أذكر الله! فضحك النبي ﷺ وتلطف معه ووضع يده على صدره، فانصرف الرجل وهو يقول: ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه.

ورأى علي بن أبي طالب رضي الله عنه مفتاح الكعبة بيد النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أين عثمان بن طلحة؟** فلما جاء عثمان قال له: «**يا ابن طلحة، هاكَ مفتاحك، اليوم يوم بر ووفاء**».

وقد رأى المسلمون النبي ﷺ يوم الفتح يتواضع لله، حتى رأوه يوم ذلك ورأسه قد انحنى على رحله، وبدا عليه التواضع الجم، حتى كادت لحيته

تمس واسطة راحلته خشوعاً، وترقرقت في عينيه الدموع تواضعاً لله وشكراً.

تلك هي سمات الخُلق الإسلامي الرفيع في السلم والوفاء والتواضع، ولكنه سلم الأقوياء لا سلم الضعفاء، ووفاء القادرين لا وفاء العاجزين، وتواضع العزة لا تواضع الذلة.

إن سلم الأقوياء القادرين هو السلام الذي يأمر به الإسلام، أما سلم الضعفاء العاجزين فهو الاستسلام الذي ينهى عنه الإسلام.

ذلك ما ينبغي أن نتعلمه من فتح مكة، لحاضر المسلمين ومستقبلهم، لحاضر أفضل ومستقبل أحس، وهي عبر لمن يعتبر.

٨- حكم التحالف مع غير المسلمين فيما لا يتعارض مع الإسلام:

و نجد من دروس هذا الفتح، وهي جواز التحالف مع غير المسلمين فيما لا يتعارض مع الإسلام وفيما يحقق مصلحة الإسلام، وفيما لا يقع به مضرة على المسلمين ولا تنازل عن أحكام الإسلام، والنبي ﷺ في صلح الحديبية - وهو الذي كان سبباً لفتح مكة- كانت قد دخلت خزاعة في عهدها مع رسول الله ﷺ، وكانت حليفة له، وكان النبي ﷺ قد جعل خزاعة عيبة نصحه، أي: يثق بهم لما علم من صدقهم في جوانب تعاملهم معه، فعاهدهم وحالفهم، وكانوا معه عليه الصلاة والسلام.

إلا أن ذلك لا ينبغي أن يكون عن ضعف أو ذل أو هوان للمسلمين، ولا ينبغي أن يكون فيه إعطاء دنية في الدين، ولا ينبغي أن يكون ذلك على

حساب مصالحهم وتحقيق أمور دينهم، فضلاً عن أن يكون ذلك تغييراً في أساسيات وثوابت من شرع الله عز وجل، سواء ثبتت في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ.

ونحن نرى اليوم من يحتجون بالآيات القرآنية، لكنهم لا ينزلونها تنزيلها الحقيقي الصحيح، ولا يطبقونها التطبيق العملي الذي كان أنموذجه الأمثل في سيرة النبي ﷺ: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال:٦١] لكن الله جل وعلا يقول: ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩] والنبي ﷺ قد بين في سيرته مثل ذلك، فهذه مواقف بين يدي الفتح، أي: قبل بلوغه.

٩- أسباب مساعدة لفتح مكة وتأديب كفارها :

وأمام نقض قريش للعهود والمواثيق مع المسلمين فقد عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة وتأديب كفارها، وقد ساعده على ذلك العزم بعد توفيق الله- عدة أسباب منها:

أ- قوة جبهة المسلمين الداخلية في المدينة وتماسكها: فقد تخلصت الدولة الإسلامية من غدر اليهود، وتم القضاء على يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر.

ب- ضعف جبهة الأعداء في الداخل: وفي مقدمة هؤلاء المنافقون الذين فقدوا الركن الركين لهم -وهو يهود المدينة- فهم أساتذتهم الذين يوجهونهم ويشيرون عليهم.

ج- اهتم رسول الله ﷺ بتطوير القوة العسكرية، وإرسال السرايا في فترة الصلح؛ وبذلك أصبحت متفوقة على قوة مشركي قريش حيث العدد والعدة والروح المعنوية.

د- كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصاديًّا وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصاديًّا، فقد فتح المسلمون خيبر وغنموا منها أموالاً كثيرة.

هـ- انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة، وهذا يطمئن القيادة حين تتخذ قرارها العسكري بنقل قواتها ومهاجمة أعدائها.

و- قيام السبب الجوهري والقانوني لغزو مكة، وهو نقض قريش للعهد والعقد[(١)]. ونلحظ أن النبي ﷺ لم يضيع قانون الفرصة وتعامل معه بحكمة بالغة، فكان فتح خيبر، وذلك بعد صلح الحديبية، والآن تتاح فرصة أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها، وتغيرت موازين القوى في المنطقة، فكان لا بد من الاستفادة من المعطيات الجديدة، فأعد ﷺ جيشًا لم تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل، فقد وصلت عدته إلى عشرة آلاف رجل[(٢)].

١٠- عزل العدو دوليًّا

ومن أهم وسائل إدارة الصراعات أن نفرض العزلة الدولية على عدونا حتى يتلفت حوله فلا يجد حليفًا أو نصيرًا، وهذا هو الوضع الذي فرضه المسلمون على قريش فقد جردها الرسول الكريم -ﷺ- من الحلفاء والمناصرين نتيجة للسياسة الحكيمة التي اتبعها بعد الهجرة، والتي قامت على

---

(١) انظر: السيرة لأبي فارس، ص٤٠١.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ (٢/٢٤٤)، التاريخ السياسي والعسكري ص٣٦٦.

عقد الاتفاقيات والمعاهدات مع مختلف القبائل العربية لكفالة حرية الدعوة وحُسن الجوار والمعاملة، فكانت النتيجة المباشرة لتلك المعاهدات حرمان قريش من قوى كان يمكنها أن تتحالف معها أو تشد أزرها.

أضف إلى ذلك أن انتشار الإسلام بين قسم كبير من القبائل ومن ضمنها قريش، ينطوي على "تحييد" للقسم الآخر الذي بقي على الشرك، وخاصة بالنسبة للمعتدلين الذين يرون أنه لا جدوى من القتال، ويعتبرون الحرب كارثة تحيق بهم.

١١- الثقة واليقين بنصر الله عز وجل:

ومن الدروس التي نحتاج إلى أن نتدبر فيه ينقسم إلى قسمين، وكلاهما متعلق بعقيدة المؤمن ويقينه: الأول منهما: الثقة بنصر الله عز وجل، واليقين بتحقيق وعده، قال الله عز وجل: ﴿ إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد:٧]، وقال جل وعلا: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣] كل هذه الوعود صادقة لا تتخلف، إنما الذي يتخلف فعل المسلمين، فلا تأتيهم حينئذ تلك الوعود؛ لأنهم لم يأتوا بالشروط.

ولقد ظل النبي ﷺ يدعو في مكة عشرة أعوام، وظل بعد ذلك يجاهد ويكابد المشاق أعواماً أخرى، وخرج من مكة مهاجراً ومطارداً، وخرج لا يملك شيئاً من الدنيا، وكل المؤشرات المادية كانت في غير صالح المسلمين.

ولو قسنا ذلك بالزمن لرأينا أنه عليه الصلاة والسلام خرج من مكة مهاجراً طريداً وعاد إليها فاتحاً عزيزاً بعد ثمانية أعوام، فما هي في عمر الزمان؟ إنها مدة قصيرة، وخرج النبي ﷺ لا يملك مالاً ولا يملك سلاحاً، والمسلمون في ذلك الوقت قلة لا يؤبه لها، والأجواء المحيطة بهم والقبائل التي من حولهم كلها على الكفر والشرك.

ثم لم يكن النصر في هذا العنصر المادي بقوة المسلمين أو كثرة جيوشهم، بل ما فتحوا مكة إلا بعد أن فتحوا قلوباً كثيرة وعقولاً كثيرة، ودخل في الإسلام من القبائل ومن الناس أعدادٌ هائلة عظيمة، وبعد العام الثامن في العام العاشر عندما حج النبي عليه والسلام حجة الوداع كان معه ما يزيد على مائة ألف نفس من أصحابه الذين حجوا معه.

لقد فتح الله على رسوله ﷺ القلوب والعقول قبل أن يفتح البلاد والدور والحصون، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر:١-٣].

فنحن -إذاً- لابد من أن نعظم اليقين بنصر الله عز وجل، خاصة في هذه الظروف، فبعض الناس اليوم يقول: كيف سينتصر المسلمون؟! أمريكا الدولة العظمى في العالم والأمم المتحدة ضدهم، والأسلحة عابرة القارات! كأن بعض الناس نسوا أن هناك قرآناً يتلى، ونسوا أن هناك سنناً، ونسوا أن هناك قوة عظمى وهي قوة الله عز وجل القائل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا

يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

وفي يوم الأحزاب اجتمع على المسلمين شدة الجوع وشدة الخوف وشدة البرد، وجيش المشركين يحيط بهم من كل جانب، وقريظة نقضت العهد، وأصبح المسلمون محاطين من كل جانب، وليست عندهم حيلة ولا قوة، فما الذي جرى؟ يقين بنصر الله، فكبر النبي عليه الصلاة والسلام وبشر أصحابه بالنصر، ثم جاءت الريح فأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وقلعت الخيام، وطردت أولئك الكفرة والمعتدين ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب:٢٥] ، وبعدها قال النبي عليه الصلاة والسلام: « اليوم نغزوهم ولا يغزونا »، فلم يكن النبي عليه الصلاة والسلام عندما خرج من مكة وهو مهاجر طريد عنده أدنى شك في أنه سينصر بإذن الله، وأن كلمته ستعلو، وأن دينه سينتشر، وأن رايته ستخفق، وأن دولته ستعم بقاع الأرض كلها، كما قال عليه الصلاة والسلام: « إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وإن ديني سيبلغ ما زوي لي منها ».

فنحن اليوم في حاجة إلى أن نزيل هذا الوهن الذي سرى إلى النفوس، واليأس الذي تسلل إلى القلوب، واستعظام قوة الخلق ونسيان قوة الخالق، ونقول للذين أصبحوا اليوم يفتون في العضد ويقولون لنا: كونوا واقعيين، فماذا تريدون أن تفعلوا؟ وماذا يفعل هؤلاء الفلسطينيون في فلسطين؟ إنهم

يزهقون أرواحهم، ويسفكون دماءهم، ويخربون بيوتهم بأيديهم، ثم لم ينجزوا شيئاً.

نقول: سبحان الله! ننسى قوة الله عز وجل، وننسى قوله تعالى: ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٩]، وننسى كيف نصر الله رسوله في يوم بدر، وكيف نصر المسلمين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام! بل إلى قريب من عهدنا هذا في حرب رمضان التي انتصر فيها المسلمون على اليهود في أول هذه المعارك.

فلماذا نغفل عن ذلك كله؟! درس الفتح يعلمنا أن الدائرة تدور وأن الأيام تتوالى، وأن الأعوام تكر، وأن العاقبة للمتقين، وأن النصر للمؤمنين ولو بعد حين

وفيما فعله الرسول ﷺ مع أهل مكة حكمة أخرى، فقد علم الله أن العرب سيكونون حملة رسالته إلى العالم، فأبقى على حياة أهل مكة وهم زعماء العرب ليدخلوا في دين الله، ولينطلقوا بعد ذلك إلى حمل رسالة الهدى والنور إلى الشعوب، يبذلون من أرواحهم وراحتهم ونفوسهم ما أنقذ تلك الشعوب من عمايتها، وأخرجها من الظلمات إلى النور.

١٢- تجريد العدو من إرادة القتال:

إن الحرب في حقيقتها "صراع بين إرادتين": إرادتنا وإرادة عدونا، والطرف الذي يفقد الإرادة القتالية سوف يكون هو الخاسر المهزوم.

ولقد كان من الأمور البارزة في غزوة فتح مكة حرص الرسول الكريم -

ﷺ- على تجريد قريش من إرادة المقاومة والقتال بعدة وسائل:

١ - غزو قلب وعقل ونفس زعيم قريش:

ومن الأساليب التي اتخذها الرسول -ﷺ- لذلك إقناع أبي سفيان عن طريق "إظهار القوة وتجسيدها" بأنه لا جدوى من المقاومة وقتال المسلمين، فقد أوصى عليه الصلاة والسلام عمه العباس حين جاء بأبي سفيان إلى معسكر المسلمين خارج مكة باحتجازه في مدخل الجبل إلى مكة حتى يمر به جيش المسلمين فيحدث قومه عما رآه عن بينة ويقين، فيقضي على أي أمل لديهم في المقاومة، فقد قال عليه الصلاة والسلام: « **يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها،** » قال العباس : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي ، حيث أمرني رسول الله -ﷺ- أن أحبسه، ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس، من هذه فأقول سليم فيقول: مالي ولسليم، ثم تمر القبيلة فيقول :مالي ولمزينة، حتى نفدت القبائل ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنها فإذا أخبرته بهم قال: مالي ولبني فلان، حتى مرَّ رسول الله -ﷺ- في كتيبته الخضراء) لكثرة الحديد) وظهر فيها المهاجرون والأنصار -رضي الله عنهم- لا يرى منهم إلا الحدق (العيون) من الحديد.

فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول -ﷺ- في المهاجرين والأنصار قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا، قلت يا أبا سفيان :إنها النبوة، قال : فنعم إذن؟ قلت: النجاء (السرعة) إلى قومك.

ومما يدل على حرص الرسول الكريم -ﷺ- على إيقاع أكبر قدر من التخويف والضغط النفسي على أبي سفيان اختياره لمضيق الوادي بالذات لوقوف أبي سفيان، فمرور الجيش في مضيق يختلف عن مروره في الأرض المكشوفة ، فالمضيق يجعل أبا سفيان يرى قوة الجيش بصورة مجسمة، أما الأرض المكشوفة فسوف ينتشر فيها الجيش ويتفرق فلا يقع التأثير المطلوب، وقد أسرع أبو سفيان إلى قومه فقال "يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به" وذلك أوضح دليل على تجريده من إرادة المقاومة والقتال.

٢- تجريد قريش نفسها من إرادة القتال:

وفضلاً عما يحدثه قول أبي سفيان لقومه السابق ذكره من دفع قريش إلى الاستسلام، فقد كان تنظيم الرسول الكريم - -ﷺ لجيش المسلمين على نحو يضعف الدافع لدى المشركين إلى القتال ويجعلهم يترددون في المقاومة، فقد كان الجيش لا يتألف من المهاجرين والأنصار فحسب بل من مسلمي أكثر القبائل العربية المعروفة يومئذ: ألف رجل من بني سليمان، وألف رجل وثلاثة رجال من مزينة، وأربعمائة من بني جهينة؛ وأربعمائة من أسلم، وعدد من تميم وأسد وقيس وغيرها من القبائل العربية الأخرى.

هذا التنظيم أصاب المشركين بالتردد في الإقدام على القتال؛ لأن كل قبيلة لها في جيش المسلمين عدد كبير، بل إن كثيرًا من القبائل تعتبر نجاح هذا الجيش نجاحًا لها على الرغم من اختلاف العقيدتين، والأكثر من ذلك فإن انتصار هذا الجيش لا يعتبر فخرًا لقبيلة دون أخرى كما أن فشل أية قبيلة في

التغلب عليه، لا يعتبر عارًا عليها؛ لأن هذا الجيش لم يكن لقبيلة دون أخرى بل لم يكن للعرب دون غيرهم بل كان للإسلام ولمعتنقي هذا الدين من العرب وغير العرب..

ثم جاءت الضربة النفسية القاضية على إرادة القتال حين أعطى الرسول -ﷺ- "الأمان" لقريش مقابل الاستسلام، فقد نصح العباس عم النبي -ﷺ- أبا سفيان بأن يلجأ إلى الرسول الكريم -ﷺ- حتى ينظر في أمره قبل أن يدخل الجيش مكة صباح غد فيحيق به وبقومه العقاب، فقال العباس للرسول الكريم -ﷺ- إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا (وكان أبو سفيان قد أسلم ليحقن دمه قبل لقائه بالرسول ﷺ)، فقال عليه الصلاة والسلام "نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن"، فكان ذلك من أقوى أسباب استسلام قريش، فإنه لما قال أبو سفيان لقومه "يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن" قالت قريش: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن" فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

١٣- النصر ليس مدعاة للكبر:

إن النصر لا يؤدي إلى الكبر، وإن النصر لا يقود إلى الخيلاء، وإن النصر لا يؤدي إلى فتنة النفوس بالإعجاب، ولا إلى الطغيان الذي يكون مع المنتصرين من غير أهل الإيمان والإسلام.

لما دخل النصارى بيت المقدس عام اثنين وتسعين وأربعمائة من الهجرة قتلوا في داخل المسجد وفي أنحائه نحواً من سبعين ألف نفس، حتى خاضت ركب الخيل في الدماء.

وفي يوم دخول التتار إلى بغداد قتلوا نحو ثمانمائة ألف نفس، وقيل: ألف ألف وثمانمائة ألف نفس.

كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية، واستحر القتل بأهل بغداد أربعين يوماً حتى سالت ميازيب البيوت من دماء المسلمين، وحتى بلغ نتن الجيف من أرض بغداد إلى بلاد الشام، وذلك هو طغيان النصر.

لكن انظر إلى رسول الله ﷺ يوم دانت له مكة التي استعصى عليه أهلها، مكة التي كان أهلها أشد الناس إيذاءً له، مكة التي كانت مؤلبة ومحرضة عليه للقبائل، ولكل الأعداء الذين سعت قريش إلى أن تجعلهم في صفها ضد رسول الله عليه الصلاة والسلام، دخل عليه الصلاة والسلام مطأطئاً رأسه تواضعاً لله عز وجل، وفي بعض الروايات: (حتى مست لحيته ظهر دابته) عليه الصلاة والسلام، دخل وهو المنتصر لا في نشوة المنتصر، بل في ذلة العابد الحامد لربه سبحانه وتعالى، ولذلك لم تطغ نفسه، فلم يأت بالناس ليقص رقابهم ويسيل دماءهم، بل عفا عنهم.

هلاّ... تواضعنا لله، وهلاّ تواضعنا لخلق الله ونزعنا رداء العجب والفخر، إذ المطلوب منك ـ أيها المؤمن ـ أن تعطف وترحم المساكين، وأن تصل رحمك والوالدين، وأن تغض الطرف عن إساءة المسيئين، وتسامح المذنبين، وتأتسي

بسيد العالمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وجاءه ﷺ من هرب كـ حكيم بن حزام وغيره، وجلسوا بين يديه يلتمسون عفوه فوجدوا نفسه سمحة بذلك، إلا من كان عدواً لله ولرسوله، من اجترأ على دينه أو سب وآذى رسوله ﷺ، فأولئك بضعة نفر في أعلى روايات السيرة أنهم تسعة أهدر النبي ﷺ دماءهم وأمر بقتلهم ولو كانوا معلقين بأستار الكعبة.

لكن جمهور أهل مكة ما أصاب أحداً منهم من رسول الله عليه الصلاة والسلام ضر، ومكة نفسها ما هُدِم فيها بيت، ولا قلعت فيها شجرة، ولا أضرمت فيها نار، تلك هي انتصارات الإسلام، ولعلنا نستحضر يوم السابع والعشرين من شهر رجب في العام السابع والثمانين بعد الخمسمائة من الهجرة يوم دخل صلاح الدين منتصراً إلى بيت المقدس في يوم جمعة، ولعلنا نتذكر الخطبة التي خطبها القاضي الفاضل ، وكلها تذكير بفضل الله، وإقرار بنعمة الله، واعتراف بضرورة شكر الله، ولعلنا نعرف صنع صلاح الدين الذي قضى دهراً طويلاً من عمره مرابطاً في جهاده في سبيل الله.

١٤- الإسلام دين سلام ودين قوة:

كان قرار الرسول الكريم -ﷺ- أن يتم فتح مكة بلا "قتال" فعهد إلى أمرائه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

وكان عليه الصلاة والسلام حريصًا على ذلك كل الحرص وهو ما ينطق به أسلوبه في إدارة المعركة والسيطرة المحكمة على كل مرحلة من مراحلها، ولقد

بلغ من حرصه -ﷺ- على تجنب القتال أنه بلغه أن سعد بن عبادة الذي كان يقود رتلاً من الأرتال الأربعة التي يتألف منها جيش المسلمين قال: "اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة" فأخذ الراية منه ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد حتى يحول دون اندفاع سعد لإثارة الحرب.

ومن هذا الحرص على حقن الدماء أنه ﷺ لم يكتفِ بالتخطيط والقرار بأن يكون الفتح بغير قتال؛ لأنه يكون بذلك "عملاً من جانب واحد" لا بد أن يقابله عمل من الجانب الآخر ينسجم معه ويحقق هدفه هو "عدم المقاومة"، أي أنه لابد من اتخاذ التدابير التي "تمنع" العدو من المقاومة والقتال، وهذا هو بالضبط ما فعله الرسول الكريم القائد- ﷺ- بحرصه على المفاجأة والخداع وتجريد قريش من إرادة القتال على نحو ما قدمنا..

وهكذا كان جمعه عليه الصلاة والسلام بين الأمرين) تجنب القتال من جانبه ومنع قريش من المقاومة والقتال) آية من آيات حسن القيادة، وإدارة الصراع على أعلى مستوى، وتأكيدًا لمقاصد الإسلام النبيلة.

على أن الرسول الكريم -ﷺ- لم يكتف بهذه التدابير، بل أعد عدته للقتال" على أتم ما يكون الإعداد:

١. فقد حشد لفتح مكة عشرة آلاف مقاتل وهو أكبر حشد منذ بدأ الصراع .

٢. ووضع خطته لدخول مكة بحيث يؤمن تطويقها من جهاتها الأربع :

-من الشمال: الزبير بن العوام.

- من الجنوب: خالد بن الوليد .
- من الغرب: رتل سعد بن أبي عبادة (قوات الأنصار ومن الشمال الغربي من اتجاه جبل هند رتل أبي عبيدة بن الجراح قوات الهاجرين.

١. وهذه الخطة المحكمة أدت إلى تحقيق هدفين في غاية الأهمية من وجهة نظر الفن الحربي :

١. ضمان القضاء على أية مقاومة في أية جهة من مكة" في الحال" نظرًا لوجود المسلمين في كل جهة من جهاتها .

٢. تشتيت قوات قريش إذا قررت المقاومة إلى أقسام لمواجهة جيش المسلمين على ؛ مما يحرمها من تركيز قواتها وحشدها في جبهة واحدة ويجعلها ضعيفة في كل مكان

١٥- مواقف دعوية وقدرة رفيعة في التعامل مع النفوس:

١ – إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر، انقحمت[١] بيتي وأغلقت عليَّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل أن اطلب لي جوارًا من محمد، وإني لا آمن من أن أقتل، وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثرًا مني، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلحقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدرًا وأحدًا، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، تؤمنه؟

(١) أي رميت بنفسي.

فقال: «نعم»، هو آمن بأمان الله، فليظهر، ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «من لقي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج، فلعمري إن سهيلا له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع» فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سهيل: كان والله برًّا، صغيرًا وكبيرًا. فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة[1].

لقد كان لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو، حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبر طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك، وقد حسن إسلامه وكان مكثرًا من الأعمال الصالحة[2] يقول الزبير بن بكار: كان سهيل بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهدًا، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميرًا على كردوس[3] يوم اليرموك[4].

٢- إسلام صفوان بن أمية:

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:... وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشعيبة[5] وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: ويحك، انظر من ترى، قال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/٨٤٦، ٨٤٧)، المستدرك للحاكم (٣/٣٨١).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/٢١٦، ٢١٧).
(٣) كردوس: فرقة كبيرة.
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/١٩٥).
(٥) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة. معجم البلدان (٥/٢٧٦).

قتلي، قد ظاهر محمدا عليَّ. فلحقه فقال: يا عمير، ما كفاك ما صنعت بي؟ حملتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي، قال: أبا وهب جعلت فداك، جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس. وقد كان عمير قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، سيد قومي خرج هاربًا ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تؤمنه فداك أبي وأمي، قال رسول الله ﷺ: «قد أمنته»، فخرج في أثره فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمنك، فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئت صفوان هاربًا يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنته فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله ﷺ: «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البرد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذ معتجرًا[١] به، بُرد حَبَرَة[٢] فخرج عمير في طلبه الثانية، حتى جاء بالبُرد فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مجده مجدك، وعزه عزك، وملكه ملكك، ابن أمك وأبيك، اذكر الله في نفسك، قال له: أخاف أن أقتل، قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرهم، وقد بعث إليك ببرده الذي دخل فيه معتجرًا، تعرفه؟ قال: نعم، فأخرجه، فقال: نعم، هو هو، فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله ﷺ يصلي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا، فقال صفوان: كم تصلون في اليوم والليلة؟ قال:

---

(١) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئا تحت ذقنه. (النهاية ٣/٦٩).
(٢) الحبرة: ضرب من ثياب اليمن.

خمس صلوات، قال: يصلي بهم محمد؟ قال: نعم، فلما سلم صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمرًا وإلا سيرتني شهرين، قال: «انزل أبا وهب» قال: لا والله حتى تبين لي، قال: «بل تُسيَّر أربعة أشهر» فنزل صفوان.

وخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعًا أو كرهًا؟ قال رسول الله ﷺ: «عارية مؤداة» فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين، فشهد حنينًا، والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية جعل صفوان ينظر إلى شعب مليء نعمًا وشاء ورعاء فأدام إليه النظر ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: «أبا وهب، يعجبك هذا الشعب؟» قال: نعم، قال: «هو لك وما فيه»، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. وأسلم مكانه(١).

ونلاحظ في هذا الخبر أن النبي ﷺ حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم، وذلك بإعطائه الأمان ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر، ثم بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسان عادي، فأعطاه أولا مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة، ثم أعطاه ما في أحد الشعاب من الإبل والغنم فقال: ما طابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي. ثم أسلم مكانه(٢)،

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/٨٥٣– ٨٥٥).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/٢٢٠).

وقد وصف لنا صفوان بن أمية عطاء النبي ﷺ فقال: (والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ)(١).

٣- إسلام عكرمة بن أبي جهل:

قال عبد الله بن الزبير ﷺ: قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنه، فقال رسول الله ﷺ: «هو آمن»، فخرجت أم حكيم في طلبه ومعها غلام لها رومي، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حيٍّ من عكٍّ(٢) فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطًا، وأدركت عكرمة، وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيَّ السفينة يقول له: أخلص، فقال: أي شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله، قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس، وأبرّ الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني قد استأمنت لك محمدًا رسول الله ﷺ. قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمنك. فرجع معها وقال: ما لقيتِ من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره فقتله عكرمة، وهو يومئذ لم يسلم، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت».

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل، رقم ٢٣١٣، ص١٨٠٦.

(٢) عك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية، معجم ما استعجم، ص٢٢٣.

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها، فتأبى عليه، وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة، فيقول: إن أمرًا منعك مني لأمر كبير، فلما رأى النبي ﷺ عكرمة وثب إليه -وما على النبي ﷺ رداء- فرحا بعكرمة، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف بين يديه، وزوجته متنقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمنتني، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، فأنت آمن» فقال عكرمة: فإلامَ تدعو يا محمد؟ قال: «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتفعل وتفعل» حتى عد خصال الإسلام، فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثا وأبرنا برا، ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله علمني خير شيء أقوله، قال: «تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله» قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله ﷺ: «تقول: أشهد الله وأُشهد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد» فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله: «لا تسألني اليوم شيئا أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه» فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض، في وجهي أو وأنا غائب عنه» فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقها في

صدّ عن سبيل الإسلام إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله، ثم اجتهد في القتال حتى قُتل شهيدًا(١).

وبعد أن أسلم ردَّ رسول الله ﷺ امرأته له بذلك النكاح الأول(٢).

كان سلوك النبي ﷺ في تعامله مع عكرمة لطيفًا حانيًا يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له ورحب به، وفي رواية قال له: «مرحبا بالراكب المهاجر»(٣) فتأثر عكرمة من ذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه، فأسلم، كما كان لموقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام أثر في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول الله ﷺ، وغامرت بنفسها تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها امتنعت عنه وعللت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنه أمام دين عظيم، وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام ثم توج بإسلامه بين يدي رسول الله ﷺ، وكان صادقًا في إسلامه، فلم يطلب من رسول الله ﷺ دنيا، وإنما سأله أن يغفر الله تعالى له كل ما وقع فيه من ذنوب ماضية، ثم أقسم أمام النبي ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يبلي

---

(١) يعني يوم اليرموك.

(٢)انظر: مغازي الواقدي (٢/٨٥١- ٨٥٣).

(٣) انظر: مجمع الزوائد (٩/٣٨٥) مرسل ورجاله رجال الصحيح في إحدى سنديه، وأما الإسناد الآخر من رواية الطبراني فرجاله رجال الصحيح إلا مصعب بن سعد لم يسمع من عكرمة.

في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية، ولقد بر بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة ثم في فتوح الشام حتى وقع شهيدًا في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه وماله في سبيل الله(١).

٤ - مثل من تواضع النبي ﷺ: إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أسلم» فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: «غيروا هذا من شعره»(٢) ويروى أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه(٣).

وفي هذا الخبر منهج نبوي كريم سنه النبي ﷺ في توقير كبار السن واحترامهم، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا»(٤) وفي قوله ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم»(٥) كما أنه ﷺ سن إكرام أقارب ذوي البلاء والبذل والعطاء والسبق في الإسلام؛

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/٢٢٣- ٢٢٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٥٤، ٥٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٧.
(٤) انظر: سنن الترمذي، كتاب البر، باب ١٥رقم ١٩٨٦.
(٥) انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ٢٠، رقم ٤٨٤٣.
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/١٩٥).

تقديرًا لهم على ما بذلوه من الخدمة للإسلام والمسلمين ونصر دعـوة الله تعـالى (١).

٥ – مثل من عفو النبي ﷺ وحلمه: إسلام فضالة بن عمير:

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم، فضالة يـا رسـول الله، قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قـال: لا شيء، كنـت أذكـر الله، قـال: فضحك النبي ﷺ ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضـع يـده عـلى صـدره، فسـكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتـى مـا مـن خلـق الله شيء أحب إليَّ منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هلمَّ إلى الحديث ... يـــأبى عليـــك اللهُ
لـو مـا رأيـت محمـدًا ... بـالفتح يــو م تكسر ــ
لر أيــــت ديـــن الله ... والشر ك يغشى وجهَـه

١٦- العاقبة للمتقين:

ما نذكره من دروسها ودروس معاركه الحربية ﷺ، هي العـبرة البالغـة بـما انتهت إليه دعوة الله من نصر في أمد لا يتصوره العقل، وهذا مـن أكـبر الأدلـة على أن محمداً رسول الله ﷺ، وعلى أن الإسلام دعـوة الله التـي تكفـل بنصرـها ونصر دعاتها والمؤمنين بها والحاملين للوائها، وما كان الله أن يتخلى عن دعوتـه

---

(١)البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٣٠٤.

(٢) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/٢١٣).

وهي حق ورحمة ونور، والله هـو الحـق وهـو الـرحمن الـرحيم الـذي وسـعت رحمته كل شيء، والله نور السـماوات والأرض، فمـن يسـتطيع أن يطفـئ نـور الله!. وكيف يرضى للباطل أن ينتصر ـ النصر ـ الأخـير عـلى الحـق، وللهمجيـة والقسوة والفساد أن تكون لها الغلبة النهائية على الرحمة والصلاح[1].

١٧- في الإسلام "لا ويل للمغلوب"

وإذا كان من شأن المنتصر أن يستبد ويملي شروطه بـدافع الغـيظ والتشـفي والانتقام والغرور بالقوة، فإن الرسول الكريم -ﷺ- رغم مـا فعلـت قـريش ضد الإسلام والمسلمين- لم يفعل شيئاً من ذلك، بل كان كل همه وكـل قصـده أن يؤلف قلوب المشركين، ويجعلها تقبل على الإسلام الذي هو دين السلام.

لقد استسلمت قريش التي يعرف عليه الصلاة والسـلام فيهـا مـن تـآمروا عليه ليقتلوه، ومن عذبوه وأصحابه من قبـل، ومـن قـاتلوه في بـدر وفي أحـد، ومن حاصروه في الخندق، ومن ألّبوا عليه العرب جميعًـا، ومـن لـو اسـتطاعوا قتله وتمزيقه إربًا إربًا لما توانوا في ذلك لحظة.. لقد أصـبحت قـريش في قبضـته عليه الصلاة والسلام وتحت قدميه، أمره نافذ في رقابهم، وحياتهم جميعًا معلقـة بين شفتيه، وفي سلطانه، هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيـد مكـة وأهلها في لمح البصر.

لكن رسول الله -ﷺ- لـيس بالرجـل ولا بالقائـد الـذي يعـرف العـداوة أو يريدها أن تقوم بين الناس، وليس هو بالجبار ولا بالمتكبر أو بالذي يرفع شـعار

---

(١)السيرة النبوية دروس وعبر ، مصطفى السباعي.

"ويلٌ للمغلوب" لقد مكنه الله من عدوه، فماذا فعل؟ لقد نهض عليه الصلاة والسلام والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد الحرام، فطاف بالبيت العتيق وطهّره من الأصنام والصور، ثم وقف على باب الكعبة وقريش تنتظر ماذا يصنع وقال «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟».. قالوا خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم.. قال: «فإني أقول كما قال يوسف لإخوته، لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وكانت أعظم الآثار الاستراتيجية لسماحة الإسلام التي تجلت بأجلى معانيها أن قريشًا لم تقبل على الإسلام فحسب، بل حملت رايات الجهاد في سبيل الله، وتحولت اتجاهاتها من أشد الناس عداوة للإسلام، إلى أحرص الناس على رفع راية الجهاد في سبيله وتلك صورة رفيعة انفرد بها الإسلام.

١٨- لا شفاعة في حدود الله؟

قال عروة بن الزبير: إن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلوَّن وجه رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله خطيبًا فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها.

فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت، قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك

فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ.

وهكذا يستمر البناء التربوي للأمة، ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حد سواء، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع رباني لا يفرق بين الناس، فهم كلهم أمام رب العالمين سواء، وأصبحت معايير الشرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى، وفي هذا الموقف الذي أثار غضب رسول الله الشديد واهتمامه الكبير، عبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحاكم، من أجل تعطيل الحدود الإسلامية[1].

١٩- **الوفاء المحمدي**: المحيا محياكم والمهات مماتكم:

قال أبو هريرة: ... أتى رسول الله ﷺ الصفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه، قال: والأنصار تحته، قال: يقول بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته. قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يخف علينا فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي، قال: فلما قضى الوحي رفع رأسه ثم قال: **يا معشر الأنصار قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته؟** قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: فما اسمي إذن؟ **كلا، إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والمهات مماتكم**، قال: فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الظن بالله ورسوله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**فإن الله ورسوله ليصدقانكم ويعذرانكم**»[2].

---

(١) انظر: معين السيرة، ص٤٠٢، التاريخ الإسلامي، (٧/٢٣٣).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٢٩، ٥٣٠.

٢٠- السلام لا يعني الاسترخاء في الإعداد وبناء القوة:

كان جيش الإسلام في غزوة فتح مكة عشرة آلاف مقاتل، ولكن بعد الفتح واستسلام العدو الرئيسي للإسلام (قريش) ارتفعت قوة الجيش حتى بلغت ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك عام ٩ هـ، ومعنى ذلك أنها خلال عام واحد وصلت إلى ثلاثة أمثالها يوم الفتح.

هذه الحقيقة التاريخية تستحق أن نتدبرها ونستخلص الدرس منها، وهو درس ينطوي على المبادئ التالية:

١. إن إعداد القوة التي ترهب العدو واجب مستمر في السلم والحرب على حد سواء .

٢. إن فترات الهدنة أو السلام لا تعني الاسترخاء في الإعداد وبناء القوة .

٣. إن الإسلام دين سلام ورحمة، لكنه في الوقت نفسه – دين قوة، فهو دين عملي، يأخذ الحياة من واقعها، وينظر إلى الناس من خلال فطرتهم التي فطروا عليها، فقد راعى طبائع الخلائق، وميلها إلى المشاحنات فأمر أهله بإعداد القوة لا ليعتدوا بها على الآخرين بل ليدافعوا بها عن أنفسهم ويرغموا أعداءهم أن يلزموا حدودهم .

٤. وأخيرًا، فإن السلام الذي يدعو إليه الإسلام هو :

السلام الذي تحميه القوة؛ لأن القوة هي أكبر ضمان لتحقيق ذلك السلام والمحافظة عليه .

٢١- كشف خبر حاطب:

فإن الله أطلعه على بعض علم الغيب، والله هو الذي يطلع على علم الغيب - سُبحَانَهُ وَتَعَالَى - من يريد، ولا يطلع على علم الغيب أحداً غير الأنبياء والأولياء الصالحين.

وأما غيرهم من المشعوذين والكهنة، فقد يأتيهم من الجن، ومن خدامهم، والذين يتولونهم من الشياطين؛ فإن الكاهن يأتي إليه الشيطان، ويأتي إليه وليه، فيخبره، فيكذب معها مائة كذبة، كما قال ﷺ.

وفي حديث في (سنن أبي داوُد): قال: « ويقرها في أذنه كما تقر الدجاجة، فيأخذها فيزيد عليها مائة كذبة ».

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فيأتيه الخبر صافياً نقياً، لا شائبة فيه، من السماء.

٢٢- قبول عذر المسلم:

فقد كاد حاطب رضي الله عنه وأرضاه أن يُودي بالإسلام والمسلمين في داهية، ولكن مع ذلك قَبِل ﷺ معذرته.

ومن حُسن إسلام المرء أن يقبل اعتذار من يعتذر إليه؛ فإنه ما اعتذر إليك إلا لجلالتك في قلبه، ولمحبتك إليه، والله عز وجل سِتِّيْرٌ يحب الستر، وعذر العاذرين في الدنيا، ويسامح المسامحين، وييسر على الميسرين، والجزاء من جنس العمل.

فإذا اعتذر إليك مسلم قد أخطأ، فاقبل عذره، واحمله على أتم المحامل فإن هذا من شيم الصالحين، بل إنه من شيم العرب من قبل ذلك.

فـ النابغة الذبياني لما أساء مـع الـنعمان بـن المنـذر ، قبـل الـنعمان معذرتـه، فيقول:

لئن كنتَ قد بلغت عني وشايةً لمبلغك الواشي أغش وأكذبُ

فقَبِل النعمان عذره، فيقول:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهبُ

والرسول عليه الصلاة والسلام قبل أعذار الناس، حتى الـذين كـادوا لـه، والذين دبروا اغتياله، وأخرجوه من دياره.

وفي حديث في سنده نظر: أن كعب بن زهير قدم على الرسول عليه الصـلاة والسلام وقد أساء، وأهدر دمه، فلـما وصـل إلى المدينـة قـال للصـحابة: مـاذا أفعل؟ والرسول عليه الصلاة والسلام قد أهدر دمـي، والله مـا تهنيـتُ بطعـام ولا شراب، ولا اكتحلتُ بنوم؛ لأنه كان يمضي في الليل وينام في النهار، قالوا: أنت شاعر مجيد، اصنع لك أبياتاً وقدمها للرسول عليه الصلاة والسلام، فـأتى في صلاة الفجر، فلما صلى ﷺ ألقى عليه تلك المقطوعة الرائعة:

بانـــت ســـعاد فقلبـــي اليـــوم متبـــولُ مُتَـــيَّمٌ إِثْرَهـــا لَمْ يُفْـــدَ مكبـــولُ

إلى أن يقول:

نبئـــتُ أن رســـول الله أوعـــدني والوعـــد عنـــد رســـول الله مـــأمولُ

مهـــلاً هـــداك الـــذي أعطـــاك نافلـــة الـــ ـــقرآن فيهـــا مـــواعيظٌ وتفصـــيلُ

لا تأخـــذني بـــأقوال الوشـــاة ولم أذنـــب ولـــو كثُـــرَت فيَّ الأقاويـــلُ

فعفا عنه ﷺ وسامحه، ومع ذلك حَطَّ له جُبَّتَه من عليه، فبِيْعَت بـأربعين ألفـاً في

عهد معاوية ، وبقيت يتـداولها خلفـاء الدولـة العثمانيـة في الأتـراك، وقيـل في بعض الروايات: إنها لا تزال في المتحف في اسطنبول ، والله أعلم.

٢٣- غضب الصحابة للّه:

الغضب للنفس ردى، والغضب للناس علياء، والغضـب لله عـز وجـل علياء وأجر.

ولذلك يقول بعض أهل العلم: طابع أصحاب محمد ﷺ أنهم يغضبون لله، ويرضون لله؛ فلا يغضبون لأنفسهم.

فـ عُمَر كان يُسَب أمام الصحابة من بعض الناس، ويُسَب أمام الناس، فـما يغضب، فإذا سمع أن دين الله أو رسالة الله، أو شيئاً من مبـادئ الـدين الخالـد يناله شيء، غضب وأصبح كالأسد.

فهذا هو الغضب لله، والرضا له سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم هناك حول الغضب لله مسائل:

ورد من الغضب لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: أن عـلي بـن أبي طالـب رضي الله عنـه وأرضاه طارد مجرماً كافراً مشركاً، فلما طارده وقع المجرم على ظهره، فأتى عـلي رضي الله عنه يطعنه بالسيف، فبَصَق هذا المشرـك في وجـه أبي الحسـن ، فكَـفَّ رضي الله عنه وأرضاه عن قتل المشرك.

قال الصحابة: ما لك؟ قال: أولاً كنتُ أريـد قتلـه لوجـه الله، والآن أردت أن أقتله لنفسي، فترك ما لنفسه لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

فيا لتلك القلوب! كيف بلَغَت من التربية ومن الصدق؟!

وهم كما قال ابن مسعود ﷺ : [[أخلص الأمة إيماناً، وأعمقها علماً، وأبرها قلوباً، وأقلها تكلفاً]].

ولذلك يقول الله فيهم يوم الفتح: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح:١٨].

قال ابن القيم رحمه الله : "علم ما في قلوبهم من اليقين والإيمان، ومن التقوى والبر، فهم أتقى الناس، وأبر الناس، وأصدق الناس، وأخشى الناس".

فسبحان الذي اختارهم لصحبة رسوله ﷺ.

٢٤- الفطر في السفر وأنه أفضل لمن شق عليه الصوم:-

وذلك بدلالة هذا الحديث، الذي أفطر فيه ﷺ وهو مسافر إلى مكة لَمَّا شق على الناس، ولما خالفه بعض الناس، قال: « أولئك العصاة، أولئك العصاة ».

فمن شق عليه الصيام في السفر، فالأفضل في حقه أن يفطر؛ لهذا الحديث ولغيره.

٢٥- إرهاب العدو بالقوة:

وفيها معلم من معالم الإسلام وهو أن الواجب على المسلمين أن يظهروا التكاتف والتعاون، وأن يظهروا المراسيم الإسلامية بقوة، حتى يرهبوا أعداء الله، خاصة في الأعياد، وفي الجمع، ومناسبات الخير.

فمن إرهاب العدو:-

حمل ذلك بعض الصحابة رضوان الله عليهم على لبس الحرير في المعركة؛

ليرهبوا أعداء الله: فإذا رأى المسلم أن من اللباس ما يغيظ بـه الكـافر والمنـافق فله أن يلبسه.

وبعضهم مشى مشية الخيلاء: كـ أبي دجانة ، الفارس المشـهور؛ فإنـه أخـذ يتبختر يوم أحد ، فقال عليه الصلاة والسلام: « إن هذه مشية يبغضـها الله؛ إلا في مثل هذا الموطن » حيث أراد أن يغيظ بها الكفار.

وإذا كان من القوة والاجتماع ومن الشيء أن يغيظ به أعداء الله فإن الـدين -كما يقول ابن القيم - يكون على المراغمة: أي: أن تراغم أعداء الله، فما أحسن المراغمة! وأعظم مـا يُـراغَم الشـيطان، فإنـك كلـما عصـيتَه أرغمـت أنفـه في التراب.

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام متعمِّداً لهـذا العـدو، فإنـه دخـل بعشرـ كتائب، وزعها على أربعة جيوش، وأشعل كل جندي ناراً، حتى أخذت جبـال مكة تلتهب، فأدخل الله الرعب في قلوب الكفار.

٢٦- قراءة القرآن على الدابة:

فهذا جائز، ولا بأس به، فالرسول عليه الصلاة والسلام في قصة الفتح، قرأ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ [الفتح:١] وأخذت تُهَوْجِلُ به الدابة، فأخذ صـوتُه يتردد ﷺ ، قال أحد الصحابة: { والله لولا أن يجتمع عليَّ الناس لَرَجَّعْـتُ بكـم بصوتي كما رَجَّعَ رسول الله ﷺ بصوته } .

فإذا ركبتَ السيارة، أو الطائرة، أو أي دابة فلـك أن تقـرأ كتـاب الله عـز وجل، فإنه نعم الأنيس؛ لأن بعض الناس يتحرج؛ لأنه راكب أو ليس مسـتقراً

في مكان.

وورد عنه عليه الصلاة والسلام: « أن داوُد عليه السلام سهل الله عليه الزبور » وفي لفظ آخر: (القرآن) لكن حَمَلَه بعض المحدثين على أنه الزبور: { فكان يقرأه قبل أن تُسْرَج له الدابة }.

فهذا دليل على أنهم كانوا يقرءون في أسفارهم، فلا بأس من القراءة على الدابة، ولا بأس أن تقرأ وأنت تمشي، إذا كان هذا أصلح لقلبك وأفيد وأحفظ لوقتك.

كان بعض الصالحين إذا رأى الشباب يتوجهون إلى المساجد قال: تفرقوا من طريقكم إلى المسجد وفي رجوعكم.

قالوا: لماذا؟ قال: لأنكم إذا سرتم سوياً تحدثتم، وإذا تفرقتم قرأتم القرآن وذكرتم الله.

٢٧- طمس الصور:

فالرسول عليه الصلاة والسلام لما دخل البيت، طمس صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهذا واجب المسلم ألاَّ يبقي في بيته صورة، خاصة تلك التي تعلق، فإن الرسول ﷺ قال: « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة » وفي لفظ: (ولا جُنُب) أو كما قال ﷺ.

فعلى المسلم أن يكون بيته نظيفاً من هذه الصور، خاصة الخليعة منها، أو التي تُعَلَّق للذكرى وللتعظيم، فهذه محرمة.

أما الضرورية التي في الحفائظ والمستندات فلا بأس بها للضرورة.

٢٨- عدم موالاة المشرك ولو كان قريباً:

فإن أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان لما دخـل عليهـا أبوهـا، سَـحَبَتْ عنـه فراش رسول الهدى ﷺ.

فعلى المسلم أن ينتبه لهذه، وألاَّ يوالي مشركاً ولو كان ابنـاً أو أبـاً أو أخـاً إذا كان يحاد الله عز وجل ويعارض كتابه وسنة رسوله ﷺ بل يعاديه، فإن هذا هـو الإيمان.

٢٩- رعي النبي ﷺ للغنم:

فقد كان سيد المتواضعين، وكان يعلن حالات الفقـر والـذكريات الأولى التي مرت به في أول حياته؛ فـإن بعـض النـاس إذا رفعـه الله في الـدنيا وتـولى منصباً أو تصدر في الناس أو توجـه، لا يـذكر ذاك المـاضي، كأنـه نشـأ في هـذا النعيم منذ نعومة أظفاره، وكأنه ما عـرف البـؤس ولا الجـوع؛ لكـن الرسـول عليه الصلاة والسلام كان يقول:

« رعيت الغنم على قراريط لأهل مكة لـ ابن أبي مُعَيط ».

و عمر بن الخطاب ﷺ خطب في الناس، فلما خطب فيهم قال: [[من أنـا؟ قالوا: أنت أمير المؤمنين، قال: أنا عمر بن الخطاب ، كنـتُ أُدْعَـى في الجاهليـة عميراً ، كنتُ أرعى على قراريط لآل أبي مُعَيط الغنم، فلما انصرف قال ابنه عبد الله : ما حملك على ما فعلتَ؟ قال: لما رأيتُ الجمـوع أمـامي أعجبتنـي نفسي- فأردتُ أن أكسرها]].

وفي فتح مكة أتت بنت قيلة إلى الرسول ﷺ ، فرأت الرسول عليـه الصـلاة

والسلام فأُرْعِدت فرائصُها، وخافت من هيبته، فقال: « هَـوِّنِي عليـكِ » وعنـد أحمد : أنه رجل، قال له: « هَوِّنْ عليكَ، فإني ابن امرأة كانـت تأكـل القَدِيْـدَ بـ مكة » عليه الصلاة والسلام.

نعم، كانت تأكل القديد بـ مكـة ؛ لكـن أصلـح الله عـلى يـديك البشرـية، ورفع على يديك معالم الإنسانية، وزعزع بفضله سُبحَانَهُ وَتَعَـالَىَ ثـم بإرسـالك معالم الوثنية.

ذكروا عن الإمام أحمد : أنـه خـرج إلى السـوق، فـأراد النـاس أن يحملـوا الحطب عنـه، وكـان عـلى ظهـره، فقـال: نحـن قـوم مسـاكين، لـولا سـتر الله لافتضحنا.

٣٠- قبول الهدية ولو كانت يسيرة:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام وهـو قائـد الجـيش ومعلـم البشرـية أُرسِلت له فخذ أرنب طُبِخَت، فَقَبِلَها ﷺ ودعا لـ أبي طلحة.

فالمسلم يقبل الهدية، ويقبل ما عرض له سواء كان كثيراً أو قليلاً؛ لأنـه لا قيمة للمسلم عند نفسه؛ لأن الـذي يرفـع ويكـرم ويسـدد ويوفـق هـو الحـي القيوم، أما الناس فليس لأحد عندهم قدر إلا ما قدروه لأسباب دنيوية.

قال ابن تيمية في المجلد الأول وهـو يتحـدث عـن العقيـدة: إن النـاس إذا أكرموا الإنسان فإنما يكرمونه لأسباب أكثرها دنيوية.

حتى أنه قيل: من استغنيتَ عنه فأنـتَ نظـيره، ومـن احتجـتَ إليـه فأنـتَ أسيره، ومن احتاج إليك فأنت أميره فأنت بين أمير أو أسير أو نظير.

٣١- الأمان للمشرك:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام ما باهَتَ المشركين وما عاجَلَهُم حتى أَسْمَعَهم داعي الله وكلامه، كما فعل بـ أبي سفيان يوم أتاه في الخيمة.

٣٢- صلاة الضحى:

وهي من أعظم النوافل التي يتقرب بها المتقربون إلى الله، وهي صلاة الأوابين، صلاها ﷺ ثماني ركعات يوم الفتح، وقيل: صلاها ستاً، في بعض الأوقات، وقيل: صلاها أربعاً، وأكثر ما أوصى ﷺ أن تصلى ركعتين اثنتين، فإنه أوصى أبا هريرة كما في (الصحيح) قال: « **أوصاني خليلي ﷺ بثلاث، لا أدعهن حتى أموت: بركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام، وبصيام ثلاثة أيام من كل شهر** » وعند أحمد في (المسند) في رواية أخرى: « **وبغسل يوم الجمعة** ».

فعلى المسلم أن يفرغ من وقته دقائق في النهار، ليصلي ركعتي الضحى؛ فإنها تعادل أجر ثلاثمائة وستين صدقة، فالتسبيحة بصدقة، والتحميدة، والتكبيرة، والتهليلة، وإصلاح بين الناس، وأمر بمعروف ونهي عن منكر صدقة، على كل مفصل وكل سُلامَى، وفي الإنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً، فيغني عن ذلك كله ركعتان من الضحى.

ووقت صلاة الضحى: بعد طلوع الشمس، من ارتفاعها إلى قريب الظهر، سبحاً طويلاً، فمن أراد أن يتقرب فليتقرب.

وقل لـ بلال العزم مِن قلب صادقٍ أرِحْنا بها إن كنت حقاً مُصَليا
توضأ بماء التوبة اليوم مخلصاً به ترق أبواب الجِنان الثمانيا

٣٣- الصلاة داخل الكعبة:

وذلك خلافاً لما ذهب إليه بعض أهل العلم، حيث قالوا: لا يُصلَّى داخل الكعبة، والصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى داخل الكعبة، وأنه لا بأس به.

وأما الأمر الممنوع: فهو الصلاة على ظهر الكعبة، فوق السطح؛ لحديث الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: { سبع مواطن نهى ﷺ عن الصلاة فيها: ظهر الكعبة، ومعاطِن الإبل، والمقبرة، والمجزرة، وقارعة الطريق } إلى آخر تلك السبعة؛ لكن هذا الحديث في سنده زيد بن جبيرة الأنصاري ، وهو ضعيف عند أهل العلم.

٣٤- قبول إجارة المرأة:

فإن الرسول ﷺ قبل إجارة أم هانئ لـ ابن هبيرة لَمَّا أجارت ابن هبيرة من علي بن أبي طالب .

٣٥- الكلام في المغتسل للحاجة:

فيجوز لك للحاجة وأنت تغتسل أن تتكلم، إلاَّ إذا كان في مكان تُقضَى فيه الحاجة فكره أهل العلم ذلك، لكن المكان الذي يُغْتَسَل فيه، فلك أن تتكلم ولا بأس؛ لأنه لم يَرِدْ مانع من ذلك.

فالرسول عليه الصلاة والسلام و فاطمة تستره، قال: { من هذه؟ قالت:

أم هانئ ، قال: مرحباً بـ أم هانئ } فتكلم معها عليه الصلاة والسلام وهو في المغتسل.

٣٦- عودة حرمة مكة:

فإنه لما خطب ﷺ الجموع يوم مكة ، خاف أن يُتَوَهَّم أنه يجوز استحلال مكة دائماً، والدخول بالجيوش والمقاتلة، فقال: « يا أيها الناس! إنما أُحِلَّت لي مكة ساعة من نهار، ثم عادت حُرمتُها كما كانت يوم خلق الله السموات والأرض، لا يُعْضَدُ شوكُها، ولا يُخْتَلَى خلاها، ولا ينفر صيدُها، فمن فعل ذلك - في بعض الروايات - فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ».

ولذلك في صحيح البخاري : عن أبي شريح قال: لما حزَّب عمرو بن سعيد الأشدق -وهو أموي، وهو أول مَن رَعَفَ على منبر الرسول عليه الصلاة والسلام حيث يقول ﷺ في أثر فيه ضعف: « كأني ببني أمية يتَنازَون عن منبري كما تتَنازَى القردة، يَرْعُفُون » أي: يَرْعُفُون بالدم، فأتى عمرو بن سعيد ، وكان جباراً بائساً ظلوماً غشوماً، دخل المدينة وخطب على المنبر، ثم سَعَل، ثم رَعَفَ، نزل الدم من أنفه، فعرف الصحابة أن هذا منهم.

فأتى عمرو بن سعيد هذا فحزَّب الجيوش، يريد بها مهاجمة ابن الزبير في مكة ، فأتى أحد الصحابة وهو أبو شريح ، فقال: يا أيها الأمير! اسمع مني كلاماً، قال: ما هو؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ غداة الفتح، سمعته أذناي، ورأته عيناي، ووعاه قلبي، يقول: « إن مكة أُحِلَّت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتُها كما كانت يوم خلق الله السماوات والأرض، لا يُخْتَلَى خلاها،

ولا يُعْضَدُ شوكُها، ولا يُنَفَّر صيدُها، فَبَسَرَ الأميرُ في وجهه، وكَلَحَ، وقال: نعم أعلم بهذا منك، يا أبا شريح ! والله ليس بأعلم ولا أدرى، لكن هكذا ثم قال: الحرم لا يُعِيْذُ فارّاً بِخَرِبَة » هذه رواية، بمعنى أنه لا يعيد هذا.

فليُعْلَم هذا.

٣٧- لا يرث المسلم الكافر:

وهذا هو الصحيح؛ إلا ما خالف معاذ رضي الله عنه وأرضاه جمهور أهل العلم في المسألة، وقال: المسلم يرث من الكافر؛ لكن الكافر لا يرث من المسلم، واستدل معاذ أبو عبد الرحمن ، وهو سيد العلماء بقوله ﷺ: « الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه » فيقول: المسلم يرث من الكافر، والكافر لا يرث من المسلم.

لكن جماهير أهل العلم، وهذا هو الصحيح، يقولون: لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم.

فالرسول عليه الصلاة والسلام ترك أملاكَه وتَرِكَتَه لما دخل؛ لأن الكفار أخذوها، ولأن الذي ورث طالب بن أبي طالب ، وميراث الرسول ﷺ كان عند عمه أبي طالب ، فأخذها طالب ، فأصبحت ميراث مشرك.

٣٨- تغيير الشيب بغير السواد:

وقد مرت قصة، لكني صدفت عنها، وهي: أن أبا قحافة والد أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه أبو أبكر اسمه: عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة ، فأبو قحافة هو أبوه- كان يوم الفتح موجوداً، أتدرون أين كان؟ كان يرعى الغنم

في جبل من جبال مكة ، ولم يسلم حتى ذلك اليوم، وقيل: أسلم، فقال لابنته، أخت أبي بكر : ماذا ترين؟ قالت: يا أبتاه! إني أرى سواداً يَنْقاد، قال: المَحِي، هل هو ثابت أو لا؟ قالت: لا.

ثابتٌ بالأرض، قال: هذا الخيل.

أترين شيئاً؟ قالت: أرى رجلاً يصعد وينزل أمام الخيل، قال: هذا الخيال يَرُدُّ الخيلَ ويصُفُّها أي: خيل الرسول عليه الصلاة والسلام، فلما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام من تواضعه ﷺ ومن معرفته لمكان أبي بكر ولمقامه في الإسلام، قام ﷺ وذهب ليزور أبا قحافة هذا، فقال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه: نحن نأتي به يا رسول الله، أي: لمكانة الرسول عليه الصلاة والسلام فأتوا به وهو شيخ كبير، ولحيته كالثغامة البيضاء، أي: أنها بيضاء كلها ليست مُغَيَّرة، لا بأسود ولا بأحمر ولا أصفر، فقال ﷺ: « غيروا هذا وجنبوه السواد » وجنبوه السواد: ليست ضعيفة، بل هي صحيحة، وليست مُدْرَجة بل هي متصلة في المتن.

فالصحيح أن السواد لا يصبغ به، وأنه منهي عنه؛ ولكن يغير الشيب إما بأحمر أو بحناء، أو بكَتَم، أو بشيء من الأصفر.

وعند أبي داود في سننه حديث فيه كلام: يقول ﷺ: « ليكونن أقوام من أمتي في آخر الزمان لحاهم كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة يوم القيامة » أو كما قال ﷺ ، قيل: هؤلاء الذين يغيرون بالسواد؛ لأن فيه خديعة.

واستثنى بعضُ العلماء -كما يقول ابن حجر - استثنوا ذا السلطان؛ فإن ذا

السلطان يغير بالسواد؛ لكن هذا الاستثناء ينبغي أن يتوقف إلى الدليل، وقالوا: إن الحسن و الحسين غيرا بالسواد.

لكن الأولى للمسلم أن يجتنب هذه الأمور التي فيها مخالفة؛ لأنها ظهرت النصوص فيها.

٣٩- أداء الأمانة إلى أهلها:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ مفاتيح الكعبة، فأتى علي بن أبي طالب فقال: { سلم لنا المفاتيح يا رسول الله! فقال: لا، اليوم وفاء وبر، ثم دعا عثمان بن طلحة ، وقال: «خذها تالِدَة ووالِدَة في يديك، لا ينزعها منكم إلا ظالم » أي: مفاتيح الكعبة، فأخذها، وهي ما زالت في أيديهم إلى اليوم.

٤٠- لبس السواد للحاجة:

فإن بعض أهل العلم كره السواد؛ لكن لا بأس به، فالرسول عليه الصلاة والسلام لبس ثوباً مُرَحَّلاً من شعر أسود، ولبس عمامة يوم الفتح سوداء.

ولذلك لما أتى أبو مسلم الخراساني ، الطاغية الظالم، الذي قاد حملة دولة بني العباس ودخل إلى بغداد ، وهو الذي أسقط دولة بني أمية، وقتل مليوناً من المسلمين، أي: ألف ألف – كما يقول الذهبي – وهو مسلم في الظاهر، وأظنه مسلماً، لما أتى ووقف على المنبر يوم الجمعة وعليه عمامة سوداء، وقف أحد المسلمين وقال: ما لي أراك تلبس السواد؟ قال أبو مسلم الخراساني : حدثني فلان عن فلان عن أبي الزبير عن جابر { أن الرسول عليه الصلاة

والسلام دخل يوم الفتح وعليه عمامة سوداء } يا غلام! تناوله فاضرب عنقه، فضرب عنقه وسط الصف.

هذا أبو مسلم .

فالرسول ﷺ لبس السواد صراحةً؛ ولكن أحسن اللباس هو البياض: « البسوا البياض وكفنوا فيه موتاكم ».

٤١- لبس أدوات السلاح داخل الحرم:

فلا كراهة في ذلك، وإنما كره أهل العلم ذلك لغير الحاجة، أما للحاجة فيجوز لبس السلاح داخل الحرم؛ وهي مسألة عالجها البخاري في (صحيحه) وتطرق إليها.

تأملات في قصة حاطب بن أبي بلتعة:

ومن القصص التي ينبغي لقادة الصحوة أن يتأملوها قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه حينما بعث كتاباً لقريش يخبرهم فيه بعزم النبي -ﷺ - مع هذا الموقف والقصة موجودة في (صحيح البخاري).

٤٢- الموازنة بين المصالح والمفاسد : (لتخرجن الكتاب أو لنجردك).

هذا الموقف يدل على أنه ينبغي مراعاة الموازنة بين المصالح والمفاسد المترتبة على أمر ما ؛ فهنا نجد أن مفسدة تجريد المرأة أخف من أن ينتشر خبر عزم النبي -ﷺ - على فتح مكة .

ومثل هذا المفهوم جدير أن يربى عليه أبناء الحركة الإسلامية حتى لا يقف

الجمود حجر عثرة أمام كثير من الأعمال بحجة حرفية النص وعدم القـدرة على استيعاب مفهوم الموازنة ؛ ولا بد من إدراك أن هناك فرقاً بين الحكم وبـين إنزاله على أرض الواقع ؛ وهناك الكثير من الأحداث من سيرة الرسول -ﷺ- وسلف الأمة الدالة على مراعاة هذا المفهوم .

٤٣- عدم التسرع في إصدار الأحكام :

قال عمر رضي الله عنه للرسول ﷺ : (إن حاطباً خان الله ورسوله والمؤمنين) ؛ لكن الرسول -ﷺ- لم يسمع منه رغم مكانة عمر - رضي الله عنه- وسأل حاطباً ليتثبـت منـه ويعرف عذره .

٤٤- المصارحة والوضوح :(ما حملك على ما صنعت ؟)

أخطأ حاطب رضي الله عنه بإرساله كتاباً إلى قريش ، والرسـول -ﷺ- لـما علم بهذا صارحه وأراد أن يعرف ما هي دوافعه لـذلك . ويسـتفاد منـه أيضـاً حسن الظن بالمسـلم ، والمصـارحة بـين القائـد وأتباعـه في جـو مـن الصـدق والوضوح .

٤٥- الاستماع إلى الرأي المخالف :

لم يقتنع عمر رضي الله عنهوراجع الرسول -ﷺ- مراراً : (إنـه خـان الله ورسـوله والمؤمنين) والرسول كان يكرر : «صدق ؛ لا تقولـوا لـه إلا خـيراً» ولم يعنـف عمر ؛ لأنه خالفه مع أنه رسول مؤيد بالوحي .

ومن المؤسف أنه في بعض التجمعـات إذا أراد مصـلح أن يزيـل القـذى لتُرى الحقيقة اتهم بأنه عضو فاسد مريض يجـب اقتلاعـه ، وأصـبحنا نتـوارث

الأخطاء وننشئ أجيالاً تربت على الخنوع ، تفكر بعقل غيرها[1] .

٤٦- تحريم نكاح المتعة:

حُرّم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاث أيام[٢]. ويرى الإمام النووي[٣] أنه وقع تحريمه وإباحته مرتين؛ إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر، فحرم يومها، ثم أبيح يوم الفتح، ثم حرم للمرة الثانية إلى الأبد. ويرى ابن القيم[٤] أن المتعة لم تحرم يوم خيبر، وإنما كان تحريمها فقط يوم الفتح، وله في هذا مناقشة طويلة عند كلامه عن الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث غزوة خيبر وغزوة الفتح، والمتفق عليه أنها حرمت إلى الأبد بعد الفتح[٥].

٤٧- الولد للفراش والعاهر الحجر:

قرر الرسول ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة بن زمعة، فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زمعة، فقضى فيه رسول الله لعبد الله بن زمعة لأنه ولد على فراش أبيه[٦].

٤٨- إنزال الناس منازلهم:

وقد تجلَّى هذا في إعطاء الرسول-ﷺ- أبا سفيان كلماتٍ يقولهن، فيكون ذلك فخراً له واعتزازاً، وهي: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل

---

١) الحوار : أصوله المنهجية وآدابه السلوكية لأحمد الصويان ، ص ٢٩ ، طبعة دار الوطن

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٥.

(٣) النووي على شرح مسلم (١٨١/٩)، اعتمدت على فقه الأحكام على ما استخرجه الدكتور العمري في المجتمع المدني، والدكتور مهدي رزق الله في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.

(٤) انظر: زاد المعاد (٣٤٣/٣: ٣٤٥، ٤٥٩- ٤٦٤).

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٥.

(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٣٠٣.

المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن" ينادي بها بأعلى صوته.

٤٩- وجوب كسر الأصنام:

في هذه الغزوة نجد وجوب كسر الأصنام والصور، والتماثيل، وإبعادها من المساجد بيوت الله -تعالى-.

٥٠- جواز صلح أهل الحرب :

من دروس الفتح جواز صلح أهل الحرب على وضع القتال عشر سنين وهل يجوز فوق ذلك ؟ الصواب أنه يجوز للحاجة والمصلحة الراجحة كما إذا كان بالمسلمين ضعف وعدوهم أقوى منهم وفي العقد لما زاد عن العشر مصلحة للإسلام .

٥١- رسول الكفار لا يقتل :

وفيها أي الغزوة أن رسول الكفار لا يقتل فإن أبا سفيان كان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد ولم يقتله رسول الله ﷺ إذ كان رسول قومه إليه .

٥٢- ٥٢- جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلما :

جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلما لأن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ قتل حاطب بن أبي بلتعة لما بعث يخبر أهل مكة بالخبر ولم يقل ﷺ لا يحل قتله إنه مسلم بل قال وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فأجاب بأن فيه مانعا من قتله وهو

شهوده بدرا ، وفي الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع وهذا مذهب مالك ، وأحد الوجهين في مذهب أحمد ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يقتل وهو ظاهر مذهب أحمد والفريقان يحتجون بقصة حاطب والصحيح أن قتله راجع إلى رأي الإمام فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله وإن كان استبقاؤه أصلح استبقاه . والله أعلم .

٥٣- جواز تجريد المرأة للمصلحة العامة :

وفي الغزوة جواز تجريد المرأة كلها وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة فإن عليا والمقداد قالا للظعينة لتخرجن الكتاب أو لنكشفنك ، وإذا جاز تجريدها لحاجتها إلى ذلك حيث تدعو إليها ، فتجريدها لمصلحة الإسلام والمسلمين أولى .

٥٤- الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية :

وفي الغزوة يقول بن القيم في زاد المعاد [1] أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية كما وقع الجس من حاطب مكفرا بشهوده بدرا ، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة وتضمنته من محبة الله لها ورضاه بها ، وفرحه بها ، ومباهاته للملائكة بفاعلها ، أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجس من المفسدة وتضمنته من بغض الله لها ، فغلب الأقوى على الأضعف فأزاله وأبطل مقتضاه وهذه حكمة الله في الصحة

---

(١)انظر: زاد المعاد (٣/٣٤٣: ٣٤٥، ٤٥٩- ٤٦٤).

والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات الموجبين لصحة القلب ومرضه وهي نظير حكمته تعالى في الصحة والمرض اللاحقين للبدن فإن الأقوى منهما يقهر المغلوب ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف فهذه حكمته في خلقه وقضائه وتلك حكمته في شرعه وأمره . وهذا كما أنه ثابت في محو السيئات بالحسنات لقوله تعالى : { إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ [هود: ١٤] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء ٣١] ، وقوله ﷺ وأتبع السيئة الحسنة تمحها فهو ثابت في عكسه لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ [البقرة ٢٦٤] ، وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات ٢] . وقول عائشة ، عن زيد بن أرقم أنه لما باع بالعينة إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب وكقوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري في " صحيحه « من ترك صلاة العصر حبط عمله» إلى غير ذلك من النصوص والآثار الدالة على تدافع الحسنات والسيئات وإبطال بعضها بعضا ، وذهاب أثر القوي منها بما دونه وعلى هذا مبنى الموازنة والإحباط . وبالجملة فقوة الإحسان ومرض العصيان متصاولان ومتحاربان ولهذا المرض مع هذه القوة حالة تزايد وترام إلى الهلاك وحالة انحطاط وتناقص وهي خير حالات المريض وحالة وقوف وتقابل إلى أن يقهر أحدهما الآخر وإذا دخل وقت البحران وهو ساعة المناجزة فحظ القلب أحد الخطتين إما السلامة وإما العطب وهذا البحران يكون وقت

فعل الواجبات التي توجب رضى الرب تعالى ومغفرته أو توجب سخطه وعقوبته وفي الدعاء النبوي أسألك موجبات رحمتك وقال عن طلحة يومئذ أوجب طلحة ورفع إلى النبي ﷺ رجل وقالوا : يا رسول الله إنه قد أوجب فقال أعتقوا عنه وفي الحديث الصحيح أتدرون ما الموجبتان ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال: « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار المنجي قطعا ». وكما أن البدن قد تعرض له أسباب رديئة لازمة توهن قوته وتضعفها ، فلا ينتفع معها بالأسباب الصالحة والأغذية النافعة بل تحيلها تلك المواد الفاسدة إلى طبعها وقوتها ، فلا يزداد بها إلا مرضا ، وقد تقوم به مواد صالحة وأسباب موافقة توجب قوته وتمكنه من الصحة وأسبابها ، فلا تكاد تضره الأسباب الفاسدة بل تحيلها تلك المواد الفاضلة إلى طبعها ، فهكذا مواد صحة القلب وفساده .

٥٥- قوة إيمان حاطب في شهود بدر محت ما صنع :

فتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر ، وبذله نفسه مع رسول الله ﷺ وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته وهم بين ظهراني العدو وفي بلدهم ولم يثن ذلك عنان عزمه ولا فل من حد إيمانه ومواجهته للقتال لمن أهله وعشيرته وأقاربه عندهم فلما جاء مرض الجس برزت إليه هذه القوة وكان البحران صالحا فاندفع المرض وقام المريض كأن لم يكن به قلبة ولما رأى الطبيب قوة إيمانه قد استعلت على مرض جسه وقهرته قال لمن أراد فصده لا يحتاج هذا العارض إلى فصاد وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال

اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم وعكس هذا ذو الخويصرة التميمي وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهادهم في الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يحقر أحد الصحابة عمله معه كيف قال فيهم " لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وقال اقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم . وقال شر قتلى تحت أديم السماء فلم ينتفعوا بتلك الأعمال العظيمة مع تلك المواد الفاسدة المهلكة واستحالت فاسدة . حال إبليس لما كانت المادة المهلكة كامنة في نفسه لم ينتفع معها بما سلف من طاعاته ورجع إلى شاكلته وما هو أولى به وكذلك الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين وأضرابه وأشكاله فالمعول على السرائر والمقاصد والنيات والهمم فهي الإكسير الذي يقلب نحاس الأعمال ذهبا ، أو يردها خبثا ، وبالله التوفيق . ومن له لب وعقل يعلم قدر هذه المسألة وشدة حاجته إليها ، وانتفاعه بها ، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه وأحكام الموازنة وإيصال اللذة والألم إلى الروح والبدن في المعاش والمعاد وتفاوت المراتب في ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائم على كل نفس بما كسبت .

٥٦- دروس من خطبته العظيمة ﷺ ثاني يوم الفتح :

١ – تحريم سفك الدم في المكة:

في قوله ﷺ:« فلا يحل لأحد أن يسفك بها دما »هذا التحريم لسفك الدم المختص بها ، وهو الذي يباح في غيرها ، ويحرم فيها لكونها حرما ، كما أن تحريم عضد الشجر بها ، واختلاء خلائها ، والتقاط لقطتها ، هو أمر مختص بها

، وهو مباح في غيرها ، إذ الجميع في كلام واحد ونظام واحد وإلا بطلت فائدة التخصيص وهذا أنواع.

٢- لا يقلع حشيش مكة ما دام رطبا:

وقوله ﷺ :«**ولا يختلى خلاها**» لا خلاف أن المراد من ذلك ما ينبت بنفسه دون ما أنبته الآدميون ولا يدخل اليابس في الحديث بل هو للرطب خاصة فإن الخلا بالقصر الحشيش الرطب ما دام رطبا ، فإذا يبس فهو حشيش وأخلت الأرض كثر خلاها ، واختلاء الخلى : قطعه ومنه الحديث كان ابن عمر يختلي لفرسه أي يقطع لها الخلى ، ومنه سميت المخلاة وهي وعاء الخلى ، والإذخر مستثنى بالنص وفي تخصيصه بالاستثناء دليل على إرادة .

٣- لا ينفر صيدها :

وقوله ﷺ : «**ولا ينفر صيدها**» صريح في تحريم التسبب إلى قتل الصيد واصطياده بكل سبب حتى إنه لا ينفره عن مكانه لأنه حيوان محترم في هذا المكان قد سبق إلى مكان فهو أحق به ففي هذا أن الحيوان المحترم إذا سبق إلى مكان لم يزعج عنه .

٤- لا تملك لقطة الحرم :

وقوله ﷺ ولا يلتقط ساقطتها إلا من عرفها وفي لفظ ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد فيه دليل على أن لقطة الحرم لا تملك بحال وأنها لا تلتقط إلا للتعريف لا للتمليك وإلا لم يكن لتخصيص مكة بذلك فائدة أصلا ، وهذا من خصائص مكة ، والفرق بينها وبين سائر الآفاق في ذلك أن الناس يتفرقون

عنها إلى الأقطار المختلفة فلا يتمكن صاحب الضالة من طلبها والسؤال عنها ، بخلاف غيرها من البلاد .

٥ - لا يتعين في قتل العمد القصاص:

قال ﷺ في الخطبة ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، إما أن يقتل وإما أن يأخذ الدية فيه دليل على أن الواجب بقتل العمد لا يتعين في القصاص بل هو أحد شيئين إما القصاص وإما الدية .

٥٧- جواز إجارة المرأة وأمانها للرجلين:

وفي قصة الفتح من الفقه جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين كما أجاز النبي ﷺ أمان أم هانئ لحمويها .

٥٨- جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته من غير استتابة :

وفي هذه الغزوة من الفقه جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته من غير استتابة فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهاجر ، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد ولحق بمكة ، فلما كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله ﷺ ليبايعه فأمسك عنه طويلا ، ثم بايعه وقال إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم ، فيضرب عنقه فقال له رجل هلا أومأت إلي يا رسول الله ؟ فقال ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين فهذا كان قد تغلظ كفره بردته بعد إيمانه وهجرته وكتابة الوحي ثم ارتد ولحق بالمشركين يطعن على الإسلام ويعيبه وكان رسول الله ﷺ يريد قتله فلما جاء به عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة لم يأمر النبي ﷺ بقتله حياء من عثمان ولم يبايعه ليقوم إليه

بعض أصحابه فيقتله فهابوا رسول الله ﷺ أن يقدموا على قتله بغير إذنه واستحى رسول الله ﷺ من عثمان وساعد القدر السابق لما يريد الله سبحانه بعبد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح فبايعه وكان ممن استثنى الله بقوله ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران ٨٦-٨٩]، وقوله ﷺ «ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين» أي أن النبي ﷺ لا يخالف ظاهره باطنه ولا سره علانيته وإذا نفذ حكم الله وأمره لم يومر به بل صرح به وأعلنه وأظهره .

٥٩- مثل لعزة الإسلام والمسلمين(أذان بلال في الكعبة) :

قال ابن هشام وحدثني [١] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه . فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه لحق لاتبعته ، فقال أبو سفيان لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال قد علمت الذي قلتم ، ثم ذكر ذلك لهم ؟ فقال الحارث وعتاب نشهد أنك رسول الله والله ما اطلع

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٤٣).

على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك .

في هذا الخبر دليل على اهتمام النبي بإظهار عزة الإسلام وإغاظة المشركين وإكرام المسلمين ،وهي أيضاً رسالة إلى ساداتت القريش الذين لا زالوا يعتزون بسيادتهم وعصبيتهم الجاهلية .

وفي الأخير أسال الله جل وعلا بمنه وكرمه أن ينفع بهذا العمل و يجعله لوجهه خالصاً .

اللهم إنا نسألك الشهادة في سبيلك بعد طول عمرٍ وحُسن عمل يا أرحم الراحمين .

غزوة حنين دروس وعبر

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله مِن شرور أنفسنا، ومِن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألاّ إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، وجاهد في سبيل ربه حقّ الجهاد، ولم يترك شيئاً مما أُمر به إلاّ بلّغه، فتح الله به أعيناً عُمياً، وآذانا صُماً، وقلوباً غُلفاً، وهدى الناس مِن الضلالة، ونجّاهم مِن الجهالة، وبصّرهم مِن العمى، وأخرجهم مِن الظلمات إلى النور، وهداهم بإذن ربه إلى صراط مستقيم. اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ونبيّك محمد، وعلى آله وصحبه، ومَن اقتفى أثره واهتدى بهداه.

وبعد.

ما أجمل أن نداوي الجراح المكلومة الغائرة بالسيرة العطرة المعطرة لرسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، فسيرته بلسم للجراح وملاذ للخائف وحصْن للراجي ، والعوذ عندما تدلهم المصائب والأزمات.

و هذه الأمة أمة منصورة من ربها، موعودة بالتمكين والاستخلاف في الأرض بوعد الحق الذي لا يخلف، في آيات كثيرة من القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الروم:٤٧]. وقال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ

﴾[الصافات: ١٧١ – ١٧٣]. وقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[غافر:٥١]. وقال: ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾[النور:٥٥] .

ومهما تكالب أعداؤها، وأحكموا كيدهم، وأجمعوا أمرهم؛ لإطفاء نور الحق والهدى فلن يحظوا بذلك، وهيهات وقد قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢ – ٣٣] .

وقد بشّرنا نبينا –ﷺ– أن هذا الدين سينتشر في أنحاء الأرض قاطبة حتى يدخل كل بيت في المعمورة كما في حديث تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله –ﷺ– يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيزا أو بذل ذليلا، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر» .

إن هذه النصوص المبشرة جزء من عقيدتنا التي يجب أن نؤمن بها إيمانا تاما لا تخالطه الشكوك ولا تساوره الظنون مهما طال ليل المحنة؛ فإن وعد الله آت عما قريب ﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[البقرة:٢١٤] .

بل إن هذا اليقين الكامل بنصر الله هو أحد عوامل النصر المهمة، ولذا

ترى النبي -ﷺ- حينما تشتد الكروب وتلم الخطوب يُذكّر بهذه الحقيقة؛ فذلك يبعث الأمل ويحيى الهمم، ويجدد العزم على العمل، كما فعل في غزوة الأحزاب وقد رمتهم العرب عن قوس واحدة؛ فقد بشر أصحابه بفتح بلاد فارس والروم، كما بشر في حادثة الهجرة وهو مطارد خائف بفتح بلاد فارس، وكما طمأن صاحبه الصديق ـ رضي الله عنه ـ وهما في الغار بقوله: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة:٤٠].

إن المؤمنين حينما تحيط بهم الملمات لا تزيدهم إلا ثباتا ويقينا وتسليما: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فما أسرع ما يتزلزلون ويشكون بصدق وعد الله عند أدنى محنة أو نازلة: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾[الأحزاب:١٢].

غير أن النصر الذي وعِدت به هذه الأمة لا يناله إلا من أدّى ثمنه وقام بأعبائه؛ فإذا وجدت أسبابه وانتفت موانعه تحقق النصر بإذن الله، وإن تخلف منها شيء فربما تخلف النصر، ولله عاقبة الأمور.

فالمتأمل في غزواته ﷺ يجد أنها مصباحاً يضيء للأمة لتعرف عوامل النصر ـ وعوامل الهزيمة ،وتتعلم الدروس والعبر التي تملأ أفراد الأمة ثقة بنصر ـ الله وحبا لنبيها ﷺ.

وها نحن ضمن الموسوعة المباركة:**(غزوات النبي المصطفى دروس وعبر)**

(نستشف هـذه الـدروس والعـبر ونتأمـل مواقفـه ﷺ ومواقـف صـحابته الكرام، نقف مع **((غزوة حنين))**

أسأل الله أن ينفع بها كل موحد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

غزوة حنين :

هي الغزوة التي تبين فيها أن القوة من عند الله تبارك وتعالى، وأنه هو الذي يهدي وينصر، ويسدد فلا قوة تأتي من غيره جل جلاله .

غزوة حنين :

فيها الدرس العظيم، في الرضا عن الله، والاستبشار بنصر الله، وإعلاء جنده وحزبه، فيها الفأل الحسن مقرونًا بفعل السبب وبذل الوسع.

غزوة حنين :

فيها الدرس العظيم في صدق التوكل على الله، والإيمان بموعوده وفتحه.

غزوة حنين :

إذا كانت غزوة بدر الكبرى هي أولى معارك الإسلام مع مشركي العرب، وبها كُسِرَت حدتهم وقلت هيبتهم، فقد كانت غزوة حنين وما تلاها من غزو أهل الطائف هي آخر تلك المعارك، وبها استُفرِغت قوى أولئك المشركين، واستُنفِدت سهامهم، وأُذل جمعهم حتى لم يجدوا بداً من الدخول في دين الله، كما يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله[1].

غزوة حنين :

كانت غزوة حنين في العاشر من شوال من العام الثامن للهجرة منصرفَ النبي - ﷺ - من مكة بعد أن منَّ الله عليه بفتحها، وقد انصرف

---

(١)زاد المعاد: (٣/٤٧٩)

رسول الله من مكة لست خلت من شوال، وكان وصوله إلى حنين في العاشر منه.[١]

غزوة حنين:

دارت هذه الغزوة في موضع يقال له حنين، وهو واد إلى جنب ذي المجاز بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات[٢].

غزوة حنين:

كان سبب هذه الغزوة أن مالكاً بن عوف النضري جمع القبائل من هوازن ووافقه على ذلك الثقفيون، واجتمعت إليه مضر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال، وقصدوا محاربة المسلمين، فبلغ ذلك النبي - ﷺ - فخرج إليهم[٣].

غزوة حنين:

إذا كانت وقعة بدر قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئاً في جنب كثرة أعدائهم إذا كانوا صابرين متقين، فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضاً لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين[٤].

---

١) فتح الباري: (٢٧/٨)

٢) المصدر السابق: (٢٧/٨)

٣) فتح الباري (٢٧/٨)، وزاد المعاد (٤٦٥/٣).

٤) فقه السيرة للبوطي (ص: ٤٢٤)

١- القوة لله جميعا:

لا عبرة بالكثرة فالنصر من عند الله عز وجل، أكبر جيش جمعه الرسول ﷺ جيش حنين كانوا اثني عشر ألفا، فلما رآهم أبو بكر الكتيبة تتدفق بعد الكتيبة، قال: " لا نهزم اليوم من قلة " والمسلمون بشر أتاهم ضعف واتكلوا على قوتهم المادية، فأراد الله أن يلقنهم درس عقيدة لا ينسونه، وهو أن القوة من عند الله، وأن النصر من عند الواحد الأحد، فيقول الله عز وجل:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾[التوبة:٢٥] يقول: اذكروا كم نصركم الله في مواطن كثيرة.

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في الموطن الخشن

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾[التوبة:٢٥] فهنا درس لكل إنسان ألا يغتر بقوته وألا يعتمد على حوله وذكائه وفطنته.

قال ابن القيم في كلام معناه: فوض الأمر إلى الله عز وجل، وأعلن عجزك، فإن أقرب العباد من الله الذين يعلنون الانكسار بين يديه.

فأقرب العباد إلى الله أشدهم انكساراً إليه، وأقربهم إلى النصر أشدهم تواضعاً لله، وكلما ذل العبد وتواضع لله رفعه الله، وكلما تكبر، قال الله:(**اخسأ فلن تعدو قدرك، وعزتي وجلالي لا أرفعك أبدا**).

فكان هذا الدرس في العقيدة: أن القوة من عنده تبارك وتعالى، وأنه هو الذي يهدي وينصر، ويسدد فلا قوة تأتي من غيره مهما أجلبوا بخيل ورجل وقوى واتصلوا بأمور فإنها كبيت العنكبوت: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت:٤١].

٢- إرسال العيون لطلب أخبار العدو:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أرسل ابن أبي حدرد وقال:« اجلس بينهم وخذ أخبارهم وائتني بأعلامهم» -هذا قبل المعركة- فجلس بينهم في الليل، فسمع مالك بن عوف النصري يقول: إذا أتينا غداً فصبحوهم واضربوهم ضربة رجل واحد، فأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك ، فإرسال العين لصالح المسلمين لا بالإضرار بالمسلمين، لكن لتقصي الحقائق ولنصرة الإسلام، ولتأييد كتاب الله ولرفعة لا إله إلا الله لا بأس به.

أخذ السلاح من المشرك :

فالرسول عليه الصلاة السلام لما أراد حنيناً قال لـ صفوان بن أمية وقد كان طلب مهلة أربعة أشهر حتى يفكر في دخول الإسلام- قال: « يا أبا وهب : أتعيرنا مائة درع وسلاحها؟ قال: غصباً يا محمد، قال: بل عارية مضمونة » فأخذها ﷺ عارية مضمونة، فلا بأس باستعارة السلاح من المشرك، فلو قاتل المسلمين كافر فلا بأس أن يأخذوا من كافر آخر سلاحاً آخر يقاتلون به هذا الكافر، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام فعله سواءً بشراء، أو عارية، أو على مصالح مشتركة يتبادلها الفريقان فلا بأس بذلك.

هذا وقد وجدت للشيخ ناصر الدين الألباني - رحمه الله - كلاماً يفيد أنه لا يرى شراء السلاح من دول الكفر الآن؛ فإنه يقول في معرض دعوته للاهتمام بالتصفية والتربية وإنكاره على دعاة الجهاد في هذه الأيام: "لو أن هناك جهاداً قام بين المسلمين وبين الكفار، فهؤلاء المسلمون سوف لا يستطيعون أن يتابعوا إمداد جيوشهم بالأسلحة اللازمة لهم إلا بالشراء من أعدائهم، وهل يكون نصر وجهاد بشراء الأسلحة من أعداء المسلمين؟"[1].

، وكأنه - رحمه الله - يقول بأنه لا يجوز شراء السلاح من الكفار إلا بشروط لا تتوافر في عصرنا فقد سئل بعد ذلك عن الفرق بين شراء السلاح من الكفار الآن وبين استعارة النبي - ﷺ- السلاح من صفوان فقال: "الفرق كبير.. أولاً هو فرد، وثانياً هو مطمئن إليه، ثم رسول الله - ﷺ - حينما طلب كان هو أقوى منه، اليوم الأمر معكوس تماماً؛ فالمسلمون حكاماً، فضلاً عمن هم دونهم هم أضعف من أعدائهم الذين يستوردون الأسلحة منهم، فشتان ما بين هذا وذاك"[2].

غير أن من الشروط المهمة في هذا المجال أن لا يؤدي شراء السلاح من الكفار إلى تنازل المسلمين عن شيء من عقيدتهم ودينهم، فأمر العقيدة أعلى من كل اعتبار، وبكل حال فهذا الأمر هو من أمور السياسة الشرعية التي تخضع لقياس المصالح والمفاسد، ومعرفة الأنسب في كل حين، ونحن اليوم

---

١) "(٢٣ - 23 فتاوى الشيخ الألباني ومقارنتها بفتاوى العلماء لعكاشة عبد المنان (ص: ٣٠٠) .

٢) المصدر السابق

نرى أن أمم الكفر ليست بدرجة واحدة في عدائها للمسلمين فمنـهم من يعلن الحرب على المسلمين ومنهم مـن لـيس كـذلك، فـلا بـأس بالشرـاء مـن غـير المحاربين لقتال المحاربين، ويمكن للمسلمين أن يسـتغلوا بعـض التناقضـات بين دول الكفر في شراء السلاح من بعضها لمحاربـة الـبعض الآخـر، بـل عـلى المسلمين أن يستغلوا ما قد يحدث في بعـض بـلاد الكفـر مـن الأزمـات الماليـة لمحاولة شراء السلاح بل وتقنيات تصنيعه مـنهم، كـما هـو حـادث في روسـيا الآن، وقد كان المجاهدون في الشيشان - وربما لا يزالـون -يشـترون السـلاح من الجنود الروس بأسعار زهيدة ثم يقاتلونـهم به .

وهذا كله لا يعني رضانا بحال المسـلمين وتخلفهـم وعـدم قدرتـهم عـلى صنع ما يحتاجونه من السلاح، بل الواجب عليهم السـعي الحثيـث في امـتلاك أدوات التصنيع والعمل على الاكتفاء الذاتي، وإلى أن يتحقق ذلك فليس هنـاك مانع من شرائهم السلاح من الكافرين والله - تعالى - أعلم .

٣- ضمان العارية إذا تلفت:

فإن صفوان عندما طلب منه النبي ﷺ سلاحاً قال : غصباً يا محمد؟ قـال: « بل عارية مضمونة » أي إذا تلفت هذه الدروع والسلاح نضمنها لـك، فلـما تلفت بعض السيوف وتكسرت في أيدي الأنصار ،فالصحابة تثلمت سـيوفهم وثلموا سيوف صفوان بن أمية ، فـأتى يقلـب السـيوف وهـي مثلمـة فيقـول: للرسول ﷺ: أهذا سلاحي؟ فيقول ﷺ: نضـمنها لـك، قـال: لا لقـد أسـلمت والإسلام خير لي لا آخذ منها شيئا، فرزقه الله الإسلام، وهو خير مـن الـدروع

والسيوف، وقبل المعركة كان صفوان وراء الزبير بن العوام .

٤- مشابهة هذه الأمة الأمم السابقة:

هذا الحديث علّق عليه ابن تيمية في الرسائل والمسائل يقول: لما نزل رسول الله ﷺ في حنين نزل الناس في الظهيرة ومعهم سيوفهم وسلاحهم - وهذا الحديث عند أبي داود من حديث أبي واقد الليثي - قالوا: يا رسول الله! إن للمشركين ذات أنواط -أي: ذات معاليق يعلقون فيها سلاحهم- فاجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؛ فقال عليه الصلاة والسلام: « الله أكبر! إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ».

فيقول ابن تيمية : "سوف يقع في هذه الأمة ما وقع في اليهود والنصارى؛ فإن علماءنا إذا فسدوا كان فيهم شبه من اليهود -نعوذ بالله من ذلك- فإن اليهود تعلموا العلم ولم يعملوا به؛ فختم الله على قلوبهم ولعنهم وغضب عليهم، قال جل ذكره: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾[المائدة:١٣]، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى؛ فإنهم يعبدون الله بلا علم، لا يتفقهون في الدين؛ فلهم صلاة وصيام وذكر لكن على ضلالة: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾[الحديد:٢٧] .

يقول ابن تيمية : وسوف يقع في هذه الأمة ما وقع بين اليهود والنصارى لهذا الحديث؛ ولقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ

النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾[البقرة:١١٣] قال ابن تيمية : "سوف تأتي طوائف وأحزاب في هذه الأمة تقول: ليست الطائفة الأخرى على شيء ونحن على الحق، وتقول الأخرى: لستم على شيء ونحن على الحق فهي السنن".

٥- التكبير عند التعجب والاستغراب:

فالرسول ﷺ لما قالوا: اجعل لنا ذات أنواط قال: الله أكبر! وهذه من أحسن الكلمات التي تقال في النوادي والمحافل، فنحن لا نعرف التصفيق وليس في ديننا تصفيق، ولا يصفق إلا اللاهون اللاغون إذا أعجبوا بمقولة أو كلمة.

فعلى المسلمين أن يكبروا، فإن التصفيق والمكاء والتصدية من علامات الجاهلية ومن شعائر الوثنية ، والله ذكر المشركين وطوافهم بالبيت فقال: ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾[الأنفال:٣٥]، أي: صفيرا وتصفيقا، فذم التصفيق سبحانه وتعالى، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: " كان أصحاب الرسول ﷺ إذا أعجبهم شيء كبروا " وربما كبر عليه الصلاة والسلام فكبروا خلفه، ولذلك يقول ﷺ: « أترضون أن تكونوا ثلث الجنة؟ قالوا: بلى، قال: ألا ترضون أن تكونوا نصف الجنة؟ قالوا: بلى، قال: فإنكم ثلثا أهل الجنة، فكبروا جميعا ».

فالتكبير مطلوب عند التعجب والاستغراب، أو من حدث أو كلمة حماسية، أو من بيت أو قصة، فسنتنا أن نكبر وألا نتشبه بأهل الكتاب الذين

أضلهم الله على علم وطبع على قلوبهم.

٦- لا رجعة للوثنية:

خرج مع رسول الله ﷺ إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهلية، وكانت لبعض القبائل شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوما، وبينما هم يسيرون مع رسول الله ﷺ إذ وقع بصرهم على الشجرة، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها، ومشاهدها التي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا (ذات أنواط) كما لهم (ذات أنواط)، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! قلتم -والذي نفس محمد بيده- كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قال إنكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم»[١].

وهذا يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم إسلامهم، ولكن النبي ﷺ أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشرك، وحذرهم من ذلك، ولم يعاقبهم أو يعنفهم؛ لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام[٢]، وقد سمح لهم الرسول ﷺ بالمشاركة في الجهاد؛ لأنه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تماما من غبش الجاهلية، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٣٤٩، سنن الترمذي، الفتن (٤/٤٧٥) رقم ٢١٨٠.

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٩٧).

فاعله، وإن قصر في بعض أمور الـدين الأخـرى، بـل الجهـاد مدرسـة تربويـة تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيرًا من العقائد والأحكام والأخلاق؛ وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث وتلاقـح الأفكار[١].

٧- الحراسة في الغزو:

إن الرسول عليه الصلاة والسلام إذا كـان في الأسـفار أو الغـزو جعـل حارساً يحرس الناس، وما كان يعطيه راتبـاً عليـه الصـلاة والسـلام، بـل كـان يعدهم بالجنة، جنة عرضها السماوات والأرض، فكـانوا يتسـارعون إلى هـذا، كما فعل حذيفة في الليلة الظلماء عند أهل الأحزاب، وضمن له ﷺ الجنة.

وكما حرس بلال بن رباح المسلمين في غزوة من الغزوات فقال له ﷺ: «**يـا بلال ! ارمق لنا فجر هذه الليلة**»، فقام بلال فرمق مـن أول الليـل، فلـما قـرب الفجر صلى الليل ما شاء الله، ثم جلس برمحه عند الناقة، فاعتمـد عليهـا فنـام، فلما نام جاء الفجر، ثم طلعت الشـمس حتـى أصـاب النـاس حـر الشـمس، فاسـتيقظ عمـر رضي الله عنه أول النـاس، فاسـتحيا عمـر أن يـذهب إلى رسـول الله ﷺ ويقول: قم صل، ومن عمر حتى يوقظ رسـول الله ﷺ؟! ولـه ذلـك فإنهـا مـن المصالح والفوائد لكنه استحيا.

فأتى بجانب أذن الرسول عليه الصلاة والسلام، وقال: الله أكبر، الله أكـبر، فاستيقظ عليه الصلاة والسلام وقد استيقظ أكثر الناس وأصابهم مـن الخـوف

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/٦٢).

ما الله به عليم، تذكروا أنهم ما صلوا، وأن الشمس قد طلعت وارتفعت، فقال ﷺ: **لا عليكم**، ثم أمرهم أن يقوموا، وقال يا بلال : أين رمقك الفجر هذه الليلة، فقال بلال : أخذ بنفسي يا رسول الله ما أخذ بأنفسكم، فتبسم عليه الصلاة والسلام.

يقول: أنتم وقعتم فيها وقعت أنا فيه، فلماذا تعاتبونني على هذا؟ فصلى عليه الصلاة والسلام فصلوا، والشاهد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يجعل حارساً من الصحابة في الغزو وفي الأسفار لفوائد:

١ - أن يوقظ المصلي والموتر في الليل.

٢ - أن يخبر الناس بهجوم طارئ على جيشهم وعلى متاعهم وعلى أهلهم.

٣- تدريب الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه على هذا العمل الجهادي الشاق.

٤ - أن يجعل أجورا لأهل هذه الأعمال ليتباروا في عمل الآخرة وليتقدموا عند الله.

قال عمار بن ياسر رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ، قال: فلما أمسينا ذات ليلة، قال: من يحرسنا هذه الليلة؟ فسكتنا، فقال: ليقم رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، قال: فقمت، وقام عباد بن بشر رضي الله عنه وعن عمار ، الشاب الصادق الذي قتل يوم صفين ضرب على وجهه حتى سقط لحم وجهه من كثرة السيوف، ولما رآه الصحابة قالوا: نشهد أنك عند الله من الشهداء.

فبدأ عباد بالحراسة ثم قام يصلي، فبدأ يقرأ في سورة الكهف، فأخذ الأعداء

ينظرون إليه وهو حارس يقرأ في الليل، وهم لا يعرفون الصلاة ولا القراءة فأخذوا يرمونه بالسهام، وما أراد أن يقطع القراءة، فأخذ كلما انغمس السهم في جسمه يخرجه وينزله في الأرض، ويستمر في القراءة، وكلما أتى السهم الآخر أخرجه ودماؤه تنصب من جسمه، وأتى السهم الآخر ويخرجه، فلما غلبته الدماء خفف في الصلاة، وقام وزحف إلى عمار ، وقال: والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أقتل فتفتح ثغرة على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين ما ختمت هذه الصلاة حتى أتم سورة الكهف، فقال عمار : رحمك الله، ألا كنت أيقظتني؟! فأخبره، فقام عمار رضي الله عنه وأدركوا هذا، فأيقظوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا يوضح لنا كيفية حراسة الصحابة للرسول عليه الصلاة والسلام وللمسلمين.

وكان حارسه عليه الصلاة والسلام ربما حرسه عند باب بيته قبل أن ينزل الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[المائدة:٦٧] يقول أنس رضي الله عنه: رجعنا مع رسول الله ﷺ من خيبر فلما اقتربنا من المدينة دخل ﷺ بيتاً له -أي خيمة- قال: فسمعته بالليل يقول: « ليت رجلا صالحا يحرسنا هذه الليلة » قال: فأتى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فسمع من بعض الناس أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: « ليت رجلا صالحا يحرسنا هذه الليلة » فتوضأ سعد بن أبي وقاص ولبس سلاحه وأخذ سيفه ووقف عند باب الخيمة من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر، فلما علم ﷺ بـ سعد قال: « اللهم اغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » فكان من الحراس الصادقين.

٨- التوكل لا ينافي العمل بالأسباب:

من دروس هذه الغزوة المباركة أن التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب؛ فقد كان رسول الله - ﷺ - أعظم الخلق توكلاً على الله - تعالى -، ومع ذلك لم يكن يلقى عدوه إلا وقد جهز جيشه بكل ما يستطيع من آلة الحرب وعدة السلاح، حتى إنه استعار أدراعاً من صفوان بن أمية كما ذكرنا آنفا ، وكان يومئذ كافراً، وقد كان السلف رضوان الله عليهم يعون تلك الحقيقة جيداً، فكانوا لا يألون جهداً في الأخذ بالأسباب ثم يتوكلون بعد ذلك على مسبب الأسباب، ولكن تطاول الإعصار، وغلبة الجهل بحقيقة الدين قد أدخل في أذهان كثير من مدعي التدين أن أخذهم بالأسباب ينافي حقيقة التوحيد لأنه يقدح في تمام توكلهم على الله، ولذا ذكر القرطبي رحمه عند حديثه عن قصة موسى مع الخضر أن من فوائدها اتخاذ الزاد في الأسفار، قال: "وهو رد على الصوفية الجهلة الأغمار، الذين يقتحمون المهامه والقفار، زعماً منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار، هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه وتوكله على رب العباد، وفي صحيح البخاري: أن ناسا من أهل اليمن كانوا، يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾[البقرة:١٩٧]

ومما يروي في سيرة الشيخ محمد مصطفى المراغي - شيخ الأزهر السابق- أنه رأى حين كان في السودان رجلاً يهم بدخول غابة مليئة بالوحوش المفترسة

لقطع شجر أو نحوه، فلما سأله عن ما أعده من سلاح يواجه به وحوش الغاب، قال له: إن معي حرزاً فيه سورة ياسين، وهنا ضربه الشيخ بعصا كانت معه وقال له: إن الذي أنزلت عليه سورة ياسين لم يكن يدخل حرباً إلا وقد جهز نفسه بما يستطيع من أنواع السلاح، وأنت تريد أن تدخل على الوحوش بحرز فيه سورة ياسين؟ .!

٩- الالتفات في الصلاة للحاجة:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما أرسل ابن أبي حدرد وقيل أنيس بن أبي مرثد أخذ ﷺ يصلي الفجر وهو يلتفت هكذا في الشعب لينظر هل يأتيه الخبر أو لا ويخفف الصلاة.

قال أهل العلم: للمسلم إذا كانت حاجة أن يلتفت ولكن لا يجعلها عادة، فالرسول عليه الصلاة والسلام فتح الباب وهو في الصلاة، وحمل أُمامة بنت زينب في الصلاة، وتناول بعض الأمور وهو في الصلاة، والتفت هنا إلى طليعة القوم للحاجة، وهذا الحديث في سنن أبي داود بسندٍ حسن عن سهل بن الحنظلية ، قال: أرسل ﷺ يوم حنين طليعة القوم، فأخذ يلتفت إليه في الصلاة وينظر إليه بين شقق الشعب.

١٠- الإعجاب بالكثرة يحجب نصر الله:

الإعجاب بالكثرة حجب عن المسلمين النصر في بداية المعركة، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ

ﱹثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَﱸ [التوبة: ٢٥].

وقد نبه إلى هذا رسول الله ﷺ حينما أوضح أنه لا حول ولا قوة إلا بالله فيقول: «اللهم بك أحول وبك أصول، وبك أقاتل»(١).

وهكذا أخذ الرسول ﷺ يراقب المسلمين ويقوِّم ما يظهر من انحرافات في التصور والسلوك، حتى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة(٢).

وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في بداية غزوة حنين وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة؛ لأنهم فوجئوا بها لم يتوقعوه، فإن رسول الله ﷺ لم يعنف أحدا ممن فرَّ عنه، حتى حينما طالبه بعض المسلمين بأن يقتل الطلقاء لأنهم فروا، لم يوافق على هذا(٣).

١١- الغنائم وسيلة لتأليف القلوب:

رأى ﷺ أن يتألف الطلقاء والأعراب بالغنائم تأليفًا لقلوبهم لحداثة عهدهم بالإسلام، فأعطى لزعماء قريش وغطفان وتميم عطاء عظيمًا، إذ كانت عطية الواحد منهم مائة من الإبل، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان، وقيس ابن عدي(٤). وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدنيا إلى حب

---

(١) سنن الدارمي (٢/١٣٥)، المسند للإمام أحمد (٤/٣٣٣).

(٢) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري، ص١٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٤)انظر: معين السيرة، ص٤٢١.

الإسلام، أو كما قال أنس بن مالك: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها(١). وعبر عن هذا صفوان بن أمية بقوله: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليَّ فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ(٢).

وقد تأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية، وترددت بينهم مقالة، فراعى ﷺ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر، وبين لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطابًا إيمانيًّا عقليًّا عاطفيًّا وجدانيًّا، ما يملك القارئ المسلم على مر الدهور وكر العصور وتوالي الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم، فعندما دخل سعد على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة؟**» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم**

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئًا قط (٤/١٨٠٦) رقم ٢٣١٢.

(٢) المصدر نفسه (٤/١٨٠٦) رقم ٢٣١٣.

آتكم ضُلاَّلا فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمنُّ وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقْتم ولصُدِّقتُم: أتيتنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك. أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء(١) والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة، لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وواديًا، وسلكتْ الأنصار شعبًا وواديًا لسلكتُ شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار والناس دثار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا(٢)، وفي رواية: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلهم، وإنما قالها حديثو السن منهم؛ بدليل ما ورد في الصحيحين، عن أنس

---

(١) بالشاء: أي الشياه وهي الأغنام. (٢) دثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشعار.

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/٤٧٤).

(٣) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/٧٣٨) رقم ١٠٦١.

بن مالك ﷺ أن ناسًا من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله ﷺ من قولهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «فإني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم»[1].

ويرى الإمام ابن القيم -استدلالاً بهذه الحادثة-: أنه قد يتعين على الإمام أن يتألف أعداءه لاستجلابهم إليه، ودفع شرهم عن المسلمين فيقول: الإمام نائب عن المسلمين يتصرف لمصالحهم وقيام الدين، فإن تعين ذلك -أي التأليف- للدفع عن الإسلام والذب عن حوزته واستجلاب رءوس أعدائه إليه ليأمن المسلمون شرهم، ساغ له ذلك، بل تعين عليه، فإنه وإن كان في الحرمان مفسدة، فالمفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين[2].

---

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/٧٣٤) رقم ١٥٠٩.

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/٤٨٦).

والتأليف لهذه الطائفة إنما هو من قبيل الإغراء والتشجيع في أول الأمر حتى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمد الغزالي حقيقة هذا الأمر في مثال محسوس فيقول:... إن في الدنيا أقوامًا كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليه فمها، حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له[1].

إن النبي ﷺ ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشرون بالجِمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور، وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع، وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي ﷺ الحكيمة في مخاطبة الأنصار[2].

١٢- الصبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله ﷺ الكثير من الصبر على جفاء الأعراب، وطمعهم في الأموال، وحرصهم على المكاسب، فكان مثالا للمربي الذي يدرك أحوالهم، وما جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من القساوة والفظاظة

---

(١) انظر: فقه السيرة، ص٤٢٧.

(٢) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة، ص٢١٩.

والروح الفردية، فكان يبين لهم ويطمئنهم على مصالحهم ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيمًا ولهم مربيًا ومصلحًا، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم الذين كانوا ينحنون أمامهم أو يسجدون، وكانوا دونهم محجوبين، وإذا خاطبوهم التزموا بعبارات التعظيم والإجلال، كما يفعل العبد مع ربه، أما الرسول عليه الصلاة والسلام فكان كأحدهم؛ يخاطبونه ويعاتبونه، ولا يحتجب عنهم قط، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدب بحضرته ويخاطبونه بصوت خفيض، ويكنون له في أنفسهم المحبة العظيمة، وأما جفاة الأعراب فقد عنفهم القرآن على سوء أدبهم وجفائهم، وارتفاع أصواتهم وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول ﷺ ، وهذه مواقف تدل على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب:

مواقف تدل على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب

١ - الأعرابي الذي رفض البشرى:

قال أبو موسى الأشعري: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبيَّ ﷺ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: «**أبشر**» فقال: قد أكثرت عليَّ من أبشر، فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «رد البشرى، فاقبلا أنتما» قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه، ومج فيه ثم قال: «اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا» فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر أن

أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة[1].

٢ - مقولة الأعرابي: ما أريدَ بهذه القسمة وجه الله:

قال عبد الله بن مسعود ﷺ:... فلما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسا من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله، قال: فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ ، قال: فأتيته فأخبرته بما قال، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف، ثم قال: «**فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله؟!**» قال: ثم قال: «**يرحم الله موسى؛ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثا[2].

١٣- تعامله ﷺ مع هوازن لما أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا مَنَّ الله عليك. وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر[3] ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما

(١) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٣٢٨.

(٢) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، حديث ١٠٦٢.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٥٢).

وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين، ثم أنشأ يقول:

امنن علينا رسولَ الله في كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر(١)

إلى أن قال:

امنن على نسوة قد كنت إذ فوك يملؤه من محضها درر

امنن على نسوة قد كنت وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضله عليه السلام عليهم قديما وحديثًا وخصوصًا وعمومًا(٢).

فلما سمع رسول الله ﷺ من الوفد قال لهم: «**نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟**» فقالوا: يا رسول الله خيَّرتنا بين أحسابنا وأموالنا؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا، فقال رسول الله: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم**» فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ، فقال: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس ابن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا،

---

(١) المصدر نفسه (٤/٣٥٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٦٣، ٣٦٤).

فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، قال عباس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض من أول فيء نصيبه، فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم**»(١)، وفي رواية... فخطب رسول الله ﷺ في المؤمنين فقال: «**إن إخوانكم هؤلاء جاءونا تائبين، وإني أردت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل**» فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، فقال لهم: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا(٢) وقد سر الرسول ﷺ بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه في الطائف مع ثقيف، فوعدهم برد أهله وأمواله عليه، وإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلمًا، فجاء مالك مسلمًا فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة. لقد تأثر مالك بن عوف وجادت قريحته لمدح النبي ﷺ فقال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله	في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا	ومتى تشاء يخبر عما في غد
وإذا الكتيبة عردت(٣) أنيابها	بالسمهري وضرب كل مهند

---

(١) المصدر نفسه (٤/٣٥٢، ٣٥٣).

(٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٣١٩.

(٣) عردت: اشتدت وضربت، القاموس المحيط (١/٣١٣).

فكأنه ليث على أشباله   وسط الهباءة(١) خادر(٢) في

لقد كانت سياسته ﷺ مع خصومه مرنة إلى أبعد الحدود؛ وبهذه السياسة الحكيمة استطاع ﷺ أن يكسب هوازن وحلفاءها إلى صف الإسلام، واتخذ من هذه القبيلة القوية رأس حربة يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الذي قاتل ثقيفًا في الطائف حتى ضيق عليهم، وقد فكر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان فلا تستطيع تحركًا ولا تجارة، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام مثل عروة بن مسعود الثقفي الذي سارع إلى اللحاق برسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين واعتمر من الجعرانة، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن إسلامه وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف محبوبًا عندهم، فدعاهم إلى الإسلام وأذن في أعلى منزله فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطائف(٤).

إن الإنسان ليعجب من فقه النبي ﷺ في معاملة النفوس، ومن سعيه الحثيث لتمكين دين الله تعالى، لقد استطاع ﷺ أن يزيل معالم الوثنية، وبيوتات العبادة الكفرية من مكة وما حولها، ورتب ﷺ الأمور التنظيمية للأراضي التي أضيفت للدولة الإسلامية، فعين عتاب بن أسيد أميرا على مكة، وجعل معاذ بن جبل

---

(١) الهباءة: غبار الحرب، مختار الصحاح، ص٦٨٩.

(٢) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للجارية من ناحية البيت.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٤٤/٤).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٩٢/٤).

مرشدًا وموجهًا ومعلمًا ومربيًا(١)، وعين على هوازن مالك بن عوف قائدًا ومجاهدًا، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة ﷺ.

١٤- تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

إن غزوة حنين سُجلت في القرآن الكريم لكي تبقى درسا للأمة في كل زمان ومكان، ولقد عرضت في القرآن الكريم على منهجية ربانية كان من أهم معالمها الآتي(٢):

أ- بين القرآن الكريم أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ ثم بين القرآن أن هذه الكثرة لا تفيد﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾.

ب- بين القرآن الكريم أن المسلمين انهزموا وهربوا ما عدا النبي ﷺ ونفر يسير من أصحابه، قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾.

---

(١) المصدر نفسه (١٥٣/٤).

(٢) انظر: حديث القرآن (٦٠٢/٢، ٦٠٣).

ج- بيّن القرآن الكريم أن الله نصر رسوله ﷺ في هذه المعركة وأكرمه بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

د- بين القرآن الكريم أن الله أمد نبيه محمدا ﷺ بالملائكة في حنين قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾.

وأكد –سبحانه– على أنه يقبل التوبة من عباده ويوفق من شاء إليها، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

١٥- أسباب الهزيمة:

وقعت الهزيمة في الجولة الأولى لعدة أسباب منها:

١- أن شيئًا من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين، لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة.

٢- خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كافٍ، وإنما عندهم حماس وتسرع.

٣- أن عدد المشركين كان كثيرًا بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

٤- أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجأوا المسلمين، برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

٥- كان العدو مهيأ ومنظما ومستعدا للقتال حال مواجهته لجيش

المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوف رُئيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك ثم الغنم ثم النعم.

٦- وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثًا في مكة، ففروا فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سببا لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم(١).

١٦- عوامل النصر:

كانت عوامل النصر في حنين عدة أسباب منها:

١- ثبات الرسول في القتال وعدم تراجعه، مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.

٢- شجاعة القائد، فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب، بل تقدم نحو عدوه راكبًا بغلته، فطفق يركض ببغلته قِبَل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفها ألا تسرع.

٣- ثبات قلة من المسلمين معه وحوله حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة؛ مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر.

٤- سرعة استجابة الفارِّين والتحاقهم بالقتال.

٥- وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكري قاتل، وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلامي بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامي ليلتقط أنفاسه ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٤٠٩). (٢) مسلم بشرح النووي (١٢/١١٦، ١١٧).

٦- رمية الحصى، فقد أخذ النبي ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد»(١).

٧- الاستعانة والاستغاثة بالله عز وجل، فقد كان الرسول يلح على الله في الدعاء بالنصر على الأعداء.

٨- إنزال الملائكة في الغزوة ومشاركتهم فيها، وقد سجل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم في سورة التوبة(٢): ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

١٧- نزول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[النساء: ٢٤]:

وقد نزلت في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل(٣).

١٨- منع المخنثين خلقة من الدخول على النساء الأجنبيات:

كان ذلك مباحًا إذ لا حاجة للمخنث بالنساء، وكان سبب المنع ما

---

(١)انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٢٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص٤٢٣.

٣ انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٢٠).

رواه البخاري عن زينب بنت أبي سلمة عن أمها أم سلمة، دخل عليَّ النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعته يقول لعبد الله بن أمية: يا عبد الله، أرأيت إن فتح الله عليك الطائف غدًا، فعليك بابنة غيلان؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال النبي ﷺ: «**لا يدخلن هؤلاء عليكم**»(١).

وفي هذا المنع حرص النبي ﷺ على سلامة أخلاق المجتمع الإسلامي.

١٩- **النهي عن قصد قتل النساء والأطفال** والشيوخ والأجراء ممن لا يشتركون في القتال ضد المسلمين:

وقد ذكر ابن كثير أن رسول الله مر يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس متقصفون(٢) عليها، فقال رسول الله ﷺ: «**ما كانت هذه لتقاتل**» وقال لأحدهم: «**الحق خالدًا فقل له لا يقتلن ذرية ولا عسيفًا**»(٣)، وفي رواية: «**فقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا**»(٤).

٢٠- تشريع العمرة من الجعرانة:

أحرم النبي ﷺ بعمرة من الجعرانة، وكان داخلا إلى مكة وهذه هي السنَّة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعله كثير مما لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ثم يرجع إليها فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا استحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، (١٢٠/٥) رقم ٤٣٢٤.

(٢) متقصفون: مجتمعون.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣٣٦/٤).

(٤) المصدر نفسه (٣٣٥/٤).

الناس زعموا أنه اقتداء بالنبي وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلا إلى مكة ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها[١].

٢١- إرشاده ﷺ للأعرابي بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحج:

قال يعلى بن منبه: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة وعليه جبة، وعليها خلوق[٢] -أو قال: أثر صفرة- فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأُنزل على النبي ﷺ الوحي، فستر بثوب، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النبي ﷺ وقد أُنزل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثوب عنه فنظرت إليه، فإذا له غطيط (قال) فلما سري عنه قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصفرة -أو قال: أثر الخلوق- واخلع عنك جبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجتك»[٣].

٢٢- من قتل قتيلاً فله سلبه:

قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلا من المشركين، وآخر من المشركين يختله من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الذي يختله فرفع ليضربني وأضرب يده فقطعتها، ثم أخذني فضمني ضمًّا شديدًا حتى تخوفت، ثم ترك فتحلل ودفعته ثم قتلته، وانهزم المسلمون

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٥٠٤).

(٢) خلوق: طيب.

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٧٨.

وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمر الله، ثم تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «من أقام بينة على قتيل قتله، فله سلبه»، فقمت لألتمس بينة قتيلي فلم أر أحدًا يشهد لي فجلست، ثم بدا لي فذكرت أمره لرسول الله ﷺ فقال رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا لا يعطه(١) أصيبغ من قريش ويدع(٢) أسدًا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله، قال: فقام رسول الله ﷺ فأداه إليَّ فاشتريت منه خرافًا(٣)، فكان أول مال تأثلته في الإسلام(٤).

ونلحظ في هذا الخبر أن أبا قتادة الأنصاري ﵁ حرص على سلامة أخيه المسلم، وقتل ذلك الكافر بعد جهد عظيم، كما أن موقف الصديق ﵁ فيه دلالة على حرصه على إحقاق الحق، والدفاع عنه، ودليل على رسوخ إيمانه وعمق يقينه وتقديره لرابطة الأخوة الإسلامية وأنها بمنزلة رفيعة بالنسبة له(٥).

٢٣- النهي عن الغلول:

أخذ النبي ﷺ يوم حنين وبرة من سنام بعير من الغنائم، فجعلها بين إصبعيه ثم قال: «أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط، وإياكم والغلول، فإن

---

(١) لا يعطه: أي لا يعطي رسول الله ﷺ، وقوله أصيبغ: نوع من الطيور شبه له لعجزه وضعفه.

(٢) يدع: يترك.

(٣) خرافا: أي بستانا أقام الثمر مقام الأصل.

(٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/١١٩) رقم ٤٣٢٢.

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي، (٨/٢٦).

الغلول عار، ونار، وشنار على أهله في الدنيا والآخرة»[١].

ولما سمع الناس هذا الزجر بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ أشفقوا على أنفسهم وخافوا خوفا شديدًا فجاء أنصاري بكبة خيط من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله، أخذت هذه الوبرة لأخيط بها برذعة بعير لي دبر، فقال له ﷺ: «أما حقي منها، وما كان لبني عبد المطلب فهو لك»، فقال الأنصاري: أما إذا بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها، فرمى بها من يده[٢].

وأما عقيل بن أبي طالب فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطخ دمًا، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئًا فليرده، حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم[٣].

وهذا التشديد في النهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصورة الشائهة المرعبة، ولو كان في شيء تافه لا يلتفت إليه، يمثل معلما من أهم معالم المنهج النبوي في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العملية، إيمانًا وأمانة، وفي التزام الأفراد بهذا التوجيه يتطهر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة، لأن التساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانية التي لا تليق بالمجتمع المسلم[٤].

(١، ٢) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٥٣).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/١٤٥).

(٤) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/٣٨٧؛ ٣٨٨).

٢٤- وفاء نذر كان في الجاهلية:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لما قفلنا من حنين سأل عمر النبي ﷺ عن نذر كان نذره في الجاهلية اعتكافًا فأمره النبي ﷺ بوفائه(١).

٢٥- أنس بن أبي مرثد الغنوي وحراسة المسلمين:

قال رسول الله ﷺ قبل اندلاع معركة حنين: «**من يحرسنا الليلة؟**» فقال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال ﷺ: «**فاركب**» فركب ابن أبي مرثد فرسا له، وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «**استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ونُغَرَنَّ من قبلك الليلة**».

قال سهيل بن الحنظلية: فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين، ثم قال: «**هل أحسستم فارسكم؟**» قالوا: ما أحسسناه، فثّوب بالصلاة، فجعل ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشعِّب، حتى إذا قضى صلاته، قال: «**أبشروا فقد جاءكم فارسكم**»، فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشعب حيث أمرني ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا، فقال ﷺ: «**هل نزلت الليلة؟**» فقال: لا، إلا مصليا أو قاضي حاجة، فقال له ﷺ: «**قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها**»(٢) وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النبوي الكريم في الاهتمام بالأفراد، فقد ظهر اهتمام النبي ﷺ بطليعة

---

(١) البخاري، كتاب المغازي (١١٨/٥)، رقم ٤٣٢٠.

(٢) أبو داود في الجهاد رقم ٢٥٠١، صحيح السيرة النبوية، ص٥٥٠.

القوم حتى جعل يلتفت في صلاته، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمر مهم، ثم إنه ﷺ قال: «أبشروا فقد جاء فارسكم»، إنها الكلمة التي يستعملها ﷺ في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة، تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي، إنه ليس كمًّا مهملاً، ولا رقمًا في سجل ولا بزالاً في آلة، يستغنى عنه عند الضرورة ليؤتى بغيره، إنها بعض التفسير للمنهج الإلهي(١) في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء: ٧٠].

كما أن في هذه القصة معلمًا من معالم المنهج النبوي الكريم في وجوب اليقظة وتعرف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوة عددًا وعدة، وما رسمه من خطط حربية، وهي سياسة مهمة بالنسبة للقادة الذين يسعون لإعلاء كلمة الله في الأرض(٢).

وأما قول الرسول ﷺ: «قد أوجبت فلا عليك أن تعمل بعدها» فهذا محمول على النوافل التي يكفر الله بها السيئات، ويرفع بها الدرجات، والمقصود أنه عمل عملا صالحًا كبيرًا يكفي لتكفير ما قد يقع منه من سيئات في المستقبل، ويرفع الله به درجاته في الجنة، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات(٣).

---

(١) انظر: معين السيرة، ص٤٢٩.

(٢) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/٣٦٦).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١٤).

٢٦- شجاعة أم سليم يوم حنين:

قال أنس رضي الله عنه: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرا[١] فكان معها، فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك، قالت: يا رسول الله، اقتل من بعدنا[٢] من الطلقاء[٣] انهزموا بك[٤]، فقال رسول الله: «يا أم سليم، إن الله قد كفى وأحسن»[٥].

٢٧- الشيماء بنت الحارث أخت النبي ﷺ من الرضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله الشيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، وعنفوا عليها في السوق، وهم لا يدرون، فقالت للمسلمين: تعلمون والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله، ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة، قال: «ما

---

(١) خنجرًا: سكين كبير ذو حدين.

(٢) من بعدنا: من سوانا.

(٣) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الأولى.

(٤) انهزموا بك: انهزموا عنك.

(٥) مسلم، رقم ١٨٠٩، صحيح السيرة النبوية، ٥٦٣.

علامة ذلك؟» قالت: عضة عضضتها في ظهري، وأنا متوركتك[١]، وعرف رسول الله ﷺ العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيَّرها، وقال: «إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت» فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي[٢]. ومتعها رسول الله ﷺ فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعماء وشاء[٣].

٢٨- إسلام كعب بن زهير -الشاعر- والهيمنة الإعلامية على الجزيرة:

لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف، جاءه كعب بن زهير -الشاعر ابن الشاعر- وكان قد هجا رسول الله ﷺ ثم ضاقت به الأرض، وضاقت عليه نفسه، وحثه أخوه (بجير) على أن يأتي رسول الله ﷺ تائباً مسلما، وحذره من سوء العاقبة إن لم يفعل ذلك، فقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ والتي اشتهرت بـ(قصيدة بانت سعاد)، فقدم المدينة، وغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، ثم جلس إليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال لرسول الله ﷺ: إن كعب بن زهير جاء يستأمنك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه؟ فوثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دعني وعدو الله، أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك فقد جاء تائبًا نازعًا»،

---

(١) متوركتك: يعني حاملتك على وركي.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٦٣) السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٠٦).

(٣) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص٣٥٨.

وأنشد كعب قصيدته اللامية التي قال فيها:

بانــت ســعاد فقلبــي اليــوم متــيم إثرهــا لم يفــد مكبــول

ومــا ســعاد غــداة الطــرف إذ إلا أغنُّ قرير العـين مكحـول(٢)

ومنها:

إن الرســول لنــور يستضــاء بــه مهند مـن سـيوف الله مسـلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسـلموا: زولـوا

شُمُّ العـرانين أبطـال لبوسُـهم مـــن نســـج داود في الهيجـــا

ويقال إنه لما أنشد رسول الله قصيدته أعطاه بردته، وهـي التـي صـارت إلى الخلفاء(٤). قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جـدًّا، ولكـن لم أر ذلـك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه، فالله أعلم(٥).

ويقال: إن الرسول ﷺ قال له بعد ذلك: «لولا ذكرت الأنصـار بخـير فـإن الأنصار لذلك أهل!»(٦)، فقال:

من سره كـرم الحيـاة فـلا يـزل في مقنـــب مـــن صـــالحي

ورثوا المكارم كـابرًا عـن كـابر إن الخيـار هـم بنـو الأخيـار

(١)متبول: مغرم، مكبول: مقيد.

(٢) أغن: صفة للغزال الذي في صوته غنة.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٦٩- ٣٧١).

(٤)انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٤٨٧).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٣٧٤).

(٦)المصدر نفسه (٤/٣٧٣).

(٧) المقنب: الجماعة من الخيل، يريد به القوم على ظهور جيادهم.

المكـــرهين الســـمهريَّ بـــأذرع كسوالف الهندي غـير قصـار(١)
والنــــاظرين بـــأعين محمـــرَّة كـــالجمر غـير كليلـة الأبصـار
والبـــائعين نفوسَـــهم لنبـــيهم للمـــوت يـــوم تعـــانق وكـــرار
والقائدين(٣) الناس عن أديـانهم بالمشرـــفي وبالقنـــا الخطـــار(٢)
يتطهـــرون يرونــــه نســـكًا لهــم بـــدماء مـــن علقـــوا مـــن الكفـــار

إلى أن قال:

لــو يعلــم الأقــوام علمــي كلــه فيهم لصدقني الـذين أمـاري(٤)
قوم إذا خــوت النجــوم فــإنهم للطـارقين(٥) النـازلين مقـاري(٦)

وبإسلام كعب بن زهـير نسـتطيع القـول إن الشـعراء المعارضـين للـدعوة الإسلامية قـد انتهـى دورهـم، فقـد أسـلم ضرار بـن الخطـاب وعبـد الله بـن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي، واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضـهم بـأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام، بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا مـن بركات فتح مكة(٧).

---

(١) السمهري: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السيف.

(٢) المشرفي: السيف، والقنا، الرماح جمع قناة، والخطار: المهتز.

(٣) القائدين: المانعين الناس.

(٤) أماري: أجادل.

(٥) خوت النجوم: أي سقطت، الطارقين: الذين يأتون بالليل.

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/١٦٧، ١٦٨).

(٧) انظر: معين السيرة، ص٤٣١- ٤٣٣.

٢٩- رفع الصوت للحاجة:

الرسول عليه الصلاة والسلام ذم رفع الصوت لغير الحاجة؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان:١٩] فأما رفع الصوت للحاجة فلا بأس به.

قال البخاري في كتاب العلم: باب من رفع صوته بالعلم، ثم أتى بحديث ابن عمرو : « أن الرسول عليه الصلاة والسلام رفع صوته وقال: ويل للأعقاب من النار » فهنا رفع ﷺ صوته ينادي في الناس، وقال للعباس : ارفع صوتك وناد في الناس، فأخذ يقول: «يا أهل سورة البقرة، يا من بايع النبي ﷺ تحت الشجرة» حتى يأتون.

٣٠- تأثير قبضتي الحصى والتراب في أعين الأعداء:

من الأسلحة المادية التي أيد الله بها رسوله ﷺ يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتراب اللتين رمى بهما وجوه المشركين، حيث دخل في أعينهم كلهم من ذلك الحصى والتراب فصار كل واحد يجد لها في عينيه أثرًا، فكان من أسباب هزيمتهم(١)، قال العباس رضي الله عنه: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا وربِّ محمد» قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبرا(٢).

---

(١) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله، ص٢٥٩.

(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (١٣٩٩/٣) رقم ١٧٧٥.

٣١- فضل أبي سفيان بن الحارث ﷺ :

وهو أبو سفيان بن الحارث ليس أبا سفيان بن حرب ، فـ أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ، والرسول عليه الصلاة والسلام كـان لـه أعـمام عشرة منهم الحارث ابنه أبو سفيان هذا، وما أسلم إلا قبل الفـتح بأيـام، سـمع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سوف يقدم فاتحاً لـ مكة ، وعلم أنه أساء مـع الرسول عليه الصلاة والسلام في المقاتلة وأساء في المهاجاة؛ لأن أبا سفيان كان شاعرا يرسل القصائد يهجو بها رسول الله ﷺ والمسلمين، فلما علم أن الرسـول عليه الصلاة والسلام سوف يقدم مكة فاتحا أخذ أطفاله، وكانوا صغارا كـأنهم فراخ الطير من البنات ومن الأبناء، وخرج بهم من مكـة ولقـيهم عـلي بـن أبي طالب دون مكة بين عسفان و مكة في طريق رحب في شعب من الشعاب.

فقال علي ابن عمه: إلى أين يا أبا سفيان ؟ قال: يا علي قاتلنـا محمـدا وآذينـاه وشتمناه وطردناه وأخرجناه؛ سـوف أخـرج بأطفـالي هـؤلاء وأمـوت جوعـاً وعرياً وعطشاً في الصحراء، والله لئن قدر علي ليقطعني بالسيف إرباً إربا.

فقال علي بن أبي طالب : أخطأت يا أبا سفيان ! إنـك لا تعـرف رسـول الله ﷺ، فهو أحلم الناس وأكرمهم وأرحمهم، فعد إليه وسلم عليه بالنبوة، وقل لـه كما قال إخوة يوسف ليوسف:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾[يوسف:٩١] لأنهـم إخوان وأبناء عم، فأتى أبو سفيان بأطفاله يقـودهم بأيـديهم، فلـما وقـف عنـد خيمة أم سلمة وكان الرسول ﷺ داخـل الخيمـة، قـال: ائـذنوا لي أدخـل عـلى

رسول الله ﷺ، قال الرسول ﷺ : **من في الباب؟** قالوا: يا رسول الله أبـو سـفيان بن الحارث ، قال: لا يدخل علي، لأنه أساء كل الإساءة ما ترك أمرا إلا وكاد به رسول الله ﷺ ، فأخذت أم سلمة تبكي وتقـول: يـا رسـول الله! لا يكـون ابـن عمك وقريبك أشقى الناس بك، وأخذت تناشده الله عز وجل، قال: أدخلـوه علي، فدخل.

فقال: السلام عليك يا رسول الله، أما بعد: ﴿ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَـا وَإِنْ كُنَّـا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف:٩١] قاتلناك يا رسول الله وآذيناك وأخرجنـاك والله لا أدع موقفا قاتلتك فيه إلا قاتلت فيه معك، ولا نفقة أنفقتهـا في حربـك إلا أنفقتهـا معك، ثم أخذ يعدد، فرفـع ﷺ طرفـه وعينـاه تنـزل الـدموع، قـال: ﴿ قَـالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسـف:٩٢]فقال: يا رسول الله! اسمع مني، قال: قل، قال:

لعمـرك إني يـوم أحمـل رايـة لتغلـب خيـل الـلات خيـل محمـد

لـك المـدلج الحـيران أظلـم ليلـه فهـذا أواني يـوم أهـدى وأهتـدي

هـداني إلى الـرحمن ربي وقـادني إلى الله مـن طـردت كـل مطـرد

فقام عليه الصلاة والسلام فعانقه وضرب على صدره وقـال: أنـت طردتنـي كل مطرد، فأخذ يخدم محمداً ﷺ، لا يرتحل مرتحلا إلا قام وحزم له متاعه وشـد له رحله، وأخذ ببغلته يقودها، فهو قائد البغلة يوم حنين اليوم الأكبر مـن أيـام الله، يوم ثبت رسول الهدى ﷺ ونزل يقارع الأبطال وهو يقـول: « **أنـا النبـي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب** ».

٣٢- بيان خطورة الشرك بالله:

وفي قصة ذات أنواط بيان خطورة أمر الشرك، ووجوب سد ذرائعه؛ فقد بين النبي - ﷺ - أن طلبهم العكوف عند الشجرة للتبرك بها هو كطلب بني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهاً، قال الشيخ سليمان آل الشيخ تعليقاً على هذا الحديث: " وفي هذه الجملة من الفوائد أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار، من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون هذا شركاً ويقع في هذه الأمة، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً، وطلبوه من النبي - ﷺ - فكيف بغيرهم مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟ [(١)].

وقال أحد الصالحين "فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخرق، فهي ذات أنواط فاقطعوها".

وفيها أيضاً إثبات العذر بالجهل في مسائل التوحيد وغيرها؛ فإن النبي - ﷺ - مع إنكاره عليهم، وبيانه أن ما طلبوه هو نوع من الشرك، إلا أنه لم يكفرهم، لكونهم لا يعلمون ذلك .

وذلك أن الله - تعالى - من رحمته بعباده لا يؤاخذهم إلا بما بلغهم من العلم، فإن الفعل أو القول قد يكون كفراً كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فيطلق القول بتكفير صاحبه، فيقال من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص

---

(١)"(تيسير العزيز الحميد (ص: ١٨٤).

المعين الذي قاله لا نحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها"[١].

وقال أيضاً: "فإنا بعد معرفة ما جاء به الرسول - ﷺ - نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن تدعو أحداً من الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين، ولا غيرهم لا بلفظ الاستغاثة، ولا بغيرها ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا لغير ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله - تعالى - ورسوله، لكن لغلبة الجهل، وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك، حتى يبين لهم ما جاء به الرسول - ﷺ - مما يخالفه".

٣٣- ثباته ﷺ وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثوا كتائبهم في شعابه ومنعطفاته وأشجاره، وكانت خطتهم تتمثل في مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشركون المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم، وماج بعضهم في بعض، ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاة لنفسه، وبقي الرسول ﷺ ونفر قليل في الميدان يتصدون لهجمات المشركين، ونترك العباس عم الرسول ﷺ يصف لنا ذلك المشهد المهيب حيث يقول: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ

---

[١] مجموع الفتاوى: (٢٣/٣٤٥-٣٤٦)

على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة ألا تسرع، فقال رسول الله ﷺ: «**أي عباس، نادِ أصحاب السمرة**»(١) فقال العباس -وكان رجلا صيتًا-: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك! قال: فاقتلوا الكفار، والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث من الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: «**هذا حين حمي الوطيس**»(٢).

وفي ثباته - ﷺ - عند انهزام القوم عنه بيان ما كان يتحلى به - ﷺ - من الشجاعة، وقوة البأس في القتال، قال ابن كثير بعد أن ذكر ثبات النبي يوم حنين: "وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة، وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر، ولا لكر، ولا لهرب، وهو مع هذا أيضا يركضها إلى وجوههم، وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقةً بالله وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (١٣٩٨/٣) رقم ١٧٧٥.

(٢) المصدر نفسه (١٣٩٩/٣) رقم ١٧٧٢.

ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان"(١) .

٣٤- جواز مقاتلة النساء عند أمر الفتنة:

وفي هذه الغزوة جواز مقاتلة النساء عند أمر الفتنة مع الرجال في صف المسلمين، وقد أورد ابن كثير بأسانيد صحيحة: أن أم سليم قاتلت مع الرسول ﷺ يوم حنين .

و أم سليم هي أم أنس بن مالك التي أهدت ابنها إلى رسول الله ﷺ ، وقالت: أنس يخدمك يا رسول الله فادع الله له، فدعا له.

و أم سليم هي التي يقول عنها ﷺ: « **دخلت الجنة البارحة فرأيت الرميصاء في الجنة** ».

حضرت المعركة وكانت عندها خنجر في وسطها، فأخذ زوجها أبو طلحة يداعبها ويمازحها ويقول: ماذا تفعلين بهذا الخنجر؟ قالت: إذا تقدم مني كافر بعجت بطنه بهذا الخنجر، فسمع ﷺ مقالتها فتبسم ثم دعا لها.

فأقر ﷺ المرأة على أن تشارك في الحرب عند الحاجة، أما إذا كان هناك فتنة أو مغبة اختلاط، فلا ينبغي أن تشارك المرأة إلا إذا احتيج إليها، وشأن المرأة في القتال مداواة الجرحى والقيام على الأسرى وتقريب الماء والخدمات للمقاتلين.

٣٥- ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين :

يقول أحد المسلمين: لما التقينا يوم حنين رأيت كافرا من هوازن يفتك

---

(١)تفسير القرآن العظيم: (٣٤٦/٢)

بالمسلمين فتكا ويقتل فيهم قتلا، قلت: لله علي نذر إن أمكنني الله منه أن أقتله، قال: فلما انهزموا وأصبحوا في ذمة رسول الله ﷺ تقدموا يبايعونه على الإسلام، فتقدمت لأسبق هذا الرجل قبل أن يبايع الرسول عليه الصلاة والسلام لأقتله، فسبقني حتى وقف أمام الرسول عليه الصلاة والسلام، وعلم ﷺ أني نذرت، فأراد أن يترك لي الفرصة حتى أقتله.

قال: فانتظر فما فعلت، قال: فأسلم الرجل فولى.

قلت: يا رسول الله أريد قتله فإني نذرت، قال: أما رأيتني تأخرت عن قبول إسلامه؟ فلماذا لم تومئ لي يا رسول الله بعينك، قال: « ما كان لنبي أن تكون له خائنة أعين » لأن خائنة الأعين أو الغمض من شيم أهل الخيانة والخداع والمكر والنفاق، أما الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه صادق واضح مخلص لا يريد التواء في عقيدته ولا في سيرته ولا في معاملته للناس عليه الصلاة والسلام.

٣٦- معجزتان حسيتان للنبي ﷺ :

وفي رميه - ﷺ - المشركين بالحصى، وإخباره عن هزيمتهم معجزتان حسيتان من معجزاته - ﷺ -، قال الإمام النووي: "هذا فيه معجزتان ظاهرتان لرسول الله - ﷺ -: إحداهما فعلية والأخرى خبرية؛ فإنه - ﷺ - أخبر بهزيمتهم، ورماهم بالحصيات فولوا مدبرين" [(١)] وما ذكرناه من وقوع معجزات حسية للرسول - ﷺ - هو أمر ثابت بالأدلة القطعية التي لا يمكن

(١)(شرح صحيح مسلم: (١١٦/١٢)

تأويلها بحال، غير أن بعض من يدعون العقلانية يحاولون نفي تلك المعجزات، زاعمين أنهم حين يفعلون ذلك يقدمون الإسلام للغربيين على أنه دين العقل والمنطق، لا دين الجهل والخرافة، ومن أشهر من سار على هذا النهج الدكتور محمد حسين هيكل، حيث حاول في كتابه (حياة محمد) نفي كل ما ثبت له - ﷺ - من معجزات حسية، زاعماً أن القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة له - ﷺ -، حتى إنه يصور معجزة الإسراء والمعراج على أنها نوع من الكشف الذي تجلت فيه للرسول - ﷺ - تلك المشاهد التي وردت في قصة الإسراء.(١)

وهو يورد في تبرير طريقته تلك أن "حياة محمد - ﷺ - حياة إنسانية بلغت أسمى ما يستطيع إنسان أن يبلغ، ولقد كان - ﷺ - حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه، حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن ويصارح أصحابه بذلك" (٢).

ولست أدري على أي شيء استند الدكتور هيكل في قوله إن الرسول - ﷺ - كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن، وهو الذي كان يخبر أصحابه بما لم يشهدوه من دلائل نبوته؛ كما في حديث الراعي الذي عدا الذئب على شاة من غنمه، فلما استنقذها منه، قال له الذئب: ألا تتقي الله، تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي، فلما تعجب الرجل من أن ذئباً يكلمه كلام الإنس، قال له

١) انظر: حياة محمد (ص: ١٦٥).

٢) (المصدر السابق (ص: ٥١).

الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك: محمد - ﷺ - بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، (فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله - ﷺ - فأخبره، فأمر رسول الله - ﷺ -، فنودي الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم فقال رسول الله - ﷺ -: صدق...)[1] وفي الصحيح قوله - ﷺ - لأصحابه: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»[2] ، وغير ذلك كثير .

إننا نقول إنه إن كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول - ﷺ -، فإن ذلك لا يمنع من ورود الكثير من المعجزات الحسية إقامة للحجة على المعاندين، وتثبيتاً لقلوب المؤمنين في عصره وإلى يوم الدين، وقد جاءت عشرات النصوص الدالة على وقوع تلك المعجزات فلا مجال لإنكارها أو تأويلها بأي وجه من الوجوه .

٣٧- ذكر الرجل نفسه عند اللقاء ببعض مناقبه:

عندما يذكر الرجل نفسه ببعض مناقبه عند اللقاء فإن هذا لا ينقص من أجره ولا من مثوبته شيئا، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما رأى الكتائب تتدفق عليه مثل الجبال، قال: « أنا ابن العواتك » وقال: « أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب ».

---

١) (أخرجه أحمد (٣/٨٣)، وصححه الحاكم (٤/٥١٤)، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (٦/١٥٠) وقال: هذا إسناد صحيح على شرط الصحيح، وقد صححه البيهقي.

٢) (أخرجه مسلم (٢٢٧٧) والترمذي (٣٦٢٤) من حديث جابر بن سمرة.

وانتسب لجده لشهرته في العرب، فهذا لا يثلم في الأجر ولا ينقص في المثوبة، ولذلك يقول أحد الصحابة: التقينا مع الكفار فخرج غلام من الأنصار فرمى كافرا وقال: خذها وأنا الغلام الأنصاري، فأخبروا الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: وما عليه أن يؤجر ويحمد أي: فهو مأجور ومحمود، ولذلك كان كبار الصحابة إذا بارزوا الأبطال أنشدوا فخرا ورفعا للمعنوية وحماسا وإبداء للشجاعة.

قال أهل السير ومنهم ابن كثير و ابن هشام ، التقى مرحب مع علي فنزل مرحب يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فنزل له علي وقال:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أكيلكم بالسيف كيل السندره

وخرج سعد بن معاذ ﵁ وأرضاه وهو لابس سلاحه في غزوة من الغزوات وهو يقول:

لبث قليلا يشهد الهيجا جمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

وهكذا ابن رواحة أنشد في المعركة رضوان الله عليهم جميعا، فكان شعارهم أن يتقدموا بهذا، وهي سنة عند العرب، يقول الأحنف بن قيس وقد كان يقاتل في سجستان وهو الذي فتح الطريق إلى كابل قبل الجراح بن عبد الله

الحكمي ، يقول:

عهـــد أبي حفـــص الـــذي تبقـــى   أن يخضـــب الصـــعدة أو تنـــدقا

وقفات تربوية مع حديث تقسيم الغنائم في حنين[1].

٣٨- الوقفة الأولى: كرم بلا حدود :

إنه كرم النبي - ﷺ - وجوده المنقطع النظير، بل السهل الممتنع، ذلك الكرم الذي يصل إلى حد أن يعطي الرسول - ﷺ - الرحيم بأمته مئات من الإبل لأفراد لم يقاسوا بعدُ مشقات الطريق، ولم تُخْبَر بعدُ مواقفهم، بل إنّ منهم من سقط في أول اختبار له في حنين، ولكنها الحكمة النبوية الرائعة؛ فالمال عند القائد الرباني لا يعني شيئاً؛ لأنه ليس من أرباب الأموال الذين تتمايل نفوسهم وراء الدينار والدرهم، وترحل معها حيث رحلت؛ فهذا القائد يعطي متى ما كان معه شيء، ولو كان ثوبه الذي يلبسه؛ فعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: جاءت امرأة إلى النبي - ﷺ - ببردة، فقالت: يا رسول الله! أكسوك هذه؛ فأخذها النبي - ﷺ - فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله! ما أحسن هذه! فأكسُنيها، فقال: «نعم! »[2].

ويَعِدُ - ﷺ - ويبشر بالخير ولا يقنّط أحداً؛ فعن جبير بن مطعم - رضي الله عنه - قال: بينما أسير مع رسول الله - ﷺ - ومعه الناس مقفِلة من حُنين، فعلقت

---

١) (طه بن حسين بافضل) مجلة البيان العدد ٢١١ لعام ١٤٢٦هـ.

٢) .(البخاري، الفتح ١٠ (٦٠٣٦)

الناس يسألونـه، حتى اضطروه إلى سَمُرة، فخطفت رداءه فوقف النبي - ﷺ - فقال: «أعطوني ردائي! لـو كان عـدد هـذه العضـاة نعماً لقسـمته بيـنكم، ثـم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»[١].

وكان يبشر أصحابه فيقول: «..فأبشروا وأمِّلوا ما يسركم؛ فـوالله لا الفقـرَ أخشى عليكم! ولكن أخشى عليكم أن تُبسَط عليكم الدنيا، كما بُسِـطَتْ عـلى من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[٢].

القائد أياً كان وضعه عالماً، أو موجهاً، أو معلماً، أو قائداً عسكرياً لا يحـبس شيئاً عن أتباعه، أو يبخل عنهم بشيء، كـما أنّـه يعطـي رجـالاً ويـترك آخـرين لِحِكَم يراها مثل قوة إيمانهم، وإخلاصهم، ويقينهم، واستقامتهم، وثباتهم؛ فهو حكيم بنفوس الرجال، يقدّر قدرها، ويعرف كيـف يمكـن قيادهـا، ومـا هـي الطريقة المثلى لعلاج ما اعوجَّ من سـلوكها، فالقيـادة والـترؤس لـيس تصـدُّراً وظهوراً فحسب، فهذا يسير حتى على الأغمار وصغار الشـباب، ولكـن الأمـر شيء آخر أبعد من ذلك.

لقد كان كرم النبي - ﷺ - لا لأجل استمالة قلوبهم إلى الباطـل، وتزيينـه في قلوبهم، وليس لأجل كسب ودّهم وتعاطفهم مع شخصـه - ﷺ - بعيـداً عـن وظيفته التي كلفه الله بها، وهي الرسالة السماوية الخالدة، وإنما كان لهدف سـامٍ

---

١) (البخاري، كتاب الجهاد، رقم (٢٦٠٩)

٢).(البخاري، كتاب الجزية، رقم (٢٩٢٤)، ومسلم كتاب الزهد، رقم (٥٢٦١)

ومقصد غاية في النبل والنقاء؛ وهو تأليفهم على الحق وتقريبهم له حتى يثبتوا وتخالط بشاشته قلوبهم .

٣٩- المصلحة الشرعية ميزان العطاء والمنع :

ينبغي للقائد في مسألة العطاء والمنع أن يقوم بأمر غاية في الأهمية، حتى لا يهتز مشوار تربيته لتلاميذه وأتباعه: وهو أن يعلمهم بميزان العطاء والمنع الذي يستند إليه، بل وفي كل مسائل تأليف النفوس من تقريب فلان على غيره، والاهتمام بمجموعة على أخرى وهكذا؛ لأن ذلك مدعاة إلى ترسيخ قواعد الثقة بينه وبين الأتباع، ودحض لكل الأقاويل والترهات التي تلوكها الألسن؛ بغية التفريق، وزعزعة الصف، وتوهين لُحمته وسَداه .

فهذه السياسة البعيدة الأفق للنبي - ﷺ - لم تُفهم أول الأمر، بل أطلقت ألسنة شتى الاعتراض؛ فهناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضرباً من الإعراض عنهم، والإهمال لأسرهم .

روى البخاري عن عمرو بن تغلب قال: أعطى رسول الله - ﷺ - قوماً ومنع آخرين؛ فكأنهم عتبوا عليه، فقال: «**إني أعطي قوماً أخاف هلعهم وجزعهم، وأَكِلُ قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى، منهم عمرو بن تغلب**» قال عمرو: فما أحب أن لي بكلمة رسول الله - ﷺ - حمر النعم؛ فكانت هذه التزكية تطييباً لخاطر الرجل، أرجح لديه من أثمن الأموال» - - ﷺ. فالرسول - ﷺ - يستخدم هذه السياسة، ويثبت تلك القاعدة العتيدة في ميزان العطاء والمنع؛ «**أعطي قوماً أخاف هلعهم وجزعهم، وأَكِلُ قوماً إلى**

ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى»، بل يبين مقاصدها وأهدافها؛ فها هو يقول للأنصار: «أَوَجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لُعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟»

إن الدعوة إلى تمثل هذا الميزان من قِبَل الموجهين، والمربين، والقادة في الحقل الدعوي ليس معناه أن يبقى القائد رهيناً لأهواء تلامذته، وانتقاداتهم، وأمزجتهم، بل إن المسألة لا تعدو أن تكون تربية بالمواقف؛ فهو يستغل كل موقف وحدث استغلالاً رائعاً حتى يجعله لبنة في بنيان النفوس، وحبلاً يشدّ ويمدّ إلى رب العالمين؛ فترتبط بخالقها وبارئها، فلا ترتبط بهذه الدنيا وحطامها وشهواتها؛ ولذا كان لزاماً على القائد أن يكون قريباً من رجاله وتلامذته، يتحسس أخبارهم ولا يتجسس، ويشعر بآلامهم، ويقيّم مواقفهم ببراءة نفس، وصفاء سريرة دون أي مقدمات مسبقة، أو تراكمات سابقة، بل المعيار عنده كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -، ثم الخبرة الكبيرة التي اكتسبها من مشواره الطويل في خدمة هذا الدين وما أصابه وتعرض له من ابتلاءات ومشكلات .

٤٠- المبادرة إلى حل الإشكالات :

عدم تأخر النبي - ﷺ - في حل الإشكال الحادث؛ فما أن سمع بالخبر حتى ذهب مسرعاً إلى القوم، بعد أن استدعاهم، وأنهى بحكمته وحنكته هذا

الأمر الطارئ؛ فلو أنه تـأخر أو اسـتهان بـه وتركـه، مـع أنـه سـيكون حينئـذ معذوراً؛ فهو النبي، وهو القائد الأعلى الذي على عاتقه من المهـمات والأعـمال الشيء الكثير ـ فلو أنه تـأخر ـ لكـان هـذا الموقـف مـن الأنصـار ـ – رضي الله عنهم – ـ قنبلة موقوتة، ربما ستنفجر يوماً من الأيام، وتعلق في أفئـدة الرجـال استفهامات وتقديرات خاطئة، تساعدها مواقف أخـرى، والشـيطان لا يـترك مثل هذه الفرص، بل يؤجِجها ويجعلها فتيلاً قابلاً للاشتعال فهو قد: «أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[١].

، «وتلك سنة حميدة يجب أن يتبعها القادة والزعماء مع أنصـارهم ومحبـيهم؛ فإن الأعداء متربصون لاستغلال كل حادثـة أو قـول يضـعف تعلـق المحبـين بقادتهم، والشيطان خبيث الدسّ، سريـع المكـر؛ فـلا يهمـلِ القـادةُ استرضـاءَ أنصارهم مهما وثقوا بهم»[٢].

تحدث المشاكل بين العاملين في الحقل الدعوي، وتصل قضـاياهم إلى قيـادة العمل، ولكن للأسـف تجـد خمولاً إزاءهـا ولا مبـالاة، وكـأن هـذه القيـادة ليس لها إلا التصدر والترؤس، واستصدار الأحكام والفتاوى، أمـا حـل تلـك المشكلات وتقريب النفوس وتهذيبها فهذا لـيس مـن اهتماماتهـا؛ لأن بعضـهم يزعم أنهـا ستشغلهم عن مهمات كبيرة جـداً، ولا أدري: هـل هـذه المهمـات أعظـم مـن التفكـك والانشـقاقات والتصـدعات، وهشاشـة العمـل وتـأخر

---

١) (رواه مسلم (٢٨١٢) من حديث جابر)

٢) (السيرة النبوية، دروس وعبر، لمصطفى السباعي، ص ٩٢ .

ثمرته؟ فهل هؤلاء القادة يحملون أثقالاً أكثر وأعظم مما حمله - ﷺ-؟ ولكن المشكلة الحقيقية عند بعض قيادات العمل الدعوي: هي عدم تقدير المواقف بشكل صحيح، وعدم القدرة على استيعاب مواطن الخلاف بين العاملين أو التلامذة، ومن ثم عدم قدرة القائد تحمل أن يرى عماله أو تلامذته يختلفون أمامه، بل بعض القادة يتمنى أن لو كانت الأمور تسير دائماً على ما يرام لا يشوبها كدر ولا خلاف أو شقاق وهيهات. لقد نسي هؤلاء ـ وفقهم الله ـ أن الله تعالى قال: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٧٩].

إن هذه الخلافات التي تبدو لأول وهلة صغيرة فإن فيها من مغذيات النمو ما هو كفيل بأن يجعلها مفاصَلات مع المربي نفسه، ودماراً وخراباً لكل ما بناه في سنيه التي خلت؛ فليس معه إلا أن يوجه أصابع الاتهام ليس إلى ذاته، وتفكيره، وعدم حنكته، وضعف بديهته، وإنما بالدرجة الأولى يوجهها إلى هذا الجيل المتأخر غير المتربي، والذي لا يحترم الكبير فضلاً عن القائد والمربي، ولعمري! إنها لمصيبة عظيمة أن نلقي التبعة على غيرنا، ونخرج نحن خارج الدائرة .

٤١- الحلم مع القدرة :

سعة صدر النبي - ﷺ - وتحمّله للنقد الموجّه له؛ «يغفر الله لرسول الله -

ﷺ -؛ يعطي قريشاً ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ » [(١)] .. فلم يرتفع صوته أو يحمرَّ وجهه ويَسوَدَّ، ولم يرتب أحكاماً ومواقف على هؤلاء المتكلمين؛ فيتعامل معهم معاملة جديدة وفق هذه المعطيات، فيهجرهم ويقاطع العمل معهم؛ بحجة أنهم لا يحترمون القيادة، ولا يوقرون الكبار، ولا يقدرون فضائل من ضَحّى من أجلهم. كلا، لم يفعل - ﷺ - شيئاً من ذلك؛ بل ذهب إليهم، وطرح عليهم أسئلة حكيمة، ثم مدحهم، وأثنى عليهم ثناءً ومدحاً فوق مستوى الحدث، لم يكن أحد منهم يتوقع هذا المدح والثناء؛ فلم يستطيعوا أن يوقفوا تدفق الدموع على خدودهم .

إن بعض القادة والمربين يستطيع أن يستميل قلوب تلامذته ورجاله لو رآهم أخطأوا بموعظة بليغة تَوْجَل منها القلوب، وتذرف منها الدموع، إلا أنه تغلبه الطبيعة التي تربى عليها منذ صغره؛ فيرى أن كبرياءه قد جرحت وخدشت، ولا يعيدها إلا اعتذار على مستوى رفيع، كأن يعتذر هؤلاء الذين تكلموا ليس في اجتماع مغلق: كالحظيرة أو القبة التي اجتمع فيها الأنصار بل اعتذار على الملأ، حتى يجرح كبرياءهم ويخدشه مثلما فعلوا .

إن الرفق بالمتلقي إذا أخطأ أمر مهم جداً؛ إذ إن القسوة عليه في غير محلها، وهو يحب مربيه ومعلمه يوغر في صدره أموراً، ويطرح أمام ناظريه عدة تساؤلات، لا يجيب عليها إلا واقع سيئ يعيشه هذا المتربي في تعامل قادته مع أتباعهم .

---

(١)هذا من رواية أنس كما عند البخاري (٦/٢٥١) رقم (٣١٤٧)

كما أن على القائد أن يضع في عين الاعتبار والاهتمام أن أتباعه ذوو عقول تزداد خبرةً وعلماً ومعرفةً يوماً بعد يوم، وفكراً ينضج ساعةً بعد ساعةٍ. فلو أُهملت هذه العقول وتلك الأفكار المتراكمة لكانت العاقبة وخيمة، ويسقط البنيان من القواعد .

يجب ألاّ نتعامل مع المنتقد على أنه ذلك الشاب الصغير الذي كان يوماً من الأيام لا يستطيع أن يثبّت النظر في عيني شيخه ومعلمه، أو ذلك الطالب الذي كان يتلعثم في كلامه .

فعجلة الزمن لا تتوقف؛ فهي تدور ويتطور معها الكائن البشري، ويرتقي في سلم الكمال؛ فيصبح المتربي أو الجندي قائداً بين لحظة وأخرى، وربما نِدّاً لقائده ومعلمه ومربيه .

٤٢- الصراحة، والوضوح :

لقد كان سعد بن عبادة - رضي الله عنه -: صريحاً وواضحاً في خطابه مع النبي - صلى الله عليه وسلم - قائده ومعلمه؛ فها هو يقول له: «يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمت في قومك وأعطيت عطايا في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء .

إن هذه الصفات والخصال الحميدة لا يجيدها إلا النادر من التلاميذ والأتباع، ولا يتقبلها إلا القليل من القادة أو الموجهين الذين لا يضعون على أنفسهم هالة من التبجيل، ولا تصيبهم غضاضة لو لم ينادَ بلقبه أو مركزه

العلمي .

الصراحة، والوضوح أسماء ومعانٍ قلّما تجد من يتمثلها فتصبح واقعاً وسلوكاً ومنهجاً في تعامله مع الآخرين صغاراً أم كباراً، ولذا فإنك ترى من يفعل ذلك قد أصبح لكلامه وقعٌ في النفوس، ولوعظه تأثيرٌ في القلوب، وأعماله منهجٌ يسير عليه ويقتدي به الآخرون، وما ذلك إلا لأن هؤلاء قد عظّموا الله ـ جل جلاله ـ تعظيماً فاق كل التصورات، واقتفوا أثر نبيهم، فكان نبراساً لهم في هذه الحياة. وما أجمل وضوح سعد بن عبادة – ﵁ – وشفافية رده للنبي – ﷺ – عندما سأله: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟** » فقال – ﷺ –: «يا رسول الله! إنما أنا رجل من قومي»؛ أي: أن قولهم ورأيهم هو قولي ورأيي. لم يكن سعد – ﵁ – متكلفاً أو مجاملاً أو متلوناً، وهذه صفات تكثر في الأتباع تجاه قادتهم؛ مما يورث الجماعة انقساماً، وتحزباً، ونجوى مفسدة وموهنة لحبل الاجتماع. وقد يقول قائل: إن سعداً كان إمَّعة في قوله ذاك، أو أنه خاطب النبي – ﷺ – بالمنطق الجاهلي :

وما أنا إلا من غزية إن غوت *** غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

كلاَّ! إنها مسألة بدهية أن يجد الإنسان في نفسه عندما يرى العطايا تقسم ولا يصل له منها شيء، مع أنه جزء من الجماعة؛ فما بالك إذا كان هو مرتكز التغيير والتحول، وصاحب السابقة، والتأييد، والإعزاز، والنصرة؛ فكيف سيكون الحال؟

إن المسألة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفطرة الإنسان في محبته للمال والعطاء؛ فلا

أحد يرضى أن يكون فقيراً أو معدوماً، والله قد أحل الغنائم لأمة محمد - ﷺ - ؛ فأي غضاضة أن يطلب الإنسان حظه منها؟ !

وهنا يأتي دور الإيمان واليقين والتسليم والاحتساب، يأتي دور المربي كي يبني بنيان الإسلام في قلب المتربي بكل ما يحمله من قِيَم ومبادئ ومعان سامية، حتى لا يبقي في قلبه سوى حب الله وحب الرسول - ﷺ - وما أعده الله للصابرين الذين باعوا الدنيا وما فيها، واشتروا بها جنة عرضها السموات والأرض، وهذا الذي فعله - ﷺ -؛ فقد أعلنها واضحة جلية: أن قضيتهم ليست مرتبطة بلُعاعة الدنيا وحقارتها، وإنما مرتبطة باتباع هديه، ونصرة دينه، وإعلاء كلمة الله؛ فليذهب الناس بالشاة والبعير، فليس هناك مشكلة؛ بل أعظم المصيبة والبلاء أن يذهب المرء ومعه حظوظ الدنيا، وهو خالي الوفاض من دينه، وتمسكه بما أمر ربه، والتزام ما نهى؛ فالتخليط ديدنه، والتلوُّن طريقته، والترخُّص عادته .

٤٣- الموعظة وليس الغلظة والفظاظة :

المتأمل لردة فعل النبي - ﷺ -، وبما خاطب الأنصار في الحظيرة يجد أنه استخدم بذكائه العظيم، وحسن سياسته للأمور، أسلوب الموعظة. لقد عرف - ﷺ - من هم الأنصار، وما هي نفسياتهم، وفيمَ يفكرون، وكيف يتعاملون؟! عرفهم في البأساء والضراء، عرف فيهم دماثة الأخلاق، والكرم الجم، والحب الكبير له - ﷺ -؛ فلماذا إذاً يعنِّفهم ويقسو عليهم؟ وهو القائل:

«ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه»[١]، وهو الذي قال عنه المولى- تبارك وتعالى - : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩.]

وما أحوج قادة العمل الدعوي إلى استخدام هذا الأسلوب الدعوي العظيم إذا اعوجَّ سلوك النخبة من تلامذتهم وأتباعهم! ماذا يضيرهم لو سلكوا هذا المنحى؟ قد يظن بعضهم أنه ربما ينقص من قدره ومكانته، بل العكس إنما هو رفعة له في قلوبهم، وازدياد معدل المحبة فيها .

لقد عاتب - ﷺ - أنصار دعوته ومحبيه ليدلل على محبته لهم، واهتمامه بحالهم وأوضاعهم، يعيش آلامهم، ويحس بجراحهم لتبقى المودة على الدوام .

أعاتب ذا المودة من صديق *** إذا ما رابني منه اجتنابُ
إذا ذهب العتاب فليس ود *** ويبقى الود ما بقي العتابُ

«فما ثَمَّ شيء أحسن من معاتبة الأحباب، ولا ألذ من مخاطبة ذوي الألباب»[٢] .

ومن هنا كان لزاماً على من تولى قيادة النفوس أن يتقن فن الوعظ وطرقه؛ لأنه سيحتاج إليه حتماً في مسيرته التربوية والدعوية؛ فالسآمة والملل وتكرار صور الحياة أمور يجب الخوف منها، ومدافعتها عن قلوب الأتباع؛ فها هو ابن مسعود يقول: «كان النبي - ﷺ - يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة

---

١) (رواه مسلم (١٨٢٨) من حديث عائشة

٢) (المستطرف في كل فن مستظرف، ٢٨٤)

السآمة علينا»[1].

ويحتج بعضهم أن القيادة مشغولة بمهام عدة، وربما ليس عندها وقت لتجلس مع أتباعها، وتُصلح ما فسد بينهم بسبب الشحناء والاختلاف. وهذا غير صحيح ومجانب لواقع النبي - ﷺ -؛ ألم يكن بمقدور النبي أن يغض الطرف عن ما بدَر من الأنصار ويذهب لمهامه العظام؟ أليس شغل النبي - ﷺ - في تلك الفترة أعظم من انشغالات قيادات اليوم؟ بلى! ولكن القضية هي لا مبالاة قاتلة بواقع الأتباع، يرتكبها القادة بقصد أو بغير قصد. والنتيجة سيئة للغاية ومعالمها بادية للعيان: وهَنٌ في واقع الأتباع، ضعف للهمم، ركون لمتع الدنيا الزائلة؛ ويأس وقنوط من تغيّر وعدم تغير الأوضاع .

لقد كان - ﷺ - يتخذ من الوعظ بشتى صوره وأساليبه سلاحاً نافعاً لتلك المعالم آنفة الذكر، حتى استطاع أن يخرج جيلاً يقوم بواجب تبليغ الرسالة للأمم حق القيام، وكذلك كان الخلفاء الراشدون والأئمة من بعده. أما اليوم فالأمر بخلاف ذلك، والله أعلم .

٤٤- التذكير بالفضائل لأجل المتابعة :

إن من الغُرم الكبير الذي يقع على القائد، والموجه، والمربي من تلامذته، وأتباعه نسيانهم لفضائله وأعماله ومناقبه؛ فكم بذل وضحى وقاسى! وكم سهر وتعب وآسى! وربما مرض لأجل تربيتهم والحفاظ عليهم من الأعداء والمتربصين بهم؛ فكم كان يخطط وينسق وينظم جداول الأعمال والآمال لأجل

---

١) (البخاري، الفتح ١/١٠١ واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٣

صنع مستقبل مشرق، وتاريخ مجيد لهم في خدمة أمة الإسلام، ورفع راية التوحيد !

تُنسى الفضائل والأعمال والمناقب، بمجرد أن يصبح الطويلب طالب علم، أو شيخاً، أو عَلَماً دعوياً .

وتُنسى عندما يصبح طالب حلقة التحفيظ حافظاً لكتاب الله وقارئاً للقرآن يحمل الإجازات والقراءات .

وتُنسى أيضاً عندما يخطئ القائد خطأً ما، ويفحش في خطأ ما؛ بأن يصر عليه، ويتعنت فيه لرؤية رآها، واجتهاد وصل إليه والتلامذة والأتباع يرون خلاف ذلك، وأن قائدهم قد جانب الصواب .

ولوازم هذا النسيان متنوعة؛ فإما أن يوصم القائد بالتشدد أو الحزبية أو ضعف الرؤية، ثم تأتي معاول الهدم لتضرب على جدار تاريخه: ماذا فعل؟ لقد أخر العمل، وميّع القضية، وركن إلى الدنيا وشهواتها الدنية، ثم ينقَّب في أخطائه وزلاته حتى تصبح في نظرهم كالجبال، والنتيجة على أحسن الأحوال مقاطعة لمحاضراته ودروسه، ويبقى السلام والزيارة في الأعياد والمناسبات. أما على أسوئها فهو مبتدع، ضال، منحرف، أشد على الإسلام من اليهود والنصارى، لو استطاعوا أن يقتلوه لقتلوه ورموه في عرض الطريق .

لقد كبرت عقول الصغار حتى نسوا الماضي التليد، وانشغل الكبار حتى نسوا أنهم في عجلة الزمن التي لا تتوقف لمتباطئٍ، أو غافلٍ، أو بليد .

فمن حق القائد أن يوضح أعماله وفضائله ومناقبه، حتى يكون له الغُنْم

وليس عليه الغرم، أو تعتدل كفة الميزان على الأقل .

ولعلنا نتذكر يوم دخلت الأحزاب على عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وأرادوا قتل أمير المؤمنين، وثالث الخلفاء الراشدين المهديين .

قال لزعمائهم: «أنشدكم الله! أتعلمان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قَدِم المدينة ضاق المسجد بأهله، فقال: «من يشتري هذه البقعة من خالص ماله فيكون فيها كالمسلمين، وله خيرٌ منها في الجنة؟ » فاشتريتها من مالي، فجعلتها بين المسلمين، وأنتم تمنعوني أن أصلي فيه ركعتين، ثم قال: أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قدم المدينة لم يكن فيها بئر يستعذب منه إلا بئر رومة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «من يشتريها من خالص ماله فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين وله خيرٌ منها في الجنة؟ » فاشتريتها من خالص مالي وأنتم تمنعوني أن أشرب منها. ثم قال: هل تعلمون أني صاحب جيش العسرة؟ قالوا: اللهم نعم! [1].

لم يكن تصرف عثمان - رضي الله عنه - يخدش مقام الإخلاص في قلبه، وإنما كان مجرد وسيلة لاستمالة قلوب أولئك الأجلاف الأخلاط من الناس، لكنها لم تنفع؛ ولذا فإن استمالة القلوب تكون أحياناً لا فائدة فيها عندما تقابل قلوباً أقسى من الحجارة، ناكرة للجميل، ومتناسية للأيام الخوالي، والزمن الطويل، فلم تترب التربية الإيمانية، ولم تصفُ سريرتها وأعمالها فتصبح نقية روحانية؛ ولذا فقد نفعت مع الأنصار حينما خاطبهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بخطاب رائع

(١)رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح. وانظر البداية والنهاية لابن كثير،(٧/١٩١)

وموجز، لكنه غني: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ »[(١)].

ولعلنا نتساءل: هل كان رسول الله - ﷺ - بحاجة إلى أن يوضح للأنصار ما عمل لهم؟ أو يخبرهم بحالهم، وكيف انتقلوا من حال الضعف إلى حال القوة بمجيئه - ﷺ - إليهم؟ هل كان بحاجة إلى كل هذا؛ وقد قضى معهم ثماني سنوات، كانت كفيلة بأن ترسخ تلك الحقائق في أذهان الأنصار؟

يجاب عن هذه التساؤلات بأن الإنسان ما سُمّي إنساناً إلا لنسيه، كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - [(٢)].

وقد قال القائل :

وما سمي الإنسان إلا لنسيهِ *** وما القلبُ إلا أنه يتقلب

فالأنصار بشر يعرض لهم ما يعرض للبشر من النسيان، والسهو والغفلة، وهُمْ من المؤمنين الذين أمر الله نبيهم أن يذكرهم ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] ؛ فلما ذكَّرهم نفعتهم الذكرى، واعترفوا بصدق ما قال؛ لأنهم يحملون قلوباً أرقّ من النسيم، ما أن تسمع الحق حتى وتباشره بالخشوع والبكاء؛ فليت لنا قلوباً مثل قلوبهم أو حتى نصفها .

أما الجانب الآخر من الاعتراف بالفضل: فهو اعتراف القائد بفضل أهل السبق ومكانتهم، وهذه قضية غفل عنها كثيرٌ من قيادات العمل الدعوي

---

١) (البخاري، الفتح ٧/ ٤٣٣٠، ومسلم (١٠٦١) من رواية عبد الله بن زيد بن عاصم - رضي الله عنه

٢) لسان العرب: مادة (أنس)، ١/ ٢٣٢.

اليوم، فترى أحدهم تمر عليه السنون ولم يظهر ثناؤه لرجاله الذين ساندوه، ووقفوا إلى جانبه في الملمات والمهمات، وفي المصائب والنكبات؛ ألم يكن النبي - ﷺ - يقول عن أبي بكر: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر» .

.(١)

وعن أبي عبيدة: «أمين هذه الأمة»[٢]

والزبير: «إن لكل نبي حوارياً، وحواريِّي الزبير»[٣]! وها هو يقول للأنصار: «والله! لو شئتم لقلتم ـ فصدقتم وصدقتم ـ: جئتنا طريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وخائفاً فأمَّناك ومخذولاً فنصرناك»، وقال عنهم في آخر عمره: «أوصيكم بالأنصار؛ فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم؛ فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[٤]؛ فهل قيادات العمل الدعوي ـ يا ترى ـ قلَّبت صفحات سيرة المصطفى - ﷺ - وتأملت هذا الجانب؟

إن هذا التصرف من القائد له نتائج جميلة في نفوس النخبة الخُلَّص من الأتباع: فهو يبني بنيان الثقة في نفوسهم، ويكبر هو في عيونهم، ويرون أن كل ما قدموه لم يذهب هباءً منثوراً؛ فهو محفوظ في قلب قائدهم، ومرفوع ـ إن شاء الله ـ عند خالقهم وبارئهم. فلا يضرهم إن لم يحصّلوا ذهباً ولا فضة أو ديناراً

---

١)البخاري، الفتح ٧ (٣٦٥٤) من حديث أبي سعيد الخدري - ـ رضي الله عنه

٢)البخاري، الفتح ١٣ (٧٢٥٥) ومسلم (٢٤١٩) من حديث أنس بن مالك - ـ رضي الله عنه

٣) البخاري، الفتح ٦ (٢٩٩٧) واللفظ له، مسلم (٢٤١٥) من حديث جابر بن عبد الله - - رضي الله عنه

٤) البخاري، الفتح ٧ (٣٧٩٩)، مسلم (٢٥١٠) واللفظ له

أو درهماً؛ فكلمات القائد يخطّها الأتباع بماء الذهب؛ فتصبح أوسمة ونياشين تعلق في صدورهم، يتذكرونها في ذهابهم وإيابهم، وقبل منامهم، تشحذ فيهم همة الاستمرار على العمل، وتشعل في نفوسهم حماساً بالغاً لتحقيق الأمل .

فالإنسان مجبول على حب الثناء من الآخرين؛ وذلك لضعفه الفطري، حتى إذا تدرج في سلم الكمال، وارتقى في درجات القرب من الله الكبير المتعال، استوى عنده مدح الصديق المنوال، وذم العدو الحقود الغالّ .

٤٥- لا لإشاعة أخبار المشاكل :

جاء في رواية أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - : «فخرج سعد، فصرخ فيهم، فجمعهم في تلك الحظيرة، فجاء رجل من المهاجرين فأذن له فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، حتى لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه، فقال: يا رسول الله! قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار؛ حيث أمرتني أن أجمعهم، فخرج رسول الله فقام فيهم ...

هذا المقطع من الرواية يبين لنا دلالات مهمة، ينبغي التفطن والاهتمام بها :

منها: أنه إذا حدث إشكال معين في صفوف الأتباع؛ فمن الحكمة ضرورة محاصرة خبره؛ لكيلا يصل خبره بين الأتباع الآخرين الذين ليس لهم علاقة به، ولم يشاركوا فيه؛ إذ إن وصول الخبر إليهم مدعاة لتضييع الأوقات وهدر الأوقات؛ فيتفشى فيهم ما نهى عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من القيل والقال، وكثرة السؤال، وربما يعد عاملاً مساعداً في تفريق الجماعة، وبعث النعرات الخامدة في النفوس. ولقائل أن يسأل: ألم يدخل أحد من المهاجرين حظيرة الاجتماع؟

الجواب: نعم! ولكن قد بينت الرواية الأخرى عند الإمام أحمد من حديث أنس قال: «فجمعهم في قبة له، حتى فاضت فقال: فيكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، إلا ابن أختنا. قال: «ابن أخت القوم منهم»»[1].

ومنها: على القائد أن لا يحمّل بقية الأتباع تبعة أخطاء مجموعة معينة من الأفراد؛ ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فما ذنب من لم يعلم، ولم يكن مشاركاً، أو مؤيداً أن يتحمل تبعات ونتائج أخطاء الآخرين؟ أليس الجهل بالأمر عذراً كافياً لاستثنائهم؟ بلى! ولذا فقد دلت الروايات أن النبي - ﷺ - قد جمع حياً واحداً من الأنصار، ولم يجمع الأنصار كلهم .

ومنها: أن مشاركة الآخرين مدعاة أيضاً إلى أن تأخذ نفوس المخطئين العزة بالإثم والإصرار على الخطأ، ومحاولة تسويغ أخطائهم؛ بذكر مثالب القائد، سواء كان في نفسه وإدارته، أو حتى في أسرته؛ فيسمع الصغير والكبير بذلك، فتحدث له فتنة جديدة ستكون عوناً على انحرافه وخروجه من دائرة الطيبين .

ومنها: أن تصرف النبي - ﷺ - كان غاية في الحكمة، وقمة في الذكاء والحنكة، فلم يجلس مع أبي بكر وعمر، أو المهاجرين ليحكي لهم ما بدَر من الأنصار، حتى يؤكد صحة مذهبه وطريقته؛ فيقوى بذلك جانبه، ويحقق مآربه، كلاَّ! فهو القائد والمعلم، وأولئك تلاميذ فحسب، والتلميذ مهما بلغ فهو تلميذ يجب أن يحترم قائده وموجهه، ويصبر على تعنيفه وإساءته؛ ففي معارضته حرمان نفسه لخيره وفضائله وصدق القائل :

---

١) (انظر البداية والنهاية لابن كثير، ٧/ ١٩١)

اصبر على مر الجفا من معلم *** فإن رسوب العلم في نفراته

لقد انفرد - ﷺ - بهذا الحي من الأنصار لينصحهم ويربيهم على انفراد تام؛ ليؤكد لنا على أهمية النصح للمخصوص دون استماع غيره، سواء كان هذا المخصوص فرداً أو جماعة وصدق الشافعي حين قال :

تعهدْني بنصحك في انفرادٍ *** وجنبني النصيحة في الجماعهْ

فإن النصح بين الناس نوع *** من التوبيخ لا أرضى استماعهْ

فإن خالفتني وعصيت أمري *** فلا تغضب إذا لم تُعطَ طاعهْ

وقال مسعر بن كدام ـ - رحمه الله - ـ: «رحم الله من أهدى إليّ عيوبي في سر بيني وبينه؛ فإن النصيحة في الملأ تقريع»[1].

٤٦- التعميم لا التعيين :

لقد استخدم - ﷺ - لفظاً عاماً في مخاطبة الحضور، ولم يعين شخصاً بعينه، أو اثنين أو ثلاثة بأسمائهم مع أنه ـ والله أعلم ـ كان يعلم بالذين تكلموا؛ فالوحي لم يكن ليترك النبي - ﷺ- دون أن يخبره بمثل ذلك .

والمتأمل لسيرة النبي - ﷺ - وخطابه عند حلول المشكلات، أو حدوث الأخطاء من الصحابة يرى استخدامه لكلمات عامة: «ما بال أقوام، وما بال رجال»، وإليك نماذج من ذلك :

«ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله! إني أعلمهم بالله وأشدهم

---

١) .(الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٢٩٠)

له خشية»[1].

«ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتـزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

«ما بال رجال يـؤذونني في أهـلي، ويقولـون علـيهم غـير الحـق؟ والله! مـا علمت عليهم إلا خيراً. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خـيراً، ولا يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي»[3].

«يا معشر الأنصار! » خطاب له مدلولاته ومعانيه وقوة حضوره، وهو نداء يشعل في قلوب السامعين ذكرى اللحظات الحاسمة في بيعة العقبة الثانية، يـوم بايعوه على أن يضحوا بكل شيء؛ لأجل حمايته والذود عن دعوته .

إن استخدام القائد لأسلوب التعميم عند حل المشكلات له فوائـد مهمـة، ونتائج طيبة :

منها: أن الخطاب سيكون عامـاً ولـيس معينـاً ومحـدداً، وهـذا سـيؤدي إلى جعل الحضور كلهم في محل المسؤولية؛ فغير المـذنب سـيمقت هـذا التصرـف، ويعتقد أنه ربما يُقصد بذلك فيربأ بنفسه عنه، وأما المذنب فسيستهجن مـا قالـه

---

١) (البخاري، الفتح ٧٣٠١/١٣ ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة.

٢) البخاري، الفتح ٥٠٦٣/٩، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس.

٣) هذه قطعة من حديث عائشة قال الألباني ــ – رحمه الله – ــ: «أخرجها ابن هشام في السـيرة ٢/ ٢٢٠، ٢٢٢، وهي عند البخاري (٤٤٧/٧ ــ ٣٥)، ومسلم (٨/ ١١٣ ــ ١١٧) بنحو ما هنا». عن فقه السـيرة، للغـزالي، ص ٣١٦ .

وفعله، فيبدأ بإصلاح نفسه دون التعرض لأمور تجرح قائده وموجهه .

ومنها: أن أسلوب التعميم وعدم ذكر أسماء الأشخاص يحفظ للمذنب كرامته، ويصون عرضه وشخصيته، فلا تجرح، وأعظم الجرح عندما يذكر شخصه، أما إخوانه فيأتي الشيطان ليهمس في أذنه أن هذه إهانة لا يمكن السكوت عليها ولا غض الطرف عنها، وقد يؤدي به آخر المطاف إلى الخروج من دائرة الطيبين ليكون مع الأعداء والمتربصين .

إن ما وقع من الأنصار بعد قسمة غنائم هوازن، وتصرف النبي - ﷺ - تجاه ما قالوا يعدّ ـ في نظري ـ منهجاً ينبغي أن يتخذه القادة، والمربون، والموجهون، يسيرون وفق معطياته عندما تعترضهم المشاكل والخلافات في أوساط أتباعهم، وتلامذتهم. وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه .

٤٧- فضيلة الأنصار:

وقد ظهرت في تلك الغزوة فضيلة الأنصار، وأن الرسول - ﷺ - لم يمنعهم مما أعطاه غيرهم إلا لمزيد حبه لهم، ويكفيهم فخراً أنه - ﷺ - اعتبرهم منه بمثابة شعاره وجعل غيرهم دثاره، والشعار هو ما يلي الجلد من الثياب والدثار الذي فوقه، قال ابن حجر: "وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم منه، وأراد أيضاً أنهم بطانته وخاصته، وأنهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم".[1]

.

بل جعل ﷺ حبهم من الإيمان وبغضهم من علامات النفاق فقال: «آية

---

١)فتح الباري: (٨/٥٣)

الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار»[1]. ، وقال ﷺ : «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله»[2].

٤٨- استخدامه ﷺ أسلوبا جديدا في القتال:

استعمل النبي ﷺ في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل، وهذه الأسلحة هي:

* **المنجنيق**: فقد ثبت أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطائف، فعن مكحول رضي الله عنه أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف[3].

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وجهت إليه، فبحجارته تهدم الحصون والأبراج، وبقنابله تحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال[4].

* الدبابة: ومن أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول ﷺ لأول مرة في حصار الطائف: الدبابة؛ والدبابة على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يراد نقض جدار الحصن،

---

١) أخرجه البخاري (١٧)، (٣٧٨٤) من حديث أنس ١٣)

٢) .أخرجه البخاري (٣٧٨٣) ومسلم (٧٥) والترمذي (٣٩٠٠) من حديث البراء بن عازب .

(٣) أبو داود، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، ح(٣٥) مراسيل أبي داود، ص١٨٣.

(٤) انظر: المدرسة العسكرية الإسلامية، اللواء محمد فرج، ص٤٠٧.

بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزًا لهم من الرمي(١).

* الحسك الشائك: من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرسول ﷺ في حصاره لأهل الطائف: الحسك الشائك؛ وهو من وسائل الدفاع الثابتة، ويعمل من خشبتين تسمران على هيئة الصليب، حتى تتألف منهما أربع شعب مدببة، وإذا رمى في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل والمشاة، فتتعطل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال(٢).

وقد ذكر أصحاب المغازي والسير أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح في حصاره لأهل الطائف، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشائك حول حصن ثقيف(٣)، وفي هذا إشارة إلى قادة الأمة خصوصًا، والمسلمين عموما، ألا يعطلوا عقولهم وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النافع والجديد الذي يحقق للأمة مصلحة الدارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

٤٩- اختيار رسول الله ﷺ مكانًا مناسبًا عند القتال:

نزل الجيش في مكان مكشوف قريب من الحصن، وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام؛ فأصيب من جراء ذلك ناس كثيرون، وحينئذ عرض الحباب بن المنذر على الرسول ﷺ فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف، فقبل ﷺ هذه المشورة وكلف

(١) انظر: القيادة في عهد الرسول، ص٤٠٥.

(٢) انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام، اللواء عبد الرءوف عون، ص ١٩٥.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٢/٢١٤).

الحباب -لكونه من ذوي الخبرات الحربية الواسعة في هـذا المجـال- بالبحـث عن موقع ملائم لنزول الجند، فذهب ﷺ ثم حدد المكان المناسب، وعاد فأخبر النبي ﷺ بذلك، فأمر النبي ﷺ جيشه بالتحول إلى المكان الجديـد، وهـذا شـاهد عيان يحدثنا عما رأى؛ قال عمرو بن أمية الضـمري ﷺ: لقـد أطلـع علينـا مـن نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به عليم كأنه رجل جراد، وترسنا لهـم حتـى أصـيب ناس من المسلمين بجراحة، ودعا رسـول الله ﷺ الحبـاب فقـال: «انظـر مكانًـا مرتفعًا مستأخرًا عن القوم» فخـرج الحبـاب حتـى انتهـى إلى موضـع مسـجد الطائف[1] خـارج مـن القريـة، فجـاء إلى النبـي ﷺ فـأخبره، فـأمر النبـي ﷺ أن يتحولوا[2].

٥٠- استخدام الحرب النفسية والدعاية:

لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبـي ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثـم أوقف هذا العمل بعـد أثـره في معنويـاتهم وإضـعافه روح المقاومـة، وبعـد أن ناشدته ثقيف بالله والرحم أن يترك هذا العمـل، ووجـه النبـي ﷺ نـداء لعبيـد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسـلمين فهـو حـر، فخـرج ثلاثـة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي فأسـلموا، فـأعتقهم ولم يعـدهم إلى

---

(١) مسجد الطائف: هو المسجد المعروف الآن بمسجد ابن عباس.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (١/٤١٦).

ثقيف بعد إسلامهم[1].

٥١- مناداة الناس بمناقبهم شرف لهم:

يقول أهل السير: إذا خطبت قوما فاذكر مناقبهم ومحامدهم، وذكرهم بأيام الله، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: « يا بني عبد الله –قبيلة من قبائل العرب– إن الله أحسن اسم أبيكم فأحسنوا سيرتكم ».

فالرسول عليه الصلاة والسلام أمر العباس أن يقول: يا معشر الأنصار، ثم قال: يا أصحاب الشجرة، يناديهم بذاك اليوم المشهود، يا من أنزلت عليهم سورة البقرة، يناديهم بهذه المنقبة، فللمسلم أن يتحف إخوانه والقوم الذين يدعوهم بمناقبهم ومآثرهم ليكون أشد إقبالا لهم، وهذا من ذكر المناقب في مجال الدعوة إلى الله عز وجل.

٥٢- في أمور الحرب وسياسة القتال :

إنَّ على القائد أن لا يألو جهداً في معرفة قدرات العدو وخططه، وإمكاناته عن طريق بعث العيون ومن يستطلع له أخبار الأعداء، كما فعل رسول الله – ﷺ – لما بعث ابن أبي حدرد ليأتيه بخبر هوازن، قال الإمام ابن القيم عند حديث عن غزوة حنين: "وفيها من الفقه أن الإمام ينبغي عليه أن يبعث العيون، ومن يدخل بين عدوه ليأتيه بخبرهم". [2].

والحق أن الرسول – ﷺ – كان يسعى في كل غزواته لجمع أكبر قدر من

---

(١)انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥١٠).

٢) زاد المعاد: (٣/٤٧٩)

المعلومات عن العدو قبل الاشتباك معه في القتال، كما فعل في هذه الغزوة، وكما في بعثه حذيفة بن اليمان يوم الخندق ليأتيه بخبر المشركين. [١]، وكذلك استجوب ﷺ يوم بدر غلاماً لعقبة بن أبي معيط كان المسلمون قد أمسكوا به قبل غزوة بدر، وكان مما سأله عنه عدد ما ينحرون من الجزر، فلما أخبره أنهم يذبحون في كل يوم عشراً، قال: "القوم ألف، كل جزور لمئة وتبعها."[٢].

وفي هذه الغزوة أيضاً أن الإمام كما يقول ابن القيم: "إذا سمع بقصد عدوه له وفي جيشه قوة ومنعة، لا يقعد ينتظرهم بل يسير إليهم، كما سار رسول الله - ﷺ - إلى هوازن حتى لقيهم بحنين"[٣].

وفي هذا بيان أهمية الأخذ بزمام المبادرة، وأن أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم كما يقول المعاصرون، وقد رأينا في حرب عام ١٩٦٧، أن من أسباب هزيمة العرب التزام قادتهم بأن لا يكونوا البادئين بالقتال، مع علمهم بأن اليهود سيهاجمونهم.

٥٣- ضرب الأمثال:

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يضرب الأمثال للناس ومثاله قوله ﷺ: « الآن حمي الوطيس » وهو أول من تمثل به كما قال أهل السير، وكان عليه الصلاة والسلام يضرب الأمثال للناس كما ذكر سبحانه وتعالى أمثالا في

١) أخرجه مسلم (١٧٨٨) من حديث حذيفة ١٦.

٢) أخرجه أحمد: (١١٧/١) من حديث علي بن أبي طالب، وسنده صحيح كما في تعليق الألباني على فقه السيرة ص: (٢٣٧)

٣) .(زاد المعاد: (٤٧٩/٣)

القرآن يضربها في العقيدة والعبادة والسلوك.

{ جاء رجل أعرابي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: أعطني من مال الله الذي عندك لا من مال أبيك ولا من مال أمك، فقام الصحابة عليه، فأسكتهم ﷺ ثم أعطاه، فلما انتهى من إعطائه، قال: **هل أحسنت إليك**؟ قال: نعم أحسنت وأجملت جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا، فذهب أمام الصحابة، فقال: هل أحسنت إليك؟ قال: لا، فأرادوا أن يهموا به فعاد ﷺ فزاده فدعا له الأعرابي، فقال: أخبر أصحابي بهذا ليزول ما في نفوسهم، فقال هذا أمامهم.

فقال عليه الصلاة والسلام: **أتدرون ما مثلي ومثلكم ومثل هذا الإعرابي؟**

قالوا: لا، قال: مثلنا كرجل كانت عنده دابة فرت منه فأخذ الناس يلاحقونها فما زادوها إلا فرارا.

فقال: « **يا أيها الناس دعوني ودابتي، فأخذ شيئا من خشاش الأرض -أي: من خضرة الأرض- فلوح لها به فأقبلت إليه حتى قادها، فلو تركتكم وهذا الإعرابي لفر ثم ارتد ثم دخل النار** ».

٥٤- لله حكم:

اقتضت حكمته - سبحانه - أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة، مع كثرة عددهم وعُددهم وقوة شوكتهم، ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله واضعاً رأسه منحنياً على فرسه، حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعاً لربه وخضوعاً لعظمته واستكانة لعزته، أن أحل له حرمه وبلده ولم يحل لأحد قبله، ولا لأحد

بعده... فلما انكسرت قلوبهم أُرسِلت إليها خِلعُ الجبر، مع بريد النصر، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وقد اقتضت حكمته أن خِلع النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾...

٥٥- عدم جواز قتل النساء والصبيان وغيرهم من الضعفاء:

فقد مر أن رسول الله ﷺ ، لما رأى امرأة مقتولة استنكر ذلك، وقال: ما كانت هذه لتقاتل ثم بعث من يطلب من خالد بن الوليد أن لا يقتل امرأة ولا عسيفاً، والعسيف: الأجير، وهذا مما يبين عظمة هذا الدين وسمو تشريعاته في أمور الحروب وغيرها، وأن مشروعية القتال في الإسلام، إنما جاءت لغايات سامية، غير ما تعارف عليه الناس في حروبهم القديمة والحديثة، فلما كان الأصل في النساء الضعف، وأنهن لسن من أهل القتال، فقد نهى ﷺ عن قتلهن، وفي الحديث بيان أن عدم كون المرأة من أهل القتال هو علة النهي عن قتلها؛ لأنه – ﷺ- وصف المرأة بأنها ليست من أهل القتال ثم رتب على ذلك النهي عن قتل النساء، "وترتيب الحكم على الوصف يدل على عِلِّيَة ذلك الوصف وعدم علية غيره"[1].

ومعنى ذلك أنها إذا شاركت في القتال قوتلت وقُتلت، سواء كانت

---

١) الذخيرة للقرافي: (٣/٣٨٧)

مشاركتها حقيقةً بالقتال الفعلي، أو حكماً كتحريضها قومها على القتال، أو مشاركتهم الرأي، ونحو ذلك .

قال الخطابي: "فيه دليل على أن المرأة إذا قاتلت قتلت؛ ألا ترى أنه جعل العلة في تحريم قتلها أنها لا تقاتل، فإذا قاتلت دل على جواز قتلها"[١].

وفي قتل دريد بن الصمة، وعدم إنكار النبي - ﷺ - ذلك دليل على جواز قتل شيوخ المشركين، إذا كان فيهم منفعة للكفار كرأي أو مشورة ونحوه، فإن دريد ابن الصمة كان حين قتل ابن عشرين ومئة سنة، وقيل ابن ستين ومئة سنة [٢].

وقد جاء في الحديث أن رسول الله - ﷺ - كان إذا بعث جيشاً قال«انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً. .. »[٣].

لكن جاء في حديث سمرة بن جندب مرفوعاً: "اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شرخهم"[٤].

وفي كلا الحديثين كلام، غير أنهما إن صحا فيمكن الجمع بينهما كما قال الشوكاني: "بأن الشيخ المنهي عن قتله في الحديث الأول هو الفاني الذي لم يبق فيه نفع للكفار، ولا مضرة على المسلمين، وقد وقع التصريح بهذا الوصف بقوله شيخاً فانياً، والشيخ المأمور بقتله في الحديث الثاني هو ما بقي فيه نفع

١) المصدر السابق

٢) فتح الباري: (٨/٤٢)

٣) أخرجه أبو داود (٢٦١٤) من حديث أنس.

٤) أخرجه أبو داود (٢٦٧٠) والترمذي (١٥٣٨)

للكفار ولو بالرأي كما في دريد بن الصِّمة" [1] .

٥٦- الإلحاح في الدعاء وقت الأزمات:

يقول جل ذكره: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الأنفال:٤٥]،قال ابن القيم : "سئل شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله لماذا ذكر الله الدعاء والذكر وقت الأزمات ووقت التحام الصفوف؟

قال ابن تيمية : من عادات العرب والناس ذكر محبوبيهم وقت الأزمات؛ فأراد الله أن يخبرهم أن أحب محبوب عندهم هو الله، فليذكروه في تلك الأزمة أو الضائقة، ثم قال ابن تيمية أما سمعت قول عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فذكرها في تلك اللحظة، فالمؤمنون ذكرهم الله أن يذكروه وقت الأزمات، وأحسن الدعاء ما سر صاحبه إليه، وهو وقت الضائقة التي تحل به لأنه يخلص في الدعاء ويلتجئ إلى الحي القيوم، فالرسول عليه الصلاة والسلام لما رأى الكتائب قال: « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك الذي وعدتني ».

٥٧- جواز العارية :

وهي إباحة الانتفاع بعين من أعيان المال، وقد وقع الإجماع على جوازها، بل على استحبابها بين المسلمين، ويجب رد العارية إن كانت باقية بلا خلاف، أما إذا تلفت فهل يجب على المستعير ضمان قيمتها وإن لم يتعد؟ وقع

---

١) نيل الأوطار: (٢٦٢/٧)

الخلاف في ذلك فذهب أحمد والشافعي إلى وجوب الضمان سواء تعدى المستعير أم لا، وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنها أمانة لا يجب ضمانها إلا بالتعدي فإن ثبت إهمال من المستعير ضُمن، وإلا فلا شيء عليه.[1]

ومأخذ المسألة أن قوله – ﷺ – لصفوان: "**بل عارية مضمونة**"، هل قصد به أنها مضمونة بالرد أي أنه ضامن ردها إلا إذا تلفت عن غير تقصير منه، أو قصد به أنها مضمونة بالتلف أي أنه ضامن إياها وإن تلفت بتقصير أو بغير تقصير؟، والنص يحتمل الأمرين، وقد رجح ابن القيم أنه أظهر في ضمان الرد أي كقول أبي حنيفة ومالك.[2]

٥٨- مشروعية الدعاء للكافرين بالهداية:

وقد استُدل لذلك بما في سيرة ابن هشام أنه قد قال رجل للرسول – ﷺ – يوم ظعن عن ثقيف: يا رسول الله ادع عليهم، فقال: «**اللهم اهد ثقيفاً، وائت بهم**»[3].

غير أن في ثبوت هذا الحديث نظراً، وقد حكم الشيخ الألباني بضعفه لأنه من رواية أبي الزبير عن جابر، والزبير مدلس وقد عنعنه، وقد تابعه عبد الرحمن بن سابط كما في رواية أحمد، ولكنه لم يسمع من جابر، كما قال يحيى بن

---

١) انظر المغني لابن قدامة (٥/٣٥٤)

٢) (راجع زاد المعاد: (٣/٤٨٢)

٣) الحديث في سيرة ابن هشام (٣/١٣٠) بدون إسناد، وأخرجه أحمد (٣/٣٤٣) والترمذي (٣٩٤٢) من حديث جابر بن عبد الله.

معين.[١].

لكن مشروعية الدعاء للمشركين بالهداية والصلاح ثابتة بالسنة الصحيحة؛ فقد صح أنه لما قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي - ﷺ - ، قالوا: يا رسول الله إن دوساً عصت وأبت، فادع الله عليها، فقيل هلكت دوس، فقال: «اللهم اهد دوساً وائت بهم»[٢].

والذي ينبغي التنبيه عليه أنه مع جواز الدعاء للمشركين يجوز الدعاء عليهم أيضاً، بحسب الحال وما يقتضيه المقام، وقد صح أنه - ﷺ - قد دعا يوم الخندق على المشركين فقال: «ملأ الله بيوتهم وقلوبهم ناراً؛ شغلونا عن الصلاة الوسطى، حتى غابت الشمس» [٣]، وفي الصحيح أيضاً: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم سنين كسني يوسف». [٤].

٥٩- استشهاد أبي عامر الأشعري:

استشهاد أبي عامر الأشعري في أوطاس فإنه حضر المعركة ﷺ وأرضاه وضربه مشرك في ركبته بعد أن قتل تسعة من أبطال المشركين، ووقف له العاشر فضربه في ركبته فخرج منها الماء فمات، فقال لابن أخيه أبي موسى: اذهب إلى رسول ﷺ وبلغه مني السلام وقل له: يدعو لي.

---

١) (انظر تعليق الألباني على فقه السيرة للغزالي (ص: ٤٣٢)، وانظر أيضاً كتابه دفاع عن الحديث النبوي والسيرة والرد على جهالات الدكتور البوطي (ص: ٧)

٢) أخرجه البخاري (٢٩٣٧) ومسلم (٢٥٢٤) من حديث أبي هريرة

٣) أخرجه البخاري (٢٩٣١) ومسلم (٦٢٧) من حديث علي.

٤) (أخرجه البخاري (٢٩٣٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

قال أبو موسى : فأتيت إلى رسول الله ﷺ فوجدته في غرفة ضيقة قد أثر الحصير في جنبه، فقلت: يا رسول الله! قتل عمي أبو عامر الأشعري وهو يبلغك السلام ويقول: ادع له.

فقام عليه الصلاة والسلام إلى ماء فتوضأ ثم استقبل القبلة، فقال: «**اللهم اغفر لعبدك أبي عامر ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم اجعله من ساكني الجنة، وارفعه على كثير ممن خلقت وفضله عليهم تفضيلا**»، قال أبو موسى : فلما سمعت هذا الدعاء وقفت بجانبه ﷺ فقلت: وأنا يا رسول الله، لأنها فرصة لا تتعوض.

فقال ﷺ وهو يتبسم رافعا يديه إلى القبلة: « **واغفر لـ أبي موسى وأكرم نزله ووسع مدخله**».

فكان الرسول والمرسل ظافرين بدعاء الرسول عليه الصلاة والسلام.

٦٠- جواز عقر مركوب العدو إذا كان عونا على قتله :

وفي الغزوة جواز عقر فرس العدو ومركوبه إذا كان ذلك عونا على قتله كما عقر علي - رضي الله عنه - جمل حامل راية الكفار وليس هذا من تعذيب الحيوان المنهي عنه .

فوائد تربوية:

٦١- البناء العقدي والتربوي:

من الفوائد التربوية التي نتعلمها من غزوة حنين، ويحتاج العاملون لدين الله إلى تدبرها والوقوف عنده طويلاً: قضية الاهتمام بالبناء العقدي والتربوي

لمن يُهيئون كي يكونوا جنداً لهذا الدين، وأنه لا يصح الاهتمام بالكم على حساب الكيف، وأن الذين تنصر بهم الدعوات هم الصفوة العارفون بما ينبغي عليهم فعله، وأن الكثرة "تكون أحياناً سبباً في الهزيمة لأن بعض الداخلين فيها التائهين في غمارها.. تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله.. لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة لا بالزبد الذي يذهب جفاء ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح"(١).

٦٢- معاملة كل فرد بما يصلحه:

في إجزاله - ﷺ - العطاء للمؤلفة قلوبهم من غنائم حنين، وعدم إعطائه الأنصار، بيان ما كان عليه النبي - ﷺ- من الحكمة والقدرة على معاملة كل فرد بما يصلحه، وهو ما يعرف عند التربويين المعاصرين بمراعاة الفروق الفردية، فلئن كان نصيب الأنصار أن يرجعوا إلى ديارهم برسول الله - ﷺ - فإن ذلك كان نعمة من نعم الله عليهم، بينما أرضى - ﷺ - من لم يعرف قدر هذه النعمة بالشاة والبعير، كما يعطى الصغير ما يناسب عقله ومعرفته، ويعطي العاقل اللبيب ما يناسبه؛ وقد كان ذلك من منهجه في تغيير النفوس واستمالتها إلى الحق، فإنه كان يعلم أن من الناس ناساً لا يحملهم على الإيمان إلا أن يشعروا بأنهم يحققون من ورائه بعض المغانم، فكان يعطيهم تأليفاً لقلوبهم على الإيمان، وهذا ما حدث بالفعل فلقد كان الرجل - كما قال أنس

١) في ظلال القرآن: (١٦١٨/٣)

بن مالك - "ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها"(١).

وقال صفوان بن أمية: "والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ "(٢).

وإن هذه السياسة النبوية الحكيمة قد أثمرت ثمارها الطيبة؛ فإنه لم يمض إلا وقت يسير حتى "رغب غالبية هؤلاء المؤلفة قلوبهم في الإسلام وحسن إسلامهم وانخرطوا في الجهاد إلا القليل جداً منهم"(٣).

٦٣- المال لله يضعه حيث يشاء:

ومن المعاني التربوية التي أراد النبي - ﷺ - أن يرسخها في أذهان أصحابه وفي أذهاننا من بعدهم، أن المال كله لله يضعه حيث يشاء، وأنه ليس معنى أن يحرز المسلمون غنيمة أنه لا يجوز للرسول - ﷺ - أن يتصرف فيها بحسب ما يوحي إليه ربه، قال الإمام ابن القيم: "ولله - سبحانه - أن يقسم الغنائم كما يحب، وله أن يمنعها الغانمين جملة كما منعهم غنائم مكة، وقد أوجفوا عليها بخيلهم وركابهم، وله أن يسلط عليها ناراً من السماء تأكلها، وهو في ذلك كله أعدل العادلين وأحكم الحاكمين... وليس هو - سبحانه - تحت حجر

---

١) .(أخرجه مسلم (٢٣١٢)، هذا وقد وهم الدكتور مهدي رزق الله في كتابه السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص: ٥٩٨، فنسب هذا القول للإمام مالك - رحمه الله.-

٢) أخرجه مسلم (٢٣١٣) والترمذي (٦٦٦)

٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص: ٥٩٨)

أحد من خلقه"[١].

بل ذكر الإمام ابن القيم أن ذلك ليس خاصاً بالنبي - ﷺ - ، وأنه إذا اقتضت مصلحة المسلمين أن يدفع الإمام الغنائم أو بعضها إلى قوم من الكافرين ليتألفهم، فلا بأس بذلك "فإنه وإن كان في الحرمان مفسدة، فالمفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما" [٢].

والى هنا أكتفي وأسأل الله عز وجل بمنه وكرمه أن ينفعنا بها نكتب ونقرأ، و يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

١) زاد المعاد: (٤٨٥/٣)

٢ المصدر السابق: (٤٨٦/٣)

الحمد لله القوي الجبار، المتين القهار، والصلاة والسلام على سيِّد الأنبياء الأخيار، وعلى آله وصحبه الأطهار، ومن تبعهم من الصالحين الأبرار،

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء:١].

وبعد ..

فإن الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ حديثُ تحبُّه النفوس المؤمنة، وتأنس به قلوب بالإيمان مطمئنَّة، فحبه في شغاف الأفئدة مغروس، وتوقيره مشربة به النفوس، بأبي هو وأمي ﷺ .

إن سيرة النبي قبل أن تكون علماً يُدرس هي موضوع شيق محبب إلى النفوس، وما ذلك إلا لأنَّ النبي ﷺ هو أحب الخلق إلى قلوب المؤمنين، فكلما قرأ المؤمن شيئاً من سيرته ازداد له حبًا وشوقًا إلى رؤيته ولقائه، فهو أجود الناس وأشجعهم وأحلمهم وأجملهم، ولا شك أن في مغازي النبي ﷺ من

الفوائد والعبر وترقيق القلوب وربطها بالله تعالى ما لا يوجد إلا في القرآن الكريم. إلا أن الملاحظ أن أكثر الناس أعرضوا عن دراسة سيرته ومغازيه، كما أعرضوا عن القرآن وهجروه، ولهذا السبب زادت الغفلة بين المسلمين وقلَّت محبة الله ومحبة رسوله في قلوب الناس، حتى ظهر ذلك جلياً في ترك الانصياع لأوامر الله وفي الإعراض عن سنة المصطفى .

ونحن اليوم في أمسِّ الحاجة إلى تعليم أبنائنا ونسائنا بل وأنفسنا سيرة النبي ﷺ ، عوضاً عمّا يُحشى في أدمغتنا من تقديس للكرة وتقدير للفن الهابط وكل ما يُسخط الله ولا يرضيه، ولو أن أحدنا سُئل عن مقدار محبته للنبي ﷺ لعجز عن وصف مشاعره، ولكن تهافته على الدنيا وتعامله بالربا وأكله أموال الناس بالباطل وتهاونه في الصلاة وعدم اهتمامه بدين أبنائه وبناته وتهاونه في حدود الله كل ذلك يكذب زعمه محبة النبي ، وإنه من المؤسف أن ترى جهل الناس بسيرة نبيهم وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم إلا من رحم الله.

يوم يُقلِّب المرء صفحات الماضي المجيد، ويتدبر القرآن الكريم، ثم ينظر لواقعنا ويقارنه بذلك الماضي، يتحسر يوم يجد البون شاسعا والفرق عظيما، يتحسر يوم يرى تلك الأمة التي كانت قائدة، وقد أصبحت تابعة حينما ابتعدت عن شرع ربها ونهج نبيها، فعودا والعود أحمد، عوداً سريعاً إلى الماضي المجيد، لنستلهم منه الدروس والعبر في هذا الحاضر العاثر، عودا لسيرة من لم يطرق العالم دعوة كدعوته، ولم يؤرخ التاريخ عن مصلح أعظم منه، ولم تسمع أذن عن داعية أكرم منه، وما أحرانا ونحن في الأيام العصيبة أن تتجاوز المدة

الزمنية كي نعيش يوما من أيام محمد ، لنأخذ العبر والدروس .

ومن هذا الباب لا زلنا وإياكم في هذه الموسوعة المباركة بإذن الله:

(**غزوات النبي المصطفى دروس وعبر**).ومع (غزوة تبوك دروس وعبر)

وأسال الله الكريم الوهاب العزيز التواب أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه إنه ولي ذلك والقادر عليه .

غزوة تبوك:

التي كان سببها هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد؛ ولـذلك عـزم رسـول الله ﷺ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحـق لقربهم إلى الإسلام وأهله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]. (١)

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هـو عـزم الـروم عـلى غـزو المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزًا للخروج إليهم، لأن أصل الخروج كان واردًا.

غزوة تبوك: هي الغزوة التي خرج رسول الله ﷺ لها في رجـب مـن العام التاسع الهجري(٢) بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر(٣).

غزوة تبوك:

اشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكان هـو عـين تبـوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم،

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/٥).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٤/٥٤٠- ٥٤٢)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٤.
(٣) انظر: فتح الباري (١٦/٢٣٧).

فقد روي بسنده إلى معاذ أن رسول الله ﷺ قال: «ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي»[١].

❁غزوة تبوك :

لقد سُميت أيضاً غزوة العسرة لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًّا لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه[٢].

❁غزوة تبوك:

لها اسم ثالث هو: الفاضحة، ذكره الزرقاني –رحمه الله– في كتابه «شرح المواهب اللدنية»[٣] وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين[٤].

❁غزوة تبوك:

نقف مع هذه الغزوة في مثل هذا الزمن الذي تشابكت بأمة الإسلام حلقات من المحن، وتقاذفتها أمواج من الفتن، وصيح بهم من كلّ جانب وتداعى عليهم الأكلة، يجمُل الحديث عن هذه الغزوة في مثل هذه الأوضاع

---

(١) صحيح مسلم (١٧٨٤/٤) رقم ٧٠٦.
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، ص٨٣.
(٣) انظر: شرح المواهب اللدنية (٦٢/٣).
(٤)انظر: الصرع مع الصليبيين، ص٨٤

العالمية المتلاحقة التي تكرّس لدى المسلمين جميعًا كل يوم أن رزق هـذه الأمـة وعزها تحت ظل رمحها وجهادها، وذلتها وصـغارها في تركهـا لجهـاد أعـدائها وإخلادها لشهواتها ودنياها.

❁ غزوة تبوك:

التي من رسائلها أنَّ الله كتب العزة والقوة لهذه الأمة، متى مـا صـدقت وأخلصت، فها هي دولة الإسلام الناشئة تقف في وجه الكفر كله بقواه الماديـة فتهزمه وتنصره عليه﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾[الحج:٤٠].

❁ غزوة تبوك:

التي من دروسها العظيمة أن تمكُّـن العقيـدة في قلـوب رجـال الإسـلام أقوى من كل سلاح وعتاد، وقضى الله أن الأمة متى مـا حـادث عـن عقيـدتها وتعلقت بغيرها، إلا تقلبت في ثنايـا الإهانـات والنكبـات والنكسـات، حتـى ترجع إلى كتاب ربها وسنة نبيها.

❁ غزوة تبوك:

مـن دروسـها أن العـدو مـا تسـلل إلا مـن خـلال صـفوف المنـافقين والمرجفين، ولم يكن الضعف والتفرقـة في هـذه الأمـة إلا مـن قبـل أصـحاب المسالك الملتوية والقلوب السوداء،﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة:٤٧].

❁ غزوة تبوك:

إنها الغزوة التي متى ذُكِرت ذُكِر معهـا ذلكـم الحـدث العظـيم، الـذي

عاشته المدينة وتقلبت مع أحداثه خمسين ليلة، إنه خبر الثلاثة الذين خُلفوا، كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، ولا يصف الحادثة كمَن رآها وشاهدها وسمع أحداثها بل عاشها، وتجرع آلامها وأحزانها.

١- ليميز الله الخبيث من الطيب:

لقد كانت دعوة الرسول ﷺ للتأهب في وقت عسر وحر وموسم لجني الثمار، فأما المؤمنون الصادقون ،فقد سارعوا إلى تلبيتهم للرسول غير عابئين بمشقة ولا حرمان، وأما المنافقون، فقد تخلفوا ، واخذوا يعتذرون بشتى الأعذار، وهكذا يتبين المخلصون من المنافقين في أيام الشدائد ، وينكشف أمر الأدعياء في أيام الشدائد ، وينكشف أمر الأدعياء في أيام المحن ، وقد قال الله تعالى : ﴿ آلم . أحَسِبَ النَّاسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾[العنكبوت: ١-٢]

وإنما تقوم الدعوات ، و تنهض الأمم بتطوير صفوفها من المنافقين والمخادعين ولا يثبت للشدة إلا كل صادقة العزيمة ، مخلص النية ، ثابت المبدأ ، كثيراً ما عوق الضعاف والمخادعون سير دعوات الإصلاح في الأمة ، وحالوا بينها وبين النصر ، أو أخروها ولو إلى حين ، ولقد تخلص جيش العسرة في غزوة تبوك من أمثال هؤلاء بفضل افتضاح أمرهم ، وانكشاف ضعف إيمانهم ، وخور عزائمهم ، وإن جيشاً متراض الصف ، متحد الكلمة ، قوي الإيمان ، صادق العهد ، أجدى للأمة - ولو كان قليل العدد - وأدعى لاكتساب النصر من جيش كثير العدد ، متفاوت الفكرة والقوة والثبات ﴿ كم مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[البقرة:٢٤٩]

٢- الإيمان يصنع العجائب:

إن في مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلا على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير، ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها، مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين في نفوس الناس غرسًا كريمًا(١).

وهذا ما نجد أمتنا اليوم اشد الحاجة إليه ، فالأعداء كثر ، والأعباء ثقيلة ، والمعركة رهيبة ،والعدو قوي ماكر ، فلا نستطيع التغلب عليه إلا بمزيد من التضحيات في الأموال والأنفس والأهواء والشهوات ولا يحق ذلك إلا الدين الصحيح المفهوم على حقيقته الذي يربي النفوس على احتساب الأنفاق والتعب في سبيل الأمة جهاداً يثيب الله عليه كما يثب المجاهدين في ميادين النضال.

وفي قصة الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون أن يأخذهم معه إلى الجهاد ، فردهم لأنه لم يجد ما يحملهم عليه ، فولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً على حرمانهم من شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ ، في هذه القصة التي

(١) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، للسباعي، ص١٦١.

حكاها الله في كتابه أروع الأمثلة على صنع الإيمان للمعجزات ، فطبيعة الإنسان أن يفرح لنجاته من الإخطار ، وابتعاده عن الحروب ، ولكن هؤلاء المؤمنين الصادقين بكوا رغبة في الجهاد .

٣- أمة الجهاد:

من دروس هذه الغزوة أن هذه الأمة أمة جهاد ومجاهدة وصبر ومصابرة، وحتى ما تركت الجهاد ضربت عليها الذلة والمسكنة، ولذلك فقد رأينا حياة النبي ﷺ جهاداً في جهاد، فإذا فرغ من جهاد المشركين رجع إلى جهاد ومقاومة المنافقين ثم جهاد الروم.

٣. الإنفاق في هذه الغزوة وحرص المؤمنين على الجهاد:

حث رسول الله ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة لبعدها، وكثرة المشركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كل حسب مقدرته، وكان عثمان رضي الله عنه صاحب القِدْح المُعَلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة[١]، فهذا عبد الرحمن بن حباب يحدثنا عن نفقة عثمان حيث قال: شهدت النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله، عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ ثلاثمائة بعير

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٥.

بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه[١] وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فجعل النبي ﷺ يقبلها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم -يرددها مرارًا-»[٢].

وأما عمر فقد تصدق بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، وهذا الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدا[٣].

وروى أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنفق ألفي درهم وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة[٤].

وكانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة، كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي رضي الله عنهم[٥].

وهكذا يفهم المسلمون أن المال وسيلة، واستطاع أغنياء الصحابة أن يبرهنوا أن

---

(١) سنن الترمذي، مناقب (٥/٦٢٥، ٦٢٦) رقم ٣٧٠٠.
(٢) مسند أحمد (٥/٦٣).
(٣) سنن أبي داود، الزكاة (٢/٣١٢، ٣١٣) رقم ١٦٧٨.
(٤) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٦.
(٥) انظر: معين السيرة، ص٤٤٩.

ماهم في خدمة هذا الدين، يدفعونه عن طواعية ورغبة، وإن تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخ مشرف؛ لأن تاريخ المال في يد الرجال لا تاريخ الرجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنفس، فكذلك هو بالمال، وإن الذين ربوا على أن يقدموا أنفسهم، تهون عليهم أموالهم في سبيل الله تعالى.

رضي الله عن صحابة رسول الله وجزاهم الله خيرًا عن الأمة، وهم كما قال ابن القيم رحمه الله:

أولئك أتباع النبي وحزبه *** ولولاهم ما كان في الأرض مسلم

ولولاهم كادت تميد بأهلها *** ولكن رواسيها وأوتادها هم

ولولاهم كانت ظلامًا بأهلها *** ولكنهم فيها بدور وأنجم

مواقف مؤثرة وصور معبرة من البذل والعطاء والجهاد والفداء، كل هذا استجابة لنداء ربهم: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١]، وطمعًا في موعود نبيهم: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**».

والذي لا إله حق غيره، إن لفي ذلك عبرة أي عبرة، إنه متى صدق المسلمون مع ربهم ووحدوا صفهم وبذلوا وسعهم غنيهم وفقيرهم فإن الله ناصرهم وبالحق مؤيدهم.

وأين البخلاء بأموالهم والشحيحون بيسير أرزاقهم عن محبة رسول الله ﷺ ؟! ولكن: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾

[محمد:٣٨].

٤- الإخلاص وحب الجهاد:

قدَّم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء؛ ولذلك تعرَّضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين، فقد جاء أبو عقيل بنصف صاع تمر، وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوها قائلين: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾[١] [التوبة: ٧٩].

وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء، فكانوا يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء[٢].

لقد حزن الفقراء من المؤمنين؛ لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد، فهذا عُلَبة بن زيد أحد البكائين صلى من الليل وبكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في جسد أو عرض، فأخبره النبي ﷺ أنه قد غفر له[٣].

وفي هذه القصة وما جرى فيها آيات من الإخلاص وحب الجهاد لنصرة

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٦١٧.
(٣) وردت من طرق ضعيفة ولها شاهد صحيح وهي بالجملة تصلح للشاهد التاريخي، انظر: المجتمع المدني للعمري، ص٢٣٥.

دين الله وبث دعوته في الآفاق، وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنين الذين يعيشون في حياتهم عيشة عملية[١].

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدثنا عن قصته:... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي فأقبلت وقد خرج أول صحابة رسول الله فطفقت في المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه؟ فإذا شيخ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحمله[٢] عقبة، وطعامه معنا؟ فقلت: نعم، قال فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا[٣]، فأصابني قلائص[٤]، فسقتهن حتى أتيته فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات، ثم قال: سقهن مقبلات، فقال: ما أرى قلائصك إلا كرامًا، إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي فغير سهمك أردنا [٥].

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخروية، أجرًا وثوابًا يجده عند الله يوم لقائه، وتنازل الأنصاري عن قسم كبير من راحته ليتعاقب وواثلة على راحلته ويقدم له الطعام مقابل سهم آخر هو الأجر والثواب.

إنها مفاهيم تنبع من المجتمع الذي تربى على كتاب الله وسنة رسوله، لها

---

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (٤/٤٤٣).
(٢) عقبة: أي بالتعاقب.
(٣) كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سرية خالد بن الوليد في دومة الجندل.
(٤) قلائص: إبل.
(٥) انظر: جامع الأصول رقم ٦١٨٨، معين السيرة، ص٤٥٣.

نفس الخاصية في الإضاءة وتحمل نفس البريق، متمم بعضها لبعضها الآخر[1].

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري يطلبون من النبي ﷺ أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد، فلم يجد ما يحملهم عليه حتى مضى بعض الوقت فحصل لهم على ثلاثة من الإبل[2].

وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقًا للجهاد وتحرجًا من القعود حتى نزل فيهم قرآن: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إذا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إذا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١-٩٢].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد رسول الله، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباتهم، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيرهما يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين[3] وهم الذين عناهم رسول الله ﷺ عندما قال: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم

---

(١) انظر: معين السيرة، ص٤٥٣.
(٢) انظر: المجتمع المدني، ص٢٣٦.
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٨.

العذر»[١].

٥- جواز التصريح لجهة الغـزو إذا لم تقـتضِ المصـلحة ستره:

لقد استطاع رسول الله ﷺ أن يحشد ثلاثين ألـف مقاتـل[٢] مـن المهـاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى، ولقـد أعلـن رسـول الله ﷺ -على غير عادته في غزواته- هدفه ووجهته في القتال، إذ أعلن صراحة أنـه يريـد قتال بني الأصفر (الروم)، علما بأن هديه في معظم غزواتـه أن يـوري فيهـا[٣]، ولا يصرح بهدفه ووجهته وقصده، حفاظًا على سرية الحركة ومباغتة العدو.

وقد استدل بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التصريح لجهـة الغـزو إذا لم تقتضِ المصلحة ستره، وقد صرح ﷺ في هذه الغزوة -على غير العـادة- بالجهـة التي يريد غزوها وجلى هذا الأمر للمسلمين لأسباب، منها:

١. بعد المسافة، فقد كان رسول الله ﷺ يدرك أن السير إلى بلاد الـروم يعـد أمرًا صعبًا؛ لأن التحرك سيتم في منطقـة صـحراوية ممتـدة قليلـة المـاء والنبات، ولا بد - حينئذ- من إكمال المؤنة ووسائل النقل للمجاهدين قبل بدء الحركة؛ حتـى لا يـؤدي نقـص هـذه الأمـور إلى الإخفـاق في تحقيق الهدف المنشود.

٢. كثرة عدد الروم، بالإضافة إلى أن مـواجهتهم تتطلـب إعـدادًا خاصًّـا،

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٤٢٣.
(١، ٢، ٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص٩٧.

فهم عدو يختلف في طبيعته عن الأعداء الذين واجههم النبي ﷺ من قبل، فأسلحتهم كثيرة، ودرايتهم بالحرب كبيرة، وقدرتهم القتالية فائقة(١).

٣. شدة الزمان، وذلك لكي يقف كل امرئ على ظروفه، ويعد النفقة اللازمة له في هذا السفر الطويل لمن يعول وراءه(٢).

٤. أنه لم يعد مجال للكتمان في هذا الوقت، حيث لم يبق في جزيرة العرب قوة معادية لها خطرها تستدعي هذا الحشد الضخم سوى الرومان ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ودومة الجندل والعقبة(٣).

لقد شرع رسول الله ﷺ لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربية، ومراعاة المصلحة العامة في حالتي الكتمان والتصريح، ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال(٤).

ولما علم المسلمون بجهة الغزوة سارعوا إلى الخروج إليها، وحث الرسول ﷺ على النفقة قائلا: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»(٥).

٦- قصة أبي ذر الغفاري والعبر منها:

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل،

---

(١) انظر: الرسول القائد، ص٣٩٨.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٥/٤).

(٣) انظر: غزوة تبوك، محمد أحمد باشميل ص٥٧.

(٤) انظر: القيادة في عهد الرسول ﷺ، ص٥١٠.

(٥) البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عثمان (٤/٢٤٣).

فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره. فقال: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» وتلوَّم[١] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر»[٢] فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو -والله- أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[٣]، ومضى الزمان، وجاء عصر عثمان، ثم حدثت بعض الأمور وسُيِّر أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا مت فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر. فلما مات فعلوا به كذلك فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر، فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال:

صدق رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»، فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه[٤].

---

(١) تلوم على بعيره: تمهل.
(٢) كن أبا ذر: لفظه الأمر ومعناه الدعاء؛ أي أرجو الله أن تكون أبا ذر.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٧٨/٤).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٧٨/٤).

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١. ما تعرض له أبو ذر الغفاري ﷺ من الصعوبات والمخاطر التي نجاه الله منها وقواه بالصبر عليها، لقد بذل أبو ذر جهدًا كبيرًا في المشي على قدميه وهو يحمل متاعه على ظهره حتى لحق بالنبي ﷺ والمسلمين؛ لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله[١].

٢. وفي قوله ﷺ: «**رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده**»، دلالة واضحة -وضوح الشمس في رابعة النهار- على صدق نبوة الرسول ﷺ؛ إذ الإخبار بأمور لا تقع ثم تقع بعد الإخبار يدل على معجزة وتكريم من الله لهذا الرسول ﷺ، وهذه الوسيلة من إثبات النبوة كثيرة في السيرة النبوية الشريفة[٢].

٣. كما أن في القصة دلالة على علم ابن مسعود ﷺ وقوة ذاكرته وسرعة استحضاره لما حفظ، حيث تذكر بعد سنوات عديدة حديث رسول الله ﷺ عما سيئول إليه أمر أبي ذر في آخر حياته ﷺ[٣].

٧- قصة أبي خيثمة والدروس منها:

قال ابن إسحاق:... ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أيامًا إلى أهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[٤] قد رشت

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٢٩، التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/١١٤).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٢٩.
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١١٤).
(٤) حائطه: أي بستانه.

كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضح[1] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم؟! ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زادًا، ففعلتا ثم قدم ناضحه[2] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «**كن أبا خيثمة**»، فقالوا: يا رسول الله، هو -والله- أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**أولى لك[3] يا أبا خيثمة**»، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير[4].

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعرًا، واسمه مالك بن قيس:

لما رأيت الناس في الدين	أتيت التي كانت أعفَّ
وبايعت باليمنى يدي	فلم أكتسب إثما ولم أغش

---

(١) الضح: أي في الشمس.

(٢) ناضحه: أي جمله.

(٣) أجدر بك.

(٤) انظر: البداية والنهاية (٥/٨).

تركـــــت خضـــــيبا(١) في صـفايا كرامًـا يسرـها قـد

وكنـــت إذا شـــك المنـــافق إلى الدين نفسى شطره حيث

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١- المسلم صاحب ضمير حي:

فقد رأى أبو خيثمة ﷺ ما أعدت له زوجتاه مـن المـاء البـارد والطعـام مـع الظل المبرد والإقامة، فتذكر رسول الله ﷺ وما هو فيه مـن التعـرض للشـمس والريح والحر، فأبصر وتذكر وتيقظ ضـميره وحاسـب نفسـه، ثـم عـزم عـلى الخروج، وخرج وحده يقطع الفيـافي والقفـار حتـى التقـى بعمـير بـن وهـب الجمحي، ولعله كان قادما من مكة، فهذه الصورة تبـين لنـا مـثلا مـن سـلوك المتقين الذين تمر عليهم لحظات ضعف يعودون بعـدها أقـوى إيمانـا ممـا كـانوا عليه إذا تذكروا وراجعوا أنفسهم، وفي بيان ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقد تذكر سريعاً وخرج لعله يدرك مـا فاتـه، وظـل يشـعر بالـذنب حتـى وصل إلى النبي ﷺ في تبوك وحصل على رضاه وسروره .

٢- معرفة الرسول بأصحابه وبمعادنهم:

---

(١) خضيبا: مخضوبة وهي المرأة.

إن قول الرسول ﷺ حينما قال له أصحابه: هذا راكب على الطريق مقبل: «كن أبا خيثمة»، فلما اقترب وعرفوه قالوا: يا رسول الله، هو -والله- أبو خيثمة، يدل على معرفة رسول الله ﷺ بأصحابه وأنه أعرفهم بمعادن رجاله، يعرف المستجيب من غيره، ويعرف التائب المنيب إلى ربه إذ زلت قدمه بسرعة رجوعه، ومعرفة خصال الرجال ومعادنهم تدل على معرفة واسعة، وخبرة مستوعبة فاحصة نتيجة التعامل والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة، فقد كان يخالط الجميع، يسمع منهم ويسمعهم ويسيرون معه، ويجاهدون تحت رايته[1].

٣- حزم أبي خيثمة وصبره ونفاذ عزيمته:

تأمل هذا القرار الذي اتخذه أبو خيثمة رضي الله عنه أن يلحق برسول الله ﷺ وحده، في هذه الرحلة المضنية، في هذه الصحراء القليلة الماء ذات الحر اللافح، لقد اتخذ هذا القرار الحازم ونفذه بدقة، فدل على قوة عزيمته وعنفوان إرادته وعلى جلده وصبره[2].

٤- عتاب القائد للجندي له أثره:

وصل أبو خيثمة معترفاً بذنبه، يطرح السلاح على رسول الله ﷺ فعاتبه، ﷺ معاتبة تحمل في طياتها اللوم والتأنيب والتهديد، إذ قال له رسول الله ﷺ: «**أولى لك يا أبا خيثمة**» فهي كلمة فيها معنى التهديد، ومعناها: دنوت من الهلكة.

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣٣، ١٣٤.

إنه مما لا شك فيه أن هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجندي، إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذنب.

وهذا منهج نبوي كريم في تعليم القادة عدم السكوت على أخطاء الجنود؛ لأن ذلك يضرهم ويلحق الضرر بغيرهم، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ومحاسبة مرتكبه وتقويمه، وبذلك يكونون معلمين ومرشدين ومربين[١].

٨- الحق لا بد له من قوة :

ومن دروس هذه المعركة أن الحق لا بد له من قوة تحرسه وترهب أعداءه، لا يكفي حق بلا قوة.

دعا المصطفى دهرًا بِمكة لَمْ يُجَبْ...وقد لان منه جانب وخطاب

فلما دعا والسيف بالكف مسلّط...له أسلموا واستسلموا وأنابوا

٩- العقيدة أقوى سلاح:

ومن الدروس العظيمة من هذه الغزوة: أن تمكن العقيدة في قلوب رجال الإسلام أقوى من كل سلاح وعَتاد، وقضى الله أن الأمة متى ما غَفلَت عن عقيدتها وتعلَّقت بغيرها تقلَّبت في ثنايا الإهانات والنكبات والنكسات، حتى ترجع إلى كتاب ربها وسنة نبيها. والأمة اليوم بعيدة كل البعد عن العقيدة

(١)انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٣٤.

الصحيحة إلا من رحم الله.

فعلى الدعاة والمصلحين والمربين أن يركزوا في دعوتهم على مسألة التوحيد درسًا وشرحًا وعملاً وتطبيقًا، وأن لا يغتروا بغيرهم ممن يخالفهم في هذه المسألة، فلا صلاح ولا فلاح إلا إذا صحّت عقائد الناس واتضحت لهم معالم وأصول هذه العقيدة.

١٠- وصايا رسول الله ﷺ للجيش عند مروره بحجر ثمود:

قال أبو كبشة الأنصاري رضي الله عنه: لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس: «الصلاة جامعة» قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره، وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟» فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله، قال: «أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئًا، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا»(١). وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود، الحجر، واستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا

---

(١) انظر: الفتح الرباني (٢١/١٩٥).

الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة(١)وقال رسول الله ﷺ: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم**» ثم زجر(٢) فأسرع حتى خلفها(٣)، وهذا منهج نبوي كريم في توجيه رسول الله ﷺ صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين كذبوا رسوله، وألا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقا للتأثر بعذاب الله، ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوة، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نقمة الله وغضبه.

إن الله عز وجل ما قص علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التي نزل فيها سخط المولى عز وجل وعذابه الأليم، وجب أن تكون الموعظة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى –سبحانه– أبلغ، ولهذا تسجى النبي صلوات الله وسلامه عليه بثوبه لما مر بالديار الملعونة المسخوطة واستحث خطا راحلته(٤) وقال

---

(١)البخاري، كتاب الأنبياء، رقم ٣٣٧٩.

(٢) زجر: أي زجر ناقته، ومعناه ساقها سوقا شديدا حتى خلفها أي جاوز المساكن.

(٣) البخاري، كتاب الأنبياء، رقم ٣٣٨١.

(٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٨٠.

لأصحابه: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذرًا أن يصيبكم ما أصابهم»[١].

١١- وفاة الصحابي عبد الله ذي البجادين (٢) ﵁:

قال عبد الله بن مسعود ﵁: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حضرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: «أدنيا إليَّ أخاكما» فدلياه إليه، فلما هيأه بشقه، قال: «اللهم إني أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه» قال (الراوي عن ابن مسعود): قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[٣].

قال ابن هشام: وإنما سمي ذا البجادين؛ لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك يضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما كان قريبا منه، شق بجاده باثنين، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقيل له: ذو البجادين، لذلك[٤].

وفي هذه القصة دروس وحكم وفوائد منها:

١ – تكريم النبي ﷺ لجنوده أحياء وأمواتًا:

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء رقم ٣٣٨١. (٧)

(٢) البجاد: الكساء الغليظ الجافي.

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٩٨.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٨٢/٤).

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرص النبي ﷺ على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة؛ لأنهم قدموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله تاركين وراءهم أعز ما يملكون، فكانت تلك الرعاية مظهرًا من مظاهر تكريمهم في الدنيا، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذئاب وغيرها من دواب الأرض؛ لكي يكون هذا التكريم من الأسباب التي تدفع غيرهم إلى الاستبسال والإقدام في ميادين الجهاد، ومن الجدير بالذكر أن هذا المبدأ لم يجد من يدعو إلى تطبيقه إلا في العصر الحديث، وبهذا يمكن أن يقال: إن رعاية القائد المسلم لشئون جنده تعد سبقا عسكريًا لم تعرفه النظم والدساتير الوضعية إلا بعد قرون طويلة، من بزوغ الإسلام(١).

فهذه صورة من البر والتكريم فريدة يتيمة، لن تجد في تاريخ الملوك والحكام من يبر ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسد الحاكم فردا من رعيته بيده في مثواه الأخير، ثم يلتمس له المرضاة من رب العالمين، أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضيا عنه(٢).

٢- جواز الدفن في الليل، والغبطة مشروعة في الخير:

فقد دفن رسول الله ﷺ ذا البجادين ليلاً، والسنة أن يعجل في دفن الميت، كما أن الغبطة وهي أن تتمنى حصول الخير لك كما حصل لغيرك من إخوانك، وهذا عكس الحسد، إذ الحسد تمنى زوال النعمة عن غيرك، والحسد كله شر

---

(١) انظر: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص٢٩٩.
(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٧٢.

كما ترى، أما الغبطة فلا تكون إلا في الخير[١]، تأمل قول عبد الله بن مسعود ﵁ حينما سمع رسول الله ﷺ يقول في حق ذي البجادين: «اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارض عنه» فقال ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب اللحد[٢]إنها كلمة كل مؤمن آمن بالله واليوم الآخر، ووقف موقفه ذاك، فقد عرفوا أين تكون ميادين التنافس[٣].

١٢- موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرسول ﷺ النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، أخذ المنافقون في تثبيط همم الناس قائلين لهم: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨١-٨٢].

وقال رسول الله ﷺ وهو في جهازه لتبوك، للجد بن قيس: «يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبًا بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك»

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٦٣، ١٦٤.

(٢)انظر: صحيح السيرة النبوية، ص٥٩٨.

(٣) انظر: معين السيرة، ص٤٥٢.

ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]. وذهب بعضهم إلى النبي ﷺ مبدين أعذارًا كاذبة ليأذن لهم بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله: ﴿عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا منهم يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم(١).

وهذا يدل على مراقبة المسلمين الدقيقة ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المسلمين يقظة تراقب تحركات اليهود والمنافقين، واجتماعاتهم وأوكارهم، بل كانوا يطلعون فيها على أدقِّ أسرارهم واجتماعاتهم وما يدور فيها من حبك المؤامرات، وابتكار أساليب التثبيط، واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال، وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة وأوكارها حازما حاسما، إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين، وأرسل من أصحابه من ينفذه، ونفذ بحزم، وهذا منهج نبوي كريم يتعلم منه كل مسئول في كل زمان ومكان كيف يقف من دعاة الفتنة ومراكز الشائعات المضللة التي تلحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول؛ لأن التردد في مثل هذه الأمور يعرض الأمن والأمان إلى الخطر وينذر بزوالها(٢).

لقد تحدث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة وأثناءها وبعدها،

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٨.
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٢١.

ومما جاء من حديث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضمن استئذانهم، وتخلفهم عن الخروج، وكان ممن تخلف عبد الله بن أبيّ ابن سلول، وقد تحدث القرآن عنهم فقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٤٢]. فقد بين -سبحانه وتعالى- موقف المنافقين وأنهم تخلفوا بسبب بعد المسافة وشدتها، وأنه لو كان الذي دعوتهم إليه يا محمد عرضًا من أعراض الدنيا ونعيمها وكان السفر سهلا لاتبعوك في الخروج، ولكنهم تخلفوا ولم يخرجوا، فالآية تشرح وتوضح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة، وأسباب هذا الموقف، ثم حكى -سبحانه- ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة: ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾. كان نزول هذه الآية قبل رجوعه ﷺ من تبوك. والمعنى: وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله -كذبًا وزورًا- قائلين: لو استطعنا -أيها المؤمنون- أن نخرج معكم للجهاد في تبوك لخرجنا، فإننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين فقد كانت لنا أعذارنا القاهرة التي حملتنا على التخلف[1].

وقوله -سبحانه-: ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾. قال ابن عاشور: أي يحلفون مهلكين أنفسهم -أي موقعينها في الهلك، والهلك: الفناء

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/٦٤٧).

والموت- ويطلق على الأضرار الجسمية وهو المناسب هنـا أي يتسـببون في ضر أنفسهم بالأيمان الكاذبة وهو ضر الدنيا وعذاب الآخرة، وفي هذه الآيـة دلالـة على أن تعمد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك(١).

ثم عاتب الله تعالى نبينا محمدا ﷺبقوله: ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنـتَ لَهُـمْ حَتَّـى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾.

قال مجاهد(٢): نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ، فـإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، وهؤلاء هم فريـق مـن المنـافقين، منهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التـابوت، وكـانوا تسعا وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة(٣).

والآية الكريمة عتاب لطيف من اللطيف الخبير -سبحانه- لحبيبـه ﷺ عـلى ترك الأولى، وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشـاف الحـال(٤) ثـم قال تعالى: ﴿ لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[التوبة: ٤٤-٤٥].

هذه الآيات أول ما نزل في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال(٥)، فبين -سبحانه- أنه ليس من شأن المـؤمنين بـالله واليـوم الآخـر الاسـتئذان وتـرك

---

(١) انظر: تفسير التحرير و التنوير (١٠/٢٠٩).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٦٠).
(٣)انظر: التحرير والتنوير (١٠/٢١٠).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٤٧).
(٥) انظر: تفسير المراغي (٤/١٢٧).

الجهاد في سبيل الله، وإنما هذا من صفات المنافقين الذين يستأذنون من غير عذر، وصفهم –سبحانه– بقوله: ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: شكت في صحة ما جئتهم به، وقوله ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي: يتحيرون يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة في شيء(١).

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين، ولم يعد هناك أي مجال للتستر على المنافقين أو مجاملتهم، بل أصبحت مجابهتهم أمرًا ملحًّا بعد أن عملوا كل ما في وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه الله تعالى ورسوله ﷺ والذي نزل به القرآن الكريم، بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدهم واجبًا شرعيًّا(٢).

١٣- جواز القتال في الأشهر الحرم :

ومن الدروس جواز القتال في الشهر الحرام إن كان خروجه في رجب محفوظاً على ما قاله ابن إسحاق ولكن ها هنا أمر آخر وهو أن أهل الكتاب لم يكونوا يحرمون الشهر الحرام بخلاف العرب فإنها كانت تحرمه وقد تقدم أن في نسخ تحريم القتال فيه قولين وذكرنا حجج الفريقين .

١٤- بعض المعجزات التي حدثت في الغزوة:

---

(١)انظر: تفسير ابن كثير (٣٦١/٢).

(٢) انظر: نضرة النعيم (٣٨٩/١).

ظهرت في غزوة تبوك معجزات منها:

١ - الله تعالى يرسل السحاب لدعاء نبيه بالسقيا:

لما جاز النبي ﷺ حجر ثمود، أصبح الناس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ ربه، واستسقى لمن معه من المسلمين، فأرسل الله -سبحانه وتعالى- سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، فتحدث ابن إسحاق عمن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله، إن كان الرجل ليعرفه من أخيه، ومن أبيه، ومن عمه، وفي عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضا على ذلك، ثم قال محمود: لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه ونقول: ويحك! هل بعد هذا الشيء؟ قال: سحابة مارة[1].

٢ - خبر ناقة رسول الله ﷺ:

لما كان رسول الله ﷺ سائرًا في طريقه إلى تبوك، ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، يقال له: عمارة بن حزم، وكان عقبيًّا بدريًّا، وهو عم بني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيد بن اللصيت القينقاعي، وكان منافقًا.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/١٧٦)، صور وعبر من الجهاد النبوي، ص٤٧٣.

قال زيد بن اللصيت وهو في رحل عمارة، وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي؟ ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: «**إن رجلا قال: هذا محمد يزعم أنه يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها**» فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفا عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد بن اللصيت، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) يقول: إليَّ عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر، اخرج أي عدو الله[١] من رحلي فلا تصحبني، قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيدًا تاب بعد ذلك، وقال بعض الناس: لم يزل متهما بشر حتى هلك[٢].

٣- الإخبار بهبوب ريح شديدة والتحذير منها:

أخبر رسول الله ﷺ أصحابه في تبوك بأن ريحًا شديدة ستهب، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ودوابهم فلا يخرجوا حتى لا تؤذيهم، وليربطوا دوابهم حتى لا تؤذى، وتحقق ما أخبر به رسول الله ﷺ، فهبت الريح الشديدة وحملت من

---

(١) انظر: إعلام النبوة للماوردي، ص١٠٠، السيرة النبوية لابن هشام (١٧٧/٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٧٧/٤).

قام فيها إلى مكان بعيد(١) فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حميد قال: وانطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: **ستهب عليكم الليلة ريح شديدة**، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيئ(٢).

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم معقبا على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من إخباره ﷺ بالمغيب وخوف الضرر من القيام وقت الريح(٣).

٤ - تكثير ماء عين تبوك والإخبار بما ستكون عليه من خصب:

قال معاذ بن جبل ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي**» فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك(٤)، تبض(٥) بشيء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ: «**هل مسستما من مائها شيئا؟**» قالا: نعم، فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلاً حتى اجتمع في شيء،وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر حتى استقى

وقد قال رسول الله ^ لمعاذ بن جبل: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن**

---

(١)انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٤١.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٤٢/١٥)، مختصر مسلم رقم ١٥٤٣.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٢/١٥).

(٤) الشراك: هو سير النعل ومعناه ماء قليل جدا.

(٥) تبض: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد ومعناه تسيل.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي (٤١/١٥)، مختصر مسلم رقم ١٥٣٠.

ترى ما هاهنا قد ملئ جنانًا»[١]، لقد كانت منطقة تبوك والوادي الذي كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء، ولكن الله -عز وجل- أجرى على يد رسوله ﷺ بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة، ولم يكن هذا آتيا لسد حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله ﷺ بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة، ولقد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ بعد فترة قليلة من الزمن، وما زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول وتشهد بأن الرسول لا يتكلم إلا صدقًا، ولا يخبر إلا حقا، ولا ينبئ بشيء إلا ويتحقق(٢).

٥- تكثير الطعام:

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[٣] فأكلنا وأدمنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**افعلوا**»، فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إنهم إن فعلوا قل الظَّهْر[٤] ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم بالبركة، لعل الله يجعل في ذلك، فدعا رسول الله ﷺ بنطع[٥] فبسطه، ثم دعاهم بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف الذرة، والآخر بكف التمر، والآخر بالكسرة حتى اجتمع

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، الفتح الرباني(٢١/١٩٦).

(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٤٢.

(٣) نواضحنا: جمع ناضح وهي الإبل التي يسقى عليها.

(٤) الظهر: ما يحمل عليه من الإبل.

(٥) النطع: بساط من الجلد.

على النطع في ذلك شيء يسير، ثم دعا عليه بالبركة، ثم قال لهم: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا من أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملأوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فتحجب عنه الجنة»(١).

هذه بعض المعجزات والكرامات التي أظهرها الله على يد رسول الله ﷺ في غزوة تبوك تدل على صدق نبوته ورسالته، وتدل على رفعة منزلته وتكريمه عند ربه(٢).

١٥- إذا استنفر الإمام الجيش لزمهم النفير:

ومن الدروس والعبر أن الإمام إذا استنفر الجيش لزمهم النفير ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه ولا يشترط في وجوب النفير تعيين كل واحد منهم بعينه بل متى استنفر الجيش لزم كل واحد منهم الخروج معه وهذا أحد المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرض عين . والثاني : إذا حضر العدو البلد . والثالث إذا حضر بين الصفين .

١٦- خطر الاستهزاء بالدين والصالحين:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما-:

(١) الفتح الرباني (٢١/١٩٦- ١٩٨).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٤١.

قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يومًا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقا بحقب(١) ناقة رسول الله والحجارة تنكبه(٢)، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، والرسول ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟».

وفي رواية قتادة قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات.. فأطلع الله نبيه على ذلك فقال نبي الله ﷺ: «احبسوا هؤلاء الركب»، فأتاهم فقال: قلتم كذا وقلتم كذا، قالوا: فأنزل الله فيهم ما تسمعون(٣)، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٥].

والاستفهام في قوله: ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ استفهام إنكاري.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء موبخًا ومنكرًا: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم -كما تزعمون- سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله

---

(١) الحقب: حبل يشد به الرحل في بطن البعير.
(٢) الحجارة تنكبه: تصيبه وتؤذيه.
(٣) انظر: الدر المنثور للسيوطي، (٤/٢٣٠).

الذي جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور؟!

ثم بين -سبحانه- أن استهزاءهم هذا أدى بهم إلى الكفر فقال: ﴿ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦].

ومعنى الآية: أي لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم، لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لا ينبغي أن يكون، فاعتذاركم إقرار بذنبكم، فهو كما يقال: عذر أقبح من ذنب(١).

وقوله: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: إن نعف عن بعضكم لتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم -كمخشن بن حمير- نعذب بعضًا آخر لإجرامهم وإصرارهم عليه(٢).

ب- إيذاء الرسول والمؤمنين ومحاولة اغتيال رسول الله:

وقد نزل في هؤلاء المنافقين قول الله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[التوبة: ٧٤].

وقد ذكر ابن كثير أن الضحاك قال: إن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبي

---

(١)انظر: تفسير المراغي (١٥٣/٤).

(٢) المصدر نفسه (١٥٣/٤).

ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلا نزلت فيهم هذه الآية[١]، وفي رواية الواحدي عن الضحاك: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، فكانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين، فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله ﷺفقال لهم رسول الله: «يا أهل النفاق، ما هذا الذي بلغني عنكم؟» فحلفوا ما قالوا شيئا من ذلك، فأنزل الله هذه الآية إكذابًا لهم[٢].

والمعنى الإجمالي للآية: يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة التي نسبت إليهم، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التي رويت عنهم. ولم يذكر القرآن هذه الكلمة لأنه لا ينبغي ذكرها...)[٣].

١٧- وجوب الجهاد بالمال:

ومن الدروس كما يقول بن القيم وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس وهذا إحدى الروايتين عن أحمد وهي الصواب الذي لا ريب فيه فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيق الأمر أهم وآكد من الجهاد بالنفس ولا ريب أنه أحد الجهادين كما قال النبي ﷺ من جهز غازيا فقد غزا فيجب على القادر عليه كما يجب على القادر بالبدن ولا يتم الجهاد بالبدن إلا ببذله ولا ينتصر إلا بالعدد والعدد فإن لم يقدر أن يكثر العدد وجب عليه أن يمد بالمال والعدة وإذا وجب

(١) تفسير ابن كثير (٢/٣٧٢).
(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي، ص٢٥١.
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/٦٦٥).

الحج بالمال على العاجز بالبدن فوجوب الجهاد بالمال أولى وأحرى .

دروس من قصة مسجد الضرار:

وفي قصة مسجد الضرار دروس وعبر وفوائد منها:

١٨- أ-الكفر ملة واحدة:

وقد تبين هذا في موقف أبي عامر الراهب من الإسلام ومن المسلمين؛ إذ غضب غضبا شديدا، وتألم لهزيمة المشركين في بدر، فأعلن عداءه للرسول، وتوجه إلى عاصمة الشرك مكة يحث أهلها على قتال المسلمين، وخرج مقاتلا معهم في أحد، وحاول تفتيت الصف الإسلامي(١) وصدق الله تعالى عندما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

١٩- (ب)محاولة التدليس على المسلمين:

حاول المنافقون أن يضفوا الشرعية على هذا البناء وأنه مسجد بنوه لأسباب مقنعة في الظاهر، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها، فقد جاءوا يطلبون من الرسول ﷺ الصلاة في هذا البناء ليكون مسجدا قد باركه رسول الله ﷺبالصلاة فيه، فإذا حدث هذا فقد استقر قرارهم في تحقيق أهدافهم، وهذا أسلوب ماكر خبيث قد ينطلي على كثير من الناس(٢).

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٧٩.
(٢)،المصدر نفسه، ص١٨١.

٢٠- (ج)فاللّه خير حافظًا وهو أرحم الراحمين:

إن الباحث ليلاحظ مدى العناية الإلهية بالنبي ﷺ؛ فقد أطلعه الله -عز وجل- على أسرار هؤلاء المنافقين وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم، ولصلى في البناء فأضفى عليه الشرعية وأقبل الناس يصلون فيه لأن رسول الله ﷺ صلى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين وضعاف المسلمين فينفردون بهم وقد يؤثرون عليهم بالشائعات(١).

٢١- (د)العلاج النبوي الحاسم:

إن ما قام به الرسول ﷺ من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل، وهذا منهج نبوي كريم سنه لقادة الأمة في القضاء على أي عمل يراد منه الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم، فالداء العضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه، وإنما يعالج بحسمه وإزالة آثاره، حتى لا يتجدد ظهوره بصورة أخرى، وإن الثمار العملية، التي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر النبوي الحازم لتدلنا على أن هذه المنهجية التي نهجها رسول الله ﷺ مع هذا المكر الخبيث، هي الطريقة المثلى لقمع حركة النفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرهم بعد ذلك يتلاشى شيئا فشيئا حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عدد قليل، ولم يعرف عنهم بعد تدمير مسجد الضرار أن

---

(١)انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٧٩.

قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم[١].

٢٢- (هـ)ما يلحق بحكم مسجد الضرار:

ذكر المفسرون ما يلحق بمسجد الضرار في الحكم، فهذه بعض أقوالهم:

أ- قال الزمخشري:... وقيل كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار (٢).

علق الدكتور عبد الكريم زيدان على قول الزمخشري فقال: ولكن هل يلحق بمسجد الضرار فيهدم، كما هدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون في المدينة وأمر النبي ﷺ بهدمه؟ لا أرى ذلك، وإنما يمكن أن يقال إن المسجد الذي بنى لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التقوى، والإخلاص الكامل لله تعالى[٣].

ب- قال القرطبي في تفسيره: قال علماؤنا: وكل مسجد بني على ضرار أو رياء وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه(٤).

ج- وقال سيد قطب في تفسيره: هذا المسجد مسجد الضرار الذي اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين، هذا المسجد ما يزال يتخذ في

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١٣٠).

(٢)انظر: تفسير الزمخشري (٢/٣١٠).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٥٠٤).

(٤)انظر: تفسير القرطبي (٨/٢٥٤).

صور شتى؛ يتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه... ويتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتترس وراءها، وهي ترمي هذا الدين، ويتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام، لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يُذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب بما توحيه لهم من أن الإسلام بخير، وأنه لا داعي للخوف أو القلق عليه[١].

٢٣- (و)قاعدة لمعرفة ما يلحق بالمسجد الضرار:

قال الدكتور عبد الكريم زيدان: كل ما يتخذ مما هو في ظاهره مشروع، ويريد متخذوه تحقيق غرض غير مشروع، فهو ملحق بالمسجد الضرار، لأنه يحمل روحه وعناصره[٢]، وإذا أردنا الإيجاز قلنا في هذه القاعدة: كل ما كان ظاهره مشروعا ويريد متخذوه الإضرار بالمؤمنين فهو ملحق بالمسجد الضرار [٣].

وبناء على هذه القاعدة يخرج من نطاق مسجد الضرار وما يلحق به، ما ذكره الإمام ابن القيم من مشاهد الشرك، ومن أماكن المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمر والمنكرات ونحو ذلك؛ لأن هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به وإن استحقت الإزالة كمسجد الضرار باعتبارها

---

(١) في ظلال القرآن (٣/١٧١٠، ١٧١١).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٥٠٦).
(٣)المصدر نفسه(٢/٥٠٧).

منكرات ظاهرًا وباطنًا[١].

٢٤- (ز) مساجد الضرار في بلاد المسلمين:

لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين والملحدين، والمبشرين (المنصِّرين) والمستعمرين، يقيمون أماكن باسم العبادة وما هي لها، وإنما المراد بها الطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وآدابهم، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بث سمومهم بين أبناء المسلمين، وصرفهم عن دينهم، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثقافة والغرض منها خلخلة العقيدة السليمة في القلوب، والقيم الخلقية في النفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم، وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة -لاسيما في بلاد إفريقيا- ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الدنيئة التي لا يقرها عقل ولا شرع ولا قانون.

إن مسجد الضرار ليس حادثة في المجتمع الإسلامي الأول وانقضت، بل هي فكرة باقية، يخطط لها باختيار الأهداف العميقة، وتختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها، وخططها تصب في التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه وقلب الحقائق، والتشكيك، وزرع بذور الفتن لإبعاد الناس عن دينهم وإشغالهم بما يضرهم ويدمر مصيرهم الأخروي[٢].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٥٠٨).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٨٢.

٢٥- لا يعذر العاجز بماله حتى يبذل جهده:

ومن دروس هذه الغزوة أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده ويتحقق عجزه فإن الله سبحانه إنما نفى الحرج عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم فقال لا أجد ما أحملكم عليه فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد فهذا العاجز الذي لا حرج عليه .

دروس وعبر من قصة المخلفين الثلاثة:

وردت قصة الثلاثة الذين خلفوا على لسان كعب بن مالك رضي الله عنه في كتب السيرة والحديث والتفسير بروايات متقاربة في ألفاظها، ولقيت عناية فائقة في الشرح والتدريس، وكان صحيح البخاري من أكثر الكتب دقة وتفصيلا لهذه القصة[١].

ونترك كعب بن مالك رضي الله عنه يحدثنا بنفسه حيث قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة[٢] حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن -قط- أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان -قط- حتى

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٨٧.
(٢) ليلة العقبة: الليلة التي بايع رسول الله ﷺ الأنصار على الإسلام.

جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسـول الله ﷺ يريـد غـزوة إلا ورَّى بغيرهـا، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسـول الله ﷺ في حـر شـديد، واسـتقبل سـفرًا بعيدًا ومفازًا، وعدوًّا كثيرًا، فجلى للمسـلمين أمـرهم ليتـأهبوا أهبـة غـزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسـول الله ﷺ كثـير، ولا يجمعهـم كتاب حافظ، يريدون الديوان، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظـن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حيث طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغـدو لكـي أتجهـز معهـم، فـأرجع ولم أقـضِ شيئًا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يـزل يـتمادى بي حتـى اشـتد بالنـاس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعـده بيـوم أو يـومين، ثـم ألحقهـم، فغـدوت بعـد أن فصـلوا لأتجهـز، فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقـض شـيئا، فلـم يـزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو[1] وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلـم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خـروج رسـول الله ﷺ فطفـت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه النفاق أو رجلا ممن عـذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقـال وهـو جـالس في القوم بتبوك: «**ما فعل كعب؟**» فقال رجل من بني سلمة: يا رسـول الله حبسـه برداه، ونظره في عطفيه[2] فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يـا رسـول

---

(١) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.
(٢) والنظر في عطفيه: أي جانبيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسـول الله ﷺ، فبينـما هـو عـلى ذلـك رأى رجلا مبيضا(١) يزول به السراب(٢) فقال رسول الله ﷺ: «**كن أبا خيثمة**» فـإذا هـو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه(٣) المنافقون، قـال كعب بن مالك: فلـما بلغنـي أن رسـول الله ﷺ قـد توجـه قـافلاً(٤) مـن تبـوك حضرني بثي(٥)، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بـم أخـرج مـن سـخطه غـدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيـل لي: إن رسـول الله ﷺ قـد أظل قادمًا(٦) زاح(٧) عني الباطل، حتى عرفت أني لـن أنجـو منـه بشيـء أبـدًا، فأجمعت صدقه(٨) وأصبح رسول الله ﷺ قادما، وكـان إذا قـدم مـن سـفر بـدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعـل ذلـك جـاءه المخلفـون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانـين رجـلا، فقبـل مـنهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت، تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «**تعال**»، فجئت أمشي حتـى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلفـك؟ ألم تكـن قـد ابتعـت ظهـرك؟**» قـال: قلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الـدنيا، لرأيـت أن سـأخرج

---

(١) مبيضا: لابس البياض.

(٢) يزول به السراب: يتحرك وينهض، والسراب ما يظهر للإنسان.

(٣) لمزه المنافقون: عابوه واحتقروه.

(٤) توجه قافلا: راجعًا.

(٥) حضرني بثي: حزني.

(٦) أظل قادمًا: أقبل ودنا قدومه كأنه أبقى على ظله.

(٧) زاح: أزال.

(٨) أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.

من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً[1] ولكني -والله- لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن[2] الله أن يُسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه[3] إني لأرجو فيه عقبى الله[4]، لا -والله- ما كان لي عذر، والله ما كنت -قط- أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**»، فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فوالله مازالوا يؤنبونني[5] حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذِّب نفسي.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة. فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا -أيها الثلاثة- من بين من تخلف عنه. فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض

---

(١) أعطيت جدلا: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة.
(٢) ليوشكن: ليسرعن.
(٣) تجد عليَّ فيه: تغضب.
(٤) إني لأرجو عقبى الله: يعقبني خيرا ويثيبني عليه.
(٥) يؤنبونني: يلومونني أشد اللوم.

التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا(١) وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم(٢) فكنت أخرج، فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى طال ذلك عليَّ من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، -وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي- فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله(٣) هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام (٤)ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبا، فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة(٥) فالحقْ بنا نو فقلت حين قرأتها: وهذا أيضا من

---

(١) استكانا: خضعا.

(٢)أشب القوم وأجلدهم: أي أصغرهم سنا وأقواهم.

(٣) أنشدك بالله: أسألك بالله.

(٤)نبط أهل الشام: فلاحو العجم.

(٥) مضيعة: يعني أنك لست بأرض يضيع فيها حقك.

البلاء فتيممت[١] بها التنور، فسجرتها[٢] به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها، قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل هذا.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله، فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، فقالت: إنه -والله- ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه، قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، قال فلبثت بذلك عشر ليالٍ، فكمل لنا خمسون ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا، قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع[٣] يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، قال: فآذن[٤] رسول الله ﷺ توبة الله علينا

---

(١) تيممت: قصدت.

(٢) فسجرتها: أحرقتها.

(٣) أوفى على سلع: صعده وارتفع عليه، وسلع: جبل بالمدينة معروف.

(٤) فآذن الناس: أي أعلمهم.

حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل إليَّ فرسًا، وسعى ساع من أسلم قبلي، وأوفى الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمم(١) رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجا فوجا(٢) يهنئونني بالتوبة ويقولون: لتهنأك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺجالس في المسجد، حوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: «لا، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر قال: وكنا نعرف ذلك قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع(٣)من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر قال: وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا

---

(١)أتأمم: أي قصد

(٢) فوجا فوجا: الفوج الجماعة.

(٣)أنخلع من مالي: أتصدق به.

ما بقيت، فوالله ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه(١) الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت لرسول الله ﷺإلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[التوبة: ١١٧-١١٨] حتى بلغ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة -قط- بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إذا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦].

قال كعب: وكنا تخلفنا -أيها الثلاثة- عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى

(١) أبلاه الله: أنعم عليه.

إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨]

وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا(١)، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه(٢).

وفي هذه القصة دروس وعبر وفوائد كثيرة نذكر منها:

٢٦- (أ) الأسلوب الجميل والبيان الرائع والأدب الرفيع:

لقد تمت صياغة هذا الحديث بأسلوب جميل، وبيان رائع، وأدب رفيع، وإنه ليعتبر -مع أمثاله كحديث صلح الحديبية وحديث الإفك- نماذج عالية للأدب العربي الرفيع، وليت القائمين على وضع المناهج الدراسية يختارون هذه الأحاديث وأمثالها لتنمية مدارك الطلاب، وتكوين الملكة الأدبية والثروة اللغوية العالية، انظر مثلا إلى قول كعب في هذا الحديث: فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب؛ فأجمعت صدقه(٣).

٢٧- (ب)الصدق سفينة النجاة:

لقد أدرك كعب، وهلال، ومرارة -رضي الله عنهم- خطورة الكذب فعزموا على سلوك طريق الصراحة والصدق وإن عرضهم ذلك للتعب

---

(١) إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا.
(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٤١٨، صحيح السيرة النبوية، ص٦١٤.
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (١٣٧/٨).

والمضايقات، ولكن كان أملهم بالله -تعالى- كبيرًا في أن يقبل توبتهم ثم يعودون إلى الصف الإسلامي أقوى مما كانوا عليه[١]، وما أجمل ختم رب العالمين توبته على كعب ومن معه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

٢٨- (ت)الهجر التربوي وأثره في المجتمع:

إن الهجر التربوي له منافعه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة ومنع أفراده من التورط في المخالفات التي تكون إما بترك شيء من الواجبات أو فعل شيء من المحرمات؛ لأن من توقع أنه إذا وقع في شيء من ذلك سيكون مهجورا من جميع أفراد المجتمع، فإنه لن يفكر في الإقدام على ذلك.

ولا يغيب عن البال أن تطبيق هذا الحكم يجب أن يتم في الظروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النبوي المدني، حيث توجد الدولة المهيمنة والمجتمع القوي، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طبق عليه هذا الحكم.

وهذا الهجر التربوي يختلف عن الهجر الذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا، فهذا دنيوي وذاك ديني، فالهجر الديني مطلب شرعي يثاب عليه فاعله، أما الهجر الدنيوي فإنه مكروه إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام فإنه يكون محرما[٢] لقول رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ،

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (١٣٨/٨).
(٢) المصدر نفسه (١٣٩/٨).

يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» (١) ولقوله ﷺ: «من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه»(٢).

٢٩- (ث)تنفيذ أوامر القيادة في المجتمع المسلم:

استجاب المجتمع المسلم كله لتنفيذ أمر المقاطعة والهجر الذي صدر من القائد الأعلى ﷺ وامتنعوا جميعا عن الحديث مع هؤلاء الثلاثة، ووصف كعب لنا ذلك فقال:... فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد(٣)... وقد أطلق كعب السلام على ابن عمه أبي قتادة فلم يرد عليه السلام، وناشده بالله مرارًا: هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، مع أنه من أحب الناس إليه، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيز عليه، وبين تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر التربوي، ولكن ليس هناك تردد بين الأمرين، فالذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبي ﷺ فظهر ذلك على سلوكه(٤).

وقد بلغ الالتزام بالأمر النبوي في الهجر التربوي ذروته حين أمر رسول الله

---

(١)مسلم، كتاب البر، رقم ٢٥٦٠، ص١٩٨٤.

(٢) مسند أحمد (٤/٢٢٠).

(٣)انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٩٥.

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١٤٠).

ﷺ الثلاثة الذين خلفوا باعتزال زوجاتهم حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، فالتزم الجميع بذلك، واستأذنت زوجة هلال بن أمية -وكان شيخا طاعنا في السن لا يجد من يخدمه- فطلبت من الرسول ﷺ أن يأذن لها أن تخدمه فأذن لها النبي ﷺ بذلك شريطة ألا يقربها؛ فالتزمت رضي الله عنها[1].

٣٠- (ج)الولاء التام لله ورسوله:

كان العدو الصليبي يراقب ويرصد ويستغل الفرصة السانحة لكي يمزق الجبهة الداخلية ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ليوهن البنيان ويقوض الأركان، ولذلك استغل ملك غسان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالك رضي الله عنه وعقوبة رسول الله ﷺ له، بأن يرسل سفيره لكعب برسالة خاصة منه إليه يغريه فيها، تأمل قوله: قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك[2]. فكان تعليق كعب على هذه الرسالة: وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ مني ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجال من أهل الشرك، ثم أحرق الرسالة[3] وهذا الموقف يدل على شدة ولاء كعب لله ورسوله وقوة إيمانه وعظمة نفسه، فقد أدرك أنها محنة جديدة أقسى من الأولى، فلا يرضيه أن يجيب ملك غسان بالسلب، أو يرمي بالكتاب ويمزقه، ولكنه رمى به في التنور ليصير رمادا، ويصير كل ما به دخانا يتبدد في الهواء، وخرج الرجل من محنته وهو أقوى ما يكون إيمانا، وأصفى ما يكون روحا، وأكرم ما

---

(١)انظر: الصراع مع الصليبين، ص١٩٦.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٤١٨.

(٣)المغازي (٣/١٠٥١، ١٠٥٢).

يكون أخلاقا، فيالعظمة هذه النفوس المؤمنة الكبيرة[١]! لقد مر كعب من فوق هذا الاختبار والابتلاء عزيزًا قويًا بإسلامه، لم يتأثر به ولا انزلق فيه(٢).

٣١- (ح)توبة الله على العبد قيمة دينية يتطلع إليها الصادقون:

عندما نزلت الآيات الكريمة التي بينت توبة الله على هؤلاء الثلاثة كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين، ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله ﷺ حتى استنار كأنه قطعة قمر، وظهرت الفرحة على وجوه الصحابة -رضي الله عنهم- حتى صاروا يتلقون كعبًا وصاحبيه أفواجًا يهنئونهم بما تفضل الله به عليهم من التوبة، وجاء كعب إلى النبي ﷺ ووجهه يبرق من السرور فقال له: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، وهذا يعني مقام التوبة وأنها أعظم من الدخول في الإسلام.

إن التوبة تعني عودة العبد إلى الدخول تحت رضوان الله تعالى الذي هو أعلى هدف ينشده المسلم، وبالتالي فإنه يحظى بحفظه -جل وعلا- في الدنيا وتكريمه في الآخرة، لقد كانت توبة كعب عظيمة عبر عنها بنزع ثوبيه -اللذين لا يملك يومئذ غيرهما- وإهدائهما لمن بشره[٣] وعدم نسيان كعب لطلحة بن عبيد الله مصافحته وتهنئته له[٤] وكذلك كانت فرحة صاحبيه عظيمة غير أن

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٥١٧).

(٢)انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٣٠٧.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١٤١).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٥٨١).

كعبا لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له(١) وقد جاء في رواية الواقدي: وكان الذي بشر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد قال: وخرجت إلى بني واقف فبشرته فسجد، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه(٢).

٣٢- (خ)تشرع أنواع من العبادات شكرًا لله عند النعمة:

كانت فرحة كعب بن مالك بتوبة الله -سبحانه وتعالى- عليه لا تحدها حدود، ولا يتصورها مثل، وقد تفنن هو ﵁ في التعبير عنها بجملة من العبادات منها:

أ- **سجود الشكر**: حينما سمع كعب البشارة بتوبة الله عليه خر ساجدًا من فوره شكرًا لله -تبارك وتعالى- فقد كان من عادة الصحابة -رضي الله عنهم- أن يسجدوا شكرًا لله -تعالى- كلما تجددت لهم نعمة أو انصرفت عنهم نقمة، وقد تعلموا ذلك من رسول الله ﷺ(٣).

ب- **مكافأة الذي يحمل البشرى**: فقد نزع كعب ثوبيه اللذين كان يلبسهما، فكساهما الذي سمع صوته بالبشرى، وما كان يملك وقتئذ غيرهما، ثم استعار ثوبين فلبسهما، ولا شك أن هذا ضرب من الهبة المشروعة، فإن كان المبشر غنيا كان له هدية، وإن كان فقيرا كان له صدقة، وكلاهما إخراج المال شكرا لله -

---

(١)انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١٤٢).

(٢) المغازي للواقدي (٣/١٠٥٤).

(٣)انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي، ص٤٩٣.

تعالى- على إنزاله الفرج[١].

ج- **التصدق بالمال:** فقد جعل كعب من توبته أن ينخلع من ماله صدقة لله تعالى، لكنه -عليه الصلاة والسلام- لم يتقبل منه التصدق بجميع ماله، وقال له: «**أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك**»، وكأنه يستشيره بذلك، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله[٢] وقد ثار الخلاف الفقهي فيمن نذر التصدق بجميع ماله، والصدقة مستحبة، والنذر واجب الوفاء، ولم يذهب كعب إلى النذر، وإنما استشار في الصدقة بكل المال، فأشار رسول الله ﷺ عليه بإمساك بعض ماله.

٣٣- (د)لم يكن يتخلف عنه ﷺ إلا منافق أو معذورأو من خلفه النبي ﷺ:

فإنه لم يكن يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا أحد رجال ثلاثة إما مغموص عليه في النفاق أو رجل من أهل الأعذار أو من خلفه رسول الله ﷺ واستعمله على المدينة أو خلفه لمصلحة . ومنها : أن الإمام والمطاع لا ينبغي له أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور بل يذكره ليراجع الطاعة ويتوب فإن النبي ﷺ قال بتبوك : ما فعل كعب ؟ ولم يذكر سواه من المخلفين استصلاحا له ومراعاة وإهمالا للقوم المنافقين .

٣٤- (ر)جواز الطعن اجتهادا:

جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد أنه وهم وغلط كما قال

---

(١) نفس المصدر، ص٤٩٣، الصراع مع الصليبيين، ص٢٠٢.
(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي، ص٤٩٣.

معاذ للذي طعن في كعب بئس ما قلت والله يا رسـول الله مـا علمنـا عليـه إلا خيرا ولم ينكر رسول الله ﷺ على واحد منهما .

٣٥- (ز)الحكم بالظاهر :

ومنها : أن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإسلام من المنـافقين ويكل سريرته إلى الله ويجري عليه حكم الظاهر ولا يعاقبه بما لم يعلم من سره .

٣٦- (س)ترك رد السلام على من أحدث حدثا :

ترك الإمام والحاكم رد السلام على من أحـدث حـدثاً تأديبـا لـه وزجـرا لغيره فإنه ﷺ لم يُنقل أنه رد على كعب بل قابل سلامه بتبسم المغضب .

٣٧- (ش) تبسم الغضب :

ومنها : أن التبسـم قـد يكـون عـن الغضـب كـما يكـون عـن التعجـب والسرور فإن كلا منهما يوجب انبساط دم القلـب وثورانـه ولهـذا تظهـر حمـرة الوجه لسرعة ثوران الدم فيه فينشأ عن ذلك السرور والغضـب تعجـب يتبعـه ضحك وتبسم فلا يغتر المغتر بضـحك القـادر عليـه في وجهـه ولا سـيما عنـد المعتبة كما قيل :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث مبتسم.

٣٨- (ص)جواز معاتبة الإمام والمطاع أصحابه:

ومنها : معاتبة الإمام والمطاع أصحابه ومن يعز عليـه ويكـرم عليـه فإنـه عاتب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه وقد أكثر الناس من مدح عتاب الأحبـة واستلذاذه والسرور به فكيف بعتاب أحب الخلق عـلى الإطـلاق إلى المعتـوب

عليه ولله ما كان أحلى ذلك العتاب وما أعظم ثمرته وأجل فائدته ولله ما نال به الثلاثة من أنواع المسرات وحلاوة الرضى وخلع القبول .

٣٩- (ط)توفيق الله لكعب وصاحبيه:

ومنها : توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاءوا به من الصدق ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق فصلحت عاجلتهم وفسدت عاقبتهم كل الفساد والصادقون تعبوا في العاجلة بعض التعب فأعقبهم صلاح العاقبة والفلاح كل الفلاح وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة فمرارات المبادي حلاوات المبادي مرارات في العواقب . وقول النبي ﷺ لكعب أما هذا فقد صدق دليل ظاهر في التمسك بمفهوم اللقب عند قيام قرينة تقتضي تخصيص المذكور بالحكم كقوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾[الأنبياء ٧٨ و ٧٩] وقوله ﷺ جعلت لي الأرض مسجدا وتربتها طهورا وقوله في هذا الحديث أما هذا فقد صدق وهذا مما لا يشك السامع أن المتكلم قصد تخصيصه بالحكم .

٤٠- (ظ)نهيه ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة لتأديبهم دليل على صدقهم:

وفي نهي النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقين فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب وأما المنافقون فجرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق ولا فائدة فيه وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات

جرائمهم فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة فلا يزال مستيقظا حذرا وأما من سقط من عينه وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه وكلما أحدث ذنبا أحدث له نعمة والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عاقبة معها كما في الحديث المشهور إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبته في الدنيا وإذا أراد بعبد شرا أمسك عنه عقوبته في الدنيا فيرد يوم القيامة بذنوبه.

٤١- (ع)التنكر والوحشة دليل على حياة القلب:

وقوله حتى تنكرت لي الأرض فما هي بالتي أعرف هذا التنكر يجده الخائف والحزين والمهموم في الأرض وفي الشجر والنبات حتى يجده فيمن لا يعلم حاله من الناس ويجده أيضا المذنب العاصي بحسب جرمه حتى في خلق زوجته وولده وخادمه ودابته ويجده في نفسه أيضا فتتنكر له نفسه حتى ما يخفى إلا على من هو ميت القلب وعلى حسب حياة القلب يكون إدراك هذا التنكر والوحشة .

وما لجرح بميت إيلام

ومن المعلوم أن هذا التنكر والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به وهكذا القلب إذا استحكم مرضه واشتد ألمه بالذنوب والإجرام لم يجد هذه الوحشة والتنكر ولم يحس بها وهذه علامة الشقاوة وأنه قد أيس من عافية هذا المرض وأعيا الأطباء شفاؤه والخوف والهم مع الريبة والأمن والسرور مع البراءة من الذنب . فما في الأرض أشجع

من بريء ولا في الأرض أخوف من مريب

وهذا القدر قد ينتفع به المؤمن البصير إذا ابتلي به ثم راجع فإنه ينتفع به نفعا عظيما من وجوه عديدة تفوت الحصر ولو لم يكن منها إلا استثماره من ذلك أعلام النبوة وذوقه نفس ما أخبر به الرسول فيصير تصديقه ضروريا عنده ويصير ما ناله من الشر بمعاصيه ومن الخير بطاعاته من أدلة صدق النبوة الذوقية التي لا تتطرق إليها الاحتمالات وهذا كمن أخبرك أن في هذه الطريق من المعاطب والمخاوف كيت وكيت على التفصيل فخالفته وسلكتها فرأيت عين ما أخبرك به فإنك تشهد صدقه في نفس خلافك له وأما إذا سلكت طريق الأمن وحدها ولم تجد من تلك المخاوف شيئا فإنه وإن شهد صدق المخبر بما ناله من الخير والظفر مفصلا فإن علمه بتلك يكون مجملا .

٤٢- (غ)رد السلام على من يستحق الهجر غير واجب :

وقوله وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ فيه دليل على أن الرد على من يستحق الهجر غير واجب إذ لو وجب الرد لم يكن بد من إسماعه .

٤٣- (ف)دخول دار الصاحب من غير إذن :

وقوله حتى إذا طال ذلك علي تسورت جدار حائط أبي قتادة فيه دليل على دخول الإنسان دار صاحبه وجاره إذا علم رضاه بذلك وإن لم يستأذنه .

٤٤- (ق)ابتلاء الله لكعب بمكاتبة ملك غسان له:

وفي مكاتبة ملك غسان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعالى وامتحان لإيمانه

ومحبته لله ورسوله وإظهار للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانه بهجر النبي ﷺ والمسلمين له ولا هو ممن تحمله الرغبة في الجاه والملك مع هجران الرسول والمؤمنين له على مفارقة دينه فهذا فيه من تبرئة الله له من النفاق وإظهار قوة إيمانه وصدقه لرسوله وللمسلمين ما هو من تمام نعمة الله عليه ولطفه به وجبره لكسره وهذا البلاء يظهر لب الرجل وسره .

٤٥- (ك)إتلاف ما يخشى منه المضرة في الدين:

وقوله فتيممت بالصحيفة التنور فيه المبادرة إلى إتلاف ما يخشى منه الفساد والمضرة في الدين وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره وهذا كالعصير إذا تخمر وكالكتاب الذي يخشى منه الضرر والشر فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه .

٤٦- (ل)عداوة غسان لرسول الله ﷺ وكتابه ﷺ لهم :

وكانت غسان إذ ذاك - وهم ملوك عرب الشام - حربا لرسول الله ﷺ وكانوا ينعلون خيولهم لمحاربته وكان هذا لما بعث شجاع بن وهب الأسدي إلى ملكهم الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه إلى الإسلام وكتب معه إليه قال شجاع فانتهيت إليه وهو في غوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الأنزال والألطاف لقيصر وهو جاء من حمص إلى إيلياء فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه إني رسول رسول الله ﷺ إليه فقال لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا وجعل حاجبه - وكان روميا اسمه مري - يسألني عن رسول الله ﷺ وكنت أحدثه عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه فيرق حتى يغلب عليه البكاء

ويقول إني قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبي بعينه فأنا أؤمن به وأصدقه فأخاف من الحارث أن يقتلني وكان يكرمني ويحسن ضيافتي . وخرج الحارث يوما فجلس فوضع التاج على رأسه فأذن لي عليه فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه ثم رمى به قال من ينتزع مني ملكي وقال أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته علي بالناس فلم تزل تعرض حتى قام وأمر بالخيول تنعل ثم قال أخبر صاحبك بما ترى وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه فكتب إليه قيصر أن لا تسر ولا تعبر إليه واله عنه ووافني بإيلياء فلما جاءه جواب كتابه دعاني فقال متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ فقلت : غدا فأمر لي بمائة مثقال ذهبا ووصلني حاجبه بنفقة وكسوة وقال اقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام فقدمت] ﷺ فأخبرته فقال " باد ملكه " وأقرأته من حاجبه السلام وأخبرته بما قال فقال رسول الله ﷺ " صدق " ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح ففي هذه المدة أرسل ملك غسان يدعو كعبا إلى اللحاق به فأبت له سابقة الحسنى أن يرغب عن رسول الله ﷺ ودينه .

٤٧- (م)حرص الصحابة على الخير :

وفي استباق صاحب الفرس والراقي على سلع ليبشرا كعبا دليل على حرص القوم على الخير واستباقهم إليه وتنافسهم في مسرة بعضهم بعضا .

٤٨- (ن)استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية :

وفيه دليل على استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية والقيام إليه إذا

أقبل ومصافحته فهذه سنة مستحبة وهو جائز لمن تجددت له نعمة دنيوية وأن الأولى أن يقال له ليهنك ما أعطاك الله وما من الله به عليك ونحو هذا الكلام فإن فيه تولية النعمة ربها والدعاء لمن نالها بالتهني بها .

٤٩- (هـ)يوم توبة المسلم خير الأيام :

وفيه دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يوم توبته إلى الله وقبول الله توبته لقول النبي ﷺ أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك فإن قيل فكيف يكون هذا اليوم خيرا من يوم إسلامه ؟ قيل هو مكمل ليوم إسلامه ومن تمامه فيوم إسلامه بداية سعادته ويوم توبته كمالها وتمامها والله المستعان .

٥٠- (و)سروره ﷺ بتوبة اللّه على المخلفين دليل على شفقته على أمته :

وفي سرور رسول الله ﷺ بذلك وفرحه به واستنارة وجهه دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشفقة على الأمة والرحمة بهم والرأفة حتى لعل فرحه كان أعظم من فرح كعب وصاحبيه.

٥١- (ي) من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراج جميعه:

وقول رسول الله ﷺ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك دليل على أن من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراج جميعه بل يجوز له أن يبقي له منه بقية وقد اختلفت الرواية في ذلك ففي " الصحيحين " أن النبي ﷺ قال له أمسك

عليك بعض مالك ولم يعين لـه قـدرا بـل أطلـق ووكلـه إلى اجتهـاده في قـدر الكفاية وهذا هو الصحيح فإن ما نقص عن كفايتـه وكفايـة أهلـه لا يجـوز لـه التصدق به فنذره لا يكون طاعة فلا يجب الوفاء بـه ومـا زاد عـلى قـدر كفايتـه وحاجته فإخراجه والصدقة به أفضل فيجب إخراجه إذا نذره هـذا قيـاس أداء الواجبات المالية سواء كانت حقا لله كالكفارات والحج أو حقا للآدميين كـأداء الديون فإنا نترك للمفلس ما لا بد منه من مسكن وخادم وكسوة وآلة حرفة أو ما يتجر به لمؤنته إن فقدت الحرفة ويكون حق الغرمـاء فـيما بقـي . وقـد نـص الإمام أحمد على أن من نذر الصدقة بماله كله أجزاه ثلثه واحتج له أصـحابه بـما روي في قصة كعب هذه أنه قال يا رسول الله إن من تـوبتي إلى الله ورسـوله أن أخرج من مالي كله إلى الله ورسوله صدقة قال " لا " قلت : فنصفه ؟ قـال " لا " قلت : فثلثه قال " نعم " قلت : فإني أمسـك سـهمي الـذي بخيـبر رواه أبـو داود . وفي ثبوت هذا ما فيه فإن الصحيح في قصة كعب هذه ما رواه أصـحاب الصحيح من حديث الزهري عن ولد كعب بـن مالـك عنـه أنـه قـال أمسـك عليك بعض مالك من غير تعيين لقدره وهم أعلم بالقصة مـن غـيرهم فـإنهم ولده وعنه نقلوها .

ونواصل دروس هذه الغزوة المباركة بعد هذه الاطلالـة مـع دروس قصـة المخلفين الثلاثة.

٥٢- استخلاف الإمام إذا سافر رجلا مـن الرعيـة عـلى من بقي :

ومنها : استخلاف الإمام - إذا سافر - رجلا مـن الرعيـة عـلى الضـعفاء والمعذورين والنساء والذرية ويكون نائبه من المجاهدين لأنه مـن أكـبر العـون لهم . وكان رسول الله ﷺ يستخلف ابن أم مكتوم فاستخلفه بضع عشرة مرة .

٥٣- معالم من المنهج القرآني في الحديث عـن غـزوة تبوك:

إن الآيات التي أنزلها الله في كتابه المتعلقة بغزوة العسرة هي أطول مـا نـزل في قتـال المسـلمين وخصـومهم، وقـد بـدأت باسـتنهاض الهمـم لـرد هجـوم المسيحية، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة تفريط في حماية دينه ونصرة نبيـه، وإن التراجـع أمـام الصـعوبات الحائلـة دون قتـال الـروم، يعـد مزلقـة إلى الـردة والنفاق(١) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَـبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إلى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا فِي الآَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَـذَابًا أَلِـيمًا وَيَسْـتَبْدِلْ قَوْمًـا غَـيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

وعند التأمل في سورة التوبة يلاحظ القارئ أن لها معالم في عرضـها لغـزوة تبوك منها:

١- عاتب القرآن الكريم من تخلف عتابًا شديدًا، وتميزت غزوة تبـوك عـن سائر الغزوات بأن الله حث عـلى الخـروج فيهـا -وعاتـب مـن تخلـف عنهـا-

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص٤٠٤.

والآيات الكريمة جاءت بذلك، كقوله تعالى: ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

وقد ختمت الغزوات النبوية بهذه الغزوة، وقد كان تطبيقا عمليا لوضع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾ [التوبة: ١٢٣] موضع التنفيذ(١).

٢- ميز القرآن الكريم هذه الغزوة عن غيرها، فسماها الله تعالى ساعة العسرة، قال تعالى: ﴿ لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧] فقد كانت غزوة عسرة بمعنى الكلمة.

٣- من معالم منهج القرآن في عرضه لهذه الغزوة العظيمة أن الله رد على المنافقين لمزهم فقراء الصحابة عندما جاء أحدهم بنصف صاع وتصدق به، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا إلا رياء، فنزلت الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

٤- بين القرآن الكريم أن المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ - وعددهم يزيد عن الثلاثين ألفا- قد كتب الله لهم الأجر العظيم(٢) قال تعالى: ﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢].

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/٧٠٢).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/٧٠٣).

٥٤- ممارسة الشورى في هذه الغزوة:

مارس رسول الله ﷺ في هذه الغزوة الشورى وقبل مشورة الصدِّيق والفاروق في بعض النوازل التي حدثت في الغزوة ومن هذه النوازل:

أ- قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش لعطش شديد:

قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرا، فادع الله، قال: «أتحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يردهما حتى حالت السماء فأظلت ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1].

ب- قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة:

أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النبي ﷺ في نحر إبلهم حتى يسدوا جوعتهم، فلما أذن لهم النبي ﷺ في ذلك جاءه عمر رضي الله عنه فأبدى مشورته في هذه المسألة، وهي أن الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلهم وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطريق الطويل، ثم ذكر رضي الله عنه حلا لهذه

(١) أخرجه ابن حبان، كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك، رقم ١٧٠٧.

المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل ﷺ بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام بعد أن ملأوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا.

ج- قبول مشورة عمر رضي الله عنه في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النبي ﷺ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فروا خوفًا من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام، فأشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة وعلل رأيه بقوله: إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، ولقد كانت مشورة مباركة؛ فإن القتال داخل بلاد الرومان يعد أمرًا صعبًا، إذ إنه يتطلب تكتيكًا خاصًا لأن الحرب في الصحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرومان في الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفًا، ولا شك في أن تجمع هذا العدد الكبير في تحصنه داخل المدن يعرض جيش المسلمين للخطر[1].

إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في كل شئونها السياسية والعسكرية والاجتماعية... إلخ منهج تربوي كريم سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ في حياته.

٥٥- لا يجوز الشرب ولا الطبخ ولا العجن ولا الطهارة من آبار ثمود :

ومنها : أن الماء الذي بآبار ثمود لا يجوز شربه ولا الطبخ منه ولا

---

(١) انظر: غزوة تبوك، باشميل، ص١٧٦، ١٧٧.

العجين به ولا الطهارة به ويجوز أن يسقى البهائم إلا ما كان من بئر الناقة . وكانت معلومة باقية إلى زمن رسول الله ﷺ ثم استمر علم الناس بها قرنا بعد قرن إلى وقتنا هذا فلا يرد الركوب بئرا غيرها وهي مطوية محكمة البناء واسعة الأرجاء آثار العتق عليها بادية لا تشتبه بغيرها .

٥٦- جواز الجمع بين الصلاتين في السفر : ..

ومنها : أن النبي ﷺ كان يجمع بين الصلاتين في السفر وقد جاء جمع التقديم في هذه القصة في حديث معاذ كما تقدم وذكرنا علة الحديث . ومن أنكره ولم يجئ جمع التقديم عنه في سفر إلا هذا وصح عنه جمع بعرفة قبل دخوله إلى عرفة فإنه جمع بين الظهر والعصر في وقت الظهر فقيل ذلك لأجل النسك كما قال أبو حنيفة . وقيل لأجل السفر الطويل كما قاله الشافعي وأحمد . وقيل لأجل الشغل وهو اشتغاله بالوقوف واتصاله إلى غروب الشمس . قال أحمد يجمع للشغل وهو قول جماعة من السلف والخلف وقد تقدم .

٥٧- جواز التيمم بالرمل :

ومنها : جواز التيمم بالرمل فإن النبي ﷺ وأصحابه قطعوا الرمال التي بين المدينة وتبوك ولم يحملوا معهم ترابا بلا شك وتلك مفاوز معطشة شكوا فيها العطش إلى رسول الله ﷺ وقطعا كانوا يتيممون بالأرض التي هم فيها نازلون هذا كله مما لا شك فيه مع قوله ﷺ فحيثما أدركت رجلا من أمتي الصلاة فعنده مسجده وطهوره .

٥٨- ترجيح قصر الصلاة في السفر دون تحديد مدة

الإقامة :

ومنها : أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة ولم يقل للأمة لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك ولكن اتفقت إقامته هذه المدة وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر سواء طالت أو قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع . وقد اختلف السلف والخلف في ذلك اختلافا كثيرا ففي " صحيح البخاري " عن ابن عباس قال أقام رسول الله ﷺ في بعض أسفاره تسع عشرة يصلي ركعتين فنحن إذا أقمنا تسع عشرة نصلي ركعتين وإن زدنا على ذلك أتممنا وظاهر كلام أحمد أن ابن عباس أراد مدة مقامه بمكة زمن الفتح فإنه قال أقام رسول الله ﷺ بمكة ثمان عشرة زمن الفتح لأنه أراد حنينا ولم يكن ثم أجمع المقام وهذه إقامته التي رواها ابن عباس . وقال غيره بل أراد ابن عباس مقامه بتبوك كما قال جابر بن عبد الله أقام النبي ﷺ بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة رواه الإمام أحمد في " مسنده " . وقال عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام أربعين ليلة يقصرها سعد ونتمها . وقال نافع أقام ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يصلي ركعتين وقد حال الثلج بينه وبين الدخول . وقال حفص بن عبيد الله أقام أنس بن مالك بالشام سنتين يصلي صلاة المسافر .

وقال أنس أقام أصحاب رسول الله ﷺ برامهرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة . وقال الحسن أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة بكابل سنتين يقصر الصلاة ولا يجمع . وقال إبراهيم كانوا يقيمون بالري السنة وأكثر من ذلك

وسجستان السنتين . فهذا هدي رسول الله ﷺ وأصحابه كما ترى وهو الصواب .

٥٩- التدريب العملي العنيف:

كان في خروج الرسول ﷺ بأصحابه إلى تبوك فوائد كثيرة، منها:

تدريبهم تدريبا عنيفا، فقطع بهم ﷺ مسافة طويلة في ظروف جوية صعبة حيث كانت حرارة الصيف اللاهب، بالإضافة إلى الظروف المعيشية التي كانوا يعانون منها، فقد كانت هناك قلة في الماء حتى كادوا يهلكون من شدة العطش، وأيضا كانت هناك قلة في الزاد والظهر ولا شك في أن هذه الأمور تعد تدريبا عنيفا لا يتحمله إلا الأقوياء من الرجال.

وفي هذا الدرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريبا عنيفا، كاجتياز مواقع وعراقيل صعبة جدا، وقطع مسافات طويلة في ظروف جوية مختلفة، وحرمان من الطعام والماء بعض الوقت، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب، لقد تحمل جيش العسرة مشقات لا تقل صعوبة عن مشقات هذا التدريب العنيف -إن لم تكن أصعب منها بكثير- لقد تركوا المدينة في موسم نضج ثمارها، وقطعوا مسافات طويلة شاقة في صحراء الجزيرة العربية صيفًا، وتحملوا الجوع والعطش مدة طويلة.

إن غزوة تبوك تدريب عنيف للمسلمين، كان غرض الرسول ﷺ منه

إعدادهم لتحمل رسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية... فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ، فلابد من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى[1] وقد ساعد هذا التدريب العملي الصحابة في عصر الخلفاء فقاموا بفتح بلاد الشام وبلاد الفرس بقوة إيمانهم، وثقتهم بخالقهم، وساعدهم على ذلك لياقتهم البدنية العالية، ومعرفتهم العملية لاستخدام السيوف والرماح وأنواع الأسلحة في زمانهم.

٦٠- تركه ﷺ قتل المنافقين :

ومنها : تركه قتل المنافقين وقد بلغه عنهم الكفر الصريح فاحتج به من قال لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة لأنهم حلفوا لرسول الله ﷺ أنهم ما قالوا وهذا إذا لم يكن إنكارا فهو توبة وإقلاع وقد قال أصحابنا وغيرهم ومن شهد بالردة فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله لم يكشف عن شيء عنه بعد وقال بعض الفقهاء إذا جحد الردة كفاه جحدها . ومن لم يقبل توبة الزنديق قال هؤلاء لم تقم عليهم بينة ورسول الله ﷺ لا يحكم عليهم بعلمه والذي بلغ رسول الله ﷺ عنهم قولهم لم يبلغهم إياه نصاب البينة بل شهد به عليهم واحد فقط كما شهد زيد بن أرقم وحده على عبد الله بن أبي وكذلك غيره أيضا إنما شهد عليه واحد . وفي هذا الجواب نظر فإن نفاق عبد الله بن أبي وأقواله في النفاق كانت كثيرة جدا كالمتواترة عن النبي ﷺ وأصحابه وبعضهم أقر بلسانه وقال إنما كنا نخوض ونلعب وقد واجهه بعض الخوارج في وجهه بقوله إنك لم

(١) انظر: الرسول القائد، ص٢٨١، ٢٨٢.

تعدل . والنبي ﷺ لما قيل له ألا تقتلهم ؟ لم يقل ما قامت عليهم بينة بل قال لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه.

والجواب الصحيح إذن أنه كان في ترك قتلهم في حياة النبي ﷺ مصلحة تتضمن تأليف القلوب على رسول الله ﷺ وجمع كلمة الناس عليه وكان في قتلهم تنفير والإسلام بعد في غربة ورسول الله ﷺ أحرص شيء على تأليف الناس وأترك شيء لما ينفرهم عن الدخول في طاعته وهذا أمر كان يختص بحال حياته ﷺ وكذلك ترك قتل من طعن عليه في حكمه بقوله في قصة الزبير وخصمه أن كان ابن عمتك . وفي قسمه بقوله إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . وقول الآخر له ترك استيفاء حقه بل يتعين عليهم استيفاؤه ولا بد ولتقرير هذه المسائل موضع آخر والغرض التنبيه والإشارة .

٦١- ثواب من حبسه العذر:

ومنها : قوله ﷺ إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم طائفة من الجهال أنهم معهم بأبدانهم فهذا محال لأنهم قالوا له وهم بالمدينة ؟ قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وكانوا معه بأرواحهم وبدار الهجرة بأشباحهم وهذا من الجهاد بالقلب وهو أحد مراتبه الأربع وهي القلب واللسان والمال والبدن . وفي الحديث جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم.

٦٢- تحريق أمكنة المعصية وهدمها :

ومنها : تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار وأمر بهدمه وهو مسجد يصلى فيه ويذكر اسم الله فيه لما كان بناؤه ضرارا وتفريقا بين المؤمنين ومأوى للمنافقين وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله إما بهدم وتحريق وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له . وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أندادا من دون الله أحق بالهدم وأوجب وكذلك محال المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات . وقد حرق عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرية بكمالها يباع فيها الخمر وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه فويسقا وحرق قصر سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية وهم رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركي حضور الجماعة والجمعة النساء والذرية الذين لا تجب عليهم كما أخبر هو عن ذلك .

٦٣- جواز إنشاد الشعر للقادم فرحا به :

ومنها : جواز إنشاد الشعر للقادم فرحا وسرورا به ما لم يكن معه محرم من لهو كمزمار وشبابة وعود ولم يكن غناء يتضمن رقية الفواحش وما حرم الله فهذا لا يحرمه أحد وتعلق أرباب السماع الفسقي به كتعلق من يستحل شرب الخمر المسكر قياسا على أكل العنب وشرب العصير الذي لا يسكر ونحو هذا من القياسات التي تشبه قياس الذين قالوا : إنما البيع مثل الربا .

٦٤- أهم نتائج الغزوة:

أ- يمكن للباحث أن يلاحظ أهم نتائج هذه الغزوة وهي:

١- إسقاط هيبة الروم من نفوس العرب جميعًا -مسلمهم وكافرهم على السواء- لأن قوة الروم كانت في حس العرب لا تقاوم، ولا تغلب، ومن ثم فقد فزعوا من ذكر الروم وغزوهم، ولعل الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في غزوة (مؤتة) كانت مؤكدة على ما ترسخ في ذهن العربي في جاهليته من أن الروم قوة لا تقهر، فكان لا بد من هذا النفير العام لإزاحة هذه الهزيمة النفسية من نفوس العرب.

٢- إظهار قوة الدولة الإسلامية كقوة وحيدة في المنطقة قادرة على تحدي القوى العظمى عالميا -حينذاك- ليس بدافع عصبي أو عرقي، أو تحقيق أطماع زعامات معاصرة، وإنما بدافع تحريري؛ حيث تدعو الإنسانية إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، ولقد حققت هذه الغزوة الغرض المرجو منها بالرغم من عدم الاشتباك الحربي مع الروم الذين آثروا الفرار شمالا فحققوا انتصارا للمسلمين دون قتال، حيث أخلوا مواقعهم للدولة الإسلامية، وترتب على ذلك خضوع النصرانية التي كانت تمت بصلة الولاء لدولة الروم مثل إمارة دومة الجندل، وإمارة إيلة (مدينة العقبة حاليا على

خليج العقبة)، وكتب رسول الله ﷺ بينه وبينهم كتابا يحدد ما لهم وما عليهم[١] وأصبحت القبائل العربية الشامية الأخرى التي لم تخضع للسيطرة الإسلامية في تبوك تتعرض بشدة للتأثير الإسلامي، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة، ويعد ما حدث في تبوك نقطة البداية العملية للفتح الإسلامي لبلاد الشام[٢] وإن كانت هناك محاولات قبلها ولكنها لم تكن في قوة التأثير كغزوة تبوك، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عمليات متواصلة لفتح البلدان، والتي واصلها خلفاء رسول الله ﷺ من بعده، ومما يؤكد هذا أن الرسول ﷺ قبل موته جهز جيشا بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربة موجهة صوب الروم، وطليعة لجيش الفتح، ضم هذا الجيش جُلَّ صحابة رسول الله، ولكنه لم يقم بمهمته إلا بعد وفاته ﷺ، ومع هذا فقد حقق الهدف المطلوب منه كما سيأتي[٣] بإذن الله عند الحديث في سيرة الصديق رضي الله عنه.

لقد وضع رسول الله ﷺ الأسس الأولى والخطوات المثلى لفتح بلاد الشام والفتوحات الإسلامية.

٣- توحيد الجزيرة العربية تحت حكم الرسول ﷺ، حيث تأثر موقف القبائل العربية من الرسول ﷺ والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة كفتح

---

(١) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، للشجاع، ص٢٠٩.
(٢) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة، عبد الرحمن أحمد، ص١٠٢.
(٣) انظر: دراسات في عهد النبوة، للشجاع، ص٢٠٩.

مكة، وخيبر، وغزوة تبوك، فبادر كل قوم بإسلامهم بعد أن امتد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم ثم مصالحة نجران في الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية، فلم يعد أمام القبائل العربية إلا المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة؛ ونظرا لكثرة وفود القبائل العربية التي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبي ﷺ من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هي ومن وراءها، فقد سمي العام التاسع للهجرة في المصادر الإسلامية بعام الوفود(١).

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه، فقد كانت حياته المباركة غنية بالدروس والعبر التي تربى عليها أمته في أجيالها المقبلة(٢)، ومليئة بالدروس والعبر في تربية الأمة وإقامة الدولة التي تحكم بشرع الله.

(١) انظر: نضرة النعيم (١/٣٩٥، ٣٩٦).
(٢) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (٤/٤٦٠).

اعلموا علم اليقين أن حكمة الله اقتضت أن يكون الحق والباطل في خلاف دائم، وصراع مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كل ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب، فمذ بزغ هذا الدين وأعداؤه من يهود ونصارى ومشركين ومنافقين يحاولون القضاء عليه، بكل ما يستطيعون،﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾[الصف:٨]، والتاريخ في ماضيه وحاضره يشهد بذلك أنى لهم أن يفلحوا ما تمسكنا بكتاب ربنا وسنة نبينا محمد ﷺ .

وهكذا وصلنا بعون الله وتوفيقه الى نهاية هذه الموسوعة التي ضمّت غزوات النبي المصطفى ﷺ دروس وعبر ، والحمد لله أولاً وآخراً .

سيبقى الخط بعدي في الكتاب وتبلى اليد مني في التراب

فيا ليت الذي يقرأ كتابِ دعا لي بالخلاص من الحساب

اللهم أغفر للقارئ والكاتب.

اللهم اجعل هذا العمل صالحاً ولوجهك خالصاً برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك يارب العالمين ،واكتب لنـا الشـهادة في سبيلك بعد طول عمر وحسن عمل ،إنك ولي ذلك والقادر عليه .

هذا وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آبه وصحبه وسلم .

وكتبه:

اليمن - المهرة

Almadari_1@hotmail.com

وتس آب/٠٠٩٦٧٧١١٤٢٣٢٣٢

٧٧٠٣٤٣٤٧٠

١. الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، القاهرة، مؤسسة قرطبة، ١٩٨٧ م.

٢. الأساس في السنة وفقهها - السيرة النبوية، سعيد حوّى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط٣، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٣. أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع

٤. الاستيعاب، ابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط. أولى، ١٤١٢ هـ.

٥. أعلام النبوة، بو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي

٦. إمتاع الأسماع بما للنبى من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تقى الدين أحمد بن على المقريزى، تحقيق : محمد عبد الحميد النميسى، دار الكتب العلمية ،بيروت ، ١٤٢٠/ ١٩٩٩م.

٧. البداية والنهاية، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي. ط/ دار المعرفة ، ط٢/ ١٩٧٨م .

٨. تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، تحقيق: عمر

تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١١ هـ.

٩. التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية.

١٠. تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري، محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار سويدان، د. ت.

١١. تاريخ دمشق، ابن عساكر، محيي الدين العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥ هـ.

١٢. تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤م.

١٣. تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤ م.

١٤. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تقديم: يوسف المرعشلي، بيروت، دار المعرفة، ط ٢، ١٤٠٧ هـ.

١٥. تفسير القرطبي، لأبي عبد الله القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م.

١٦. التفسير الكبير، الفخر الرازي، بيروت، دار التراث العربي، د. ت.

١٧. تفسير المراغي، الشيخ / أحمد مصطفى المراغى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

١٨. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق،ط٢، ١٤١٨ هـ.

١٩. جامع الأصول، لابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦هـ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، طبع مكتبة الحلواني سوريا، عام ١٣٩٢هـ.

٢٠. الجامع الصحيح (سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: كمال يوسف، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨ هـ.

٢١. جوامع السيرة، ابن حزم الأندلسي، دمشق، دار ابن كثير، ١٩٨٦ م.

٢٢. الحوار : أصوله المنهجية وآدابه السلوكية لأحمد الصويان ، ، طبعة دار الوطن.

٢٣. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان.

٢٤. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤٠٣ هـ.

٢٥. الذخيرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٩٩٤ م.

٢٦. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركافوري، المنصورة، دار الوفاء، ١٩٨٧ م.

٢٧. الرسول القائد، محمود شيت خطاب، دار الفكر – بيروت،ط٦، ١٤٢٢ هـ.

٢٨. زاد المعاد في هدي خير العباد، أبو عبد الله ابن القيم حققه: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ، دار الرسالة.

٢٩. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٣٠. سنن أبي داود، السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، د. ت. القاهرة، دار الريان، ١٩٨٩ م.

٣١. سنن النسائي، النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، بيروت، دار الفكر، والقاهرة، دار الحديث، ١٩٨٧ م.

٣٢. سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٣٣. السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، دار الكتب العلمية – بيروت،ط٢، ١٤٢٧هـ.

٣٤. السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم العمري، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة.

٣٥. السيرة النبوية دروس وعبر، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣٦. السيرة النبوية عرض حقائق وتحليل أحداث ، د.على محمد الصلابي الطبعة الأولى.

٣٧. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٣٨. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة :الدكتور مهدي رزق الله أحمد ط١ -١٤١٢هـ مكتبة الملك فيصل.

٣٩. السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، دار ابن كثير – دمشق،ط١٤٢٥،١٢هـ.

٤٠. السيرة النبوية مواقف وعبر :الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ط٢ دار الدعوة .

٤١. السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة ط٧/ ١٤٠٨.

٤٢. السيرة النبوية، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام، دار الفكر.

٤٣. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٤٤. شرح النووي على صحيح مسلم للإمام النووي المتوفى ٦٧٦هـ - طبع المطبعة المصرية ومكتبتها – القاهرة عام ١٣٤٧هـ.

٤٥. شرح النووي لصحيح مسلم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٤٩هـ.

٤٦. صحيح ابن حبان، أبو حاتم البستي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة، ١٩٧٠ م.

٤٧. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٠٧ هـ.

٤٨. صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٤٩. صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ -١٩٩٨م.

٥٠. صحيح السيرة النبوية، إبراهيم بن محمد بن حسين العلي الشبلي،ط١، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٥١. صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٢ هـ.

٥٢. الصراع مع الصليبين، محمد عبد القادر أبو فارس، دار البشير، طنطا، طبعة عام ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٥٣. الصراع مع اليهود، محمد أبو فارس، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

٥٤. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٥٥. صفوة الصفوة، أبو الفرج بن الجوزي، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢ هـ.

٥٦. صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، تأليف: د. محمد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٦م.

٥٧. طبقات ابن سعد الكبرى، محمد بن سعد الزهري، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.

٥٨. على خطى الحبيب :عمرو خالد .

٥٩. غزوة أحد دراسة دعوية، محمد عيظة بن سعيد بن مذجح، دار إشبيليا، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٦٠. غزوة أحد لأبي فارس، محمد عبد القادر أبو فارس، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، دار الفرقان، عمان – الأردن.

٦١. غزوة الأحزاب وما بعدها :الشيخ منصور الرفاعي عبيد ط١ الدار الثقافية للنشر.

٦٢. غزوة الأحزاب، محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٦٣. غزوة بدر الكبرى الحاسمة، محمود خطاب.

٦٤. غزوة بدر الكبرى، محمد أبو فارس، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٦٥. غزوة بدر الكبرى، محمد أحمد باشميل، طبعة دار الفكر، الطبعة السادسة، سنة ١٣٩٤هـ

٦٦. غزوة تبوك، محمد أحمد باشميل، دار الفكر، بيروت.

٦٧. الفتاوى، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د. ت.

٦٨. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ.

٦٩. الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد، أحمد عبد الرحمن البنا الشهير

بالساعاتي، القاهرة، د. ت.

٧٠. فقه السيرة النبوية :الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ط١١ ١٩٩١م

٧١. فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث مكة المكرمة.

٧٢. فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي، ط. خامسة، دمشق، دار القلم، ١٤١٤ هـ.

٧٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة التاسعة، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٧٤. القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٧٥. الكامل في التاريخ، على بن أبي الكرم ابن الأثير، تحقيق:

٧٦. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، جار الله الزمخشري، بيروت، دار المعرفة، د. ت.

٧٧. لسان العرب، ابن منظور، أعاد ترتيبه: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد، وهاشم الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١ م، بيروت، دار صادر، د. ت.

٧٨. المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، الهند، حيدرآباد

الدكن،/ بيروت، دار المعرفة، د. ت.

٧٩. المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٨ م، وبيروت دار الفكر.

٨٠. المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٨١. مسند الإمام أحمد بن حنبل، رق م أحاديثه: محمد عبد السلام عبد الشافي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م.

٨٢. المغازي للواقدي، محمد عمر بن واقد المتوفي ٢٠٧هـ، تحقيق د. مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م

٨٣. المغازي، محمد بن عمر الواقدي، ط ٣.، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٤هـ.

٨٤. المغني، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، مركز البحوث والدراسات الإسلامية العربية، ط ١، ١٤٠٦ هـ.

٨٥. من معين السيرة، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٨٦. المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير الغضبان، مكتبة المنار، الأردن الطبعة الثالثة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٨٧. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر،دت.

٨٨. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، عدد من المختصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي،ط٤، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة.

٨٩. جامع الأصول في أحاديث الرسول، مجد الدين أبو السعادات المبارك، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط - التتمة تحقيق بشير عيون، مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان، ١٣٩١ هـ ، ١٩٧١م.

٩٠. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٣ هـ.

٩١. نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، الشوكاني، بيروت، دار الجيل، د. ت.

٩٢. الولاء والبراء في الإسلام ، محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار طيبة، الرياض